

[illegible]

Princeton University Library



32101 072539339

الأميتنا والبرفح

سَيُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
« قرآن كريم »

تأليف

أحمد بن محمد بن عبد السلام الطولاني

١٢٥

al-Halawānī, Ahmad Abd al-Mun'im

الحمد لله الذي
بنا هذا من
أرض مصر
مصر
المسلم
السلام

al-Īmān wa-al-rūḥ

الْأَمِينُ وَالرُّوحُ

سَيُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

«قرآن كريم»

للمؤلف

كتب مطبوعة

- يليان في الأندلس .
- طريق الحق ومبادئ السلوك إلى ملك الملوك .
- النفحات الحميدة .
- المعاني الحسنى في شرح أسماء الله الحسنى وأدب الذكر والدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

نحت الطبع

- قصة الدين .
- روح الإسلام .
- معركة بين الجن والإنس والملائكة والشياطين (قصة) .
- مناجاة الحق .

فهرست

الموضوع	الصحيفة	الموضوع	الصحيفة
النظر في الإبداع .	٣٧	تقديم	
الجسد المادى لا يلبس إلا ما هو مادى .	٣٨	الإهداء	٣
عبادة المظاهر من حالة الكون المادى .	٣٩	مقدمة	٤
وعبادة الحق من طبيعة الروح .		حرية الفكر واستمداد الفيض الإلهى .	٥
تعليق الايمان على رؤية الحق .	٤٠	أغراض التأليف .	٥
طلب رؤية الحق في حالة البشرية .	٤٠	سبب تأليف هذا الكتاب .	٨
التكليف يمنع الرؤية المجردة .	٤٣	المعرفة القطرية	١٢
حكمة الايمان بالغيب .	٤٤	ضيق صدر بلا سبب .	١٢
الايمان بالسميعات .	٤٥	وارد من الحق .	١٣
دعاء الايمان	٤٦	أين كنت قبل هذا العالم ؟ .	١٤
سبب انحراف الناس عن الحق	٥١	الطفل من يوم الميلاد .	١٥
الايمان بالله واضح لا يقبل الجدل .	٥١	إدراك الوجود .	١٦
الفلسفة الحققة لا بد أن تؤدى إلى الايمان بالله	٥٢	النظر في الإبداع الكونى .	١٧
وتوحيده .		التعرف على مدع الكون .	١٩
لم يختلف الناس ؟ .	٥٢	الإنسان بطبعه متعبد يطلب معبوده	٢١
البغى والشهوات علة الخلاف .	٥٤	آلام الإنسان وآماله .	٢١-٢٢
الفرور بالدنيا .	٥٥	أين البقاء .	٢٢-٢٣
استخفاف الطغاة بشعوبهم .	٥٦	جسد الانسان لا يملكه .	٢٣
استغلال المبادئ الدينية فى استلام السلطة	٥٧	إرغام الانسان على الاجتماع .	٢٤
والحكم لأنها أجدى فى ذلك من المبادئ		طلب المعين .	٢٥
السياسية وغيرها .		الحب نعمة وجمال	٢٧
إخفاق بعض الناس عن بلوغ الزعامة يؤدى	٥٩	لذة الأجسام وجمال المعانى .	٢٧
بهم إلى الخلاف .		حب الأجسام وحب الأرواح .	٢٧
حكمة إرسال الرسل	٦٠	معبود الفن .	٢٨
حب الشهوات يطفى على العقل .	٦١	الحب القانى والحب الباقي .	٢٩
عظم الأمانة التى حملها الانسان .	٦٣	حب الموجد ، الحب تجانس فى المبدئ والعقيدة	٣٠
العقل ميزان والهوى والنفس من عملائه .	٦٤	مقامات الحب .	٣٢
تفاوت الناس فى إدراكات العقول .	٦٥	الحب فى الله .	٣٣
تطلع الناس إلى من يده سلطان الحق من الله .	٦٦	الايمان بالغيب	٣٦
شرف الرسول من شرف مرسله .	٦٧	منطق الوجود .	٣٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الصبر أهم أسباب النجاح .	١٠٢	٦٧ عناية الله بخلقه ومنايع الهدى	
الفيض الالهى .	١٠٣	٦٨ ما أسبغ الله على الإنسان من النعم وماجابه به	
من الفيض ترتوى أرواح أهل الحقيقة .	١٠٤	من التكريم .	
الكشف .	١٠٥	٧٠ مجد الرسل .	
الالهام .	١٠٦	٧١ صفوة المختارين .	
١٠٨ فيض من الإلهام — مناجاة		٧٣ موارد الفكر الإنسانى	
احفظ مقام الناس .	١٠٩	٧٣ عجز الانسان عن بلوغ الكمال .	
نحييكموا يا آل بيت محمد .	١٠٩	٧٥ رأى العلماء فيما وصلوا إليه من حقائق الوجود	
أرواحنا متناسقات .	١١٠	٧٧ الانسان لا يعمل وحده فى هذا السكون	
العين تبكى	١١٢	الظاهر والمستتر .	
نحكى بالعلم .	١١٢	٧٨ الروح	
ذليل على الأبواب .	١١٣	٧٨ هى السر الخفى .	
نفثات الغرام .	١١٣	٧٩ رأى العلماء .	
ساعة تمر .	١١٤	٨٠ أطوار خلقها .	
المصطفى مازال يعلو قدره .	١١٥	٨٣ فألهما فجورها وتقواها .	
ألا كل شيء ما خلا الله باطل .	١١٧	٨٣ الضمير .	
الناس لا يدرون .	١١٨	٨٤ استطراد .	
وشرابى حب حضرته .	١١٩	٨٧ كيف تباشر الروح أعمالها عند حلولها	
وإنى فنى لم يدخل الغير قلبه .	١٢٠	فى هذا الجسد .	
وسارع للتقى .	١٢١	٨٨ كيف تسرى إرادة الروح .	
الله قل وذو الوجود وماحوى .	١٢١	٨٩ المعانى والتخيلات فى قراءة الروح .	
إن الطريق هى الذكر الكثير .	١٢٣	٩٠ المنح أداة للروح لا يعقل ولا يحس .	
مرت على المروءة وهى تبكى .	١٢٣	٩٠ القلب مركز الارادة .	
اعتصم بالكتاب .	١٢٤	٩١ كيف تعمل الناكرة .	
اقصد الله .	١٢٥	٩١ المنح مركز للوارد والصادر من وإلى الروح .	
عجزى عن الادراك .	١٢٥	٩٢ أقسام الوارد والصادر للمركز .	
واديننا المحبة والذكر .	١٢٦	٩٤ العقل	
كل شيء به ظهرت علينا .	١٢٧	٩٥ نتيجة	
نحن فى عالم اليقين رجال	١٢٨	٩٦ المواهب والاكتساب والفيض الالهى	
كل شيء هين مطلبه .	١٢٧	٩٨ المنح الالهية سابقة على الخلق	
اصدقوا تؤجروا .	١٢٨	٩٨ أوراق الامتحان .	
فى مدح المصطفى .	١٢٩	١٠٠ الاكتساب .	
أفرغ دموعك .	١٢٩		
النوم والأحلام — النوم	١٣١		

الموضوع	الصحيفة	الموضوع	الصحيفة
شرف تكليف الانس عن الجن .	١٧٧	الحكم التي نستلهمها من حالة النوم .	١٣٢
مخالطة الجن للانس .	١٧٧	أحوال الروح في أثناء النوم .	١٣٤
لا يجوز للجن الترائي للانس .	١٧٨	إرادة الروح وقت النوم .	١٣٦
حكم الترائي .	١٧٨	الايحاء الروحي وقت النوم .	١٣٧
لا يصح لانس دخول الموحش من الأمكنة وحيدا .	١٧٩	أسباب الأحلام .	١٣٧
غرام الجن بالانس .	١٨٠	الواردات التي تصل إلى الروح في أثناء النوم .	١٣٩
أخبار الجن عند العرب .	١٨٠	كيف نحفظ أنفسنا من طارق السوء في أثناء النوم .	١٤١
هل يجوز الاستعانة بالجن .	١٨٣	تعبير الأحلام .	١٤٢
السحر .	١٨٤	العوالم غير المنظورة .	١٤٤
أحكام السحر .	١٨٥	أثرها في حياة الانسان من حيث لا يشعر .	١٤٤
النفث في العقد .	١٨٨	لا توجد حجة عقلية تمنع وجودها .	١٤٥
الرقى .	١٨٨	أقسام العوالم .	١٤٦
الزار وأحكامه .	١٨٩	عالم الملائكة .	١٤٧
الطلاسم والأوقاف .	١٩٠	الملائكة لا يتوالدون .	١٤٨
حكم الاستمتاع والاستلاذة .	١٩١	الملائكة يتشككون .	١٤٩
رواية شاهد عيان .	١٩٣	درجات الملائكة .	١٥١
تحضير الأرواح	١٩٨	من أمم الملائكة حملة العرش والمسيحون .	١٥٢
تحضير الأرواح - فسدة للمجتمع .	١٩٨	الطوافون يحيون أهل الايمان .	١٥٣
بطالان ما جاء في كتاب على حافة الأثير	٢٠٧	الحفظة والرقباء .	١٥٥
شهود التحضير .		رسل الموت وسيدنا عزرائيل .	١٥٥
مقدمات التحضير .	٢٠٨	كيف يعامل الملائكة أهل الايمان وأهل الكفر .	١٥٥
خرافة البوق .	٢٠٩	عالم الشيطان .	١٥٦
الاعيب الجلسات .	٢١٢	عصيان إبليس .	١٥٧
الخلاصة .	٢١٤	أسباب عداوته لآدم وبنيه .	١٥٩
حكم الامام محمد عبده .	٢١٦	بحث للشيخ الخوانى الكبير في الشيطان وأصله .	١٥٩
تحضير الأرواح بنافى تعاليم الاسلام .	٢١٧	تشكل إبليس وظهوره .	١٦٩
الشعوذة والطب الروحي .	٢١٩	تحايل إبليس .	١٧٠
الطب الروحي .	٢٢٠	حياله وفتنه .	١٧١
آفاك وظهور أمثاله ، قبل ظهور الدجال .	٢٢٠	عالم الجن .	١٧٣
أسئلة وأجوبتها .	٢٢٠	تكليف الجن .	١٧٤
الساعة الرهيبة	٢٢٢	رسل الجن من الانس .	١٧٦
حياة الروح بعد الموت	٢٣٢		
حياة البرزخ	٢٣٤		
أقوال العلماء في مستقر الأرواح بعد الموت .	٢٣٥		
الخلاصة .	٢٣٨		

تقديم

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام بك

مدير جامعة فؤاد الأول بالنيابة وعميد كلية الآداب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم .

— ١ —

وبعد ، فقد كتب التقي النقي السيد أحمد عبد المنعم الحلواني كتاباً سماه «الإيمان والروح» وضمنه فصولاً قيمة في مباحث نفسية وروحية ودينية مثل :

المعرفة الفطرية — الإنسان بطبيعته متعبد يطلب معبوده — الحب نعمة وجمال — الإيمان بالغيب — سبب انحراف الناس عن الحق — حكمة إرسال الرسل — عناية الله بخلقه ومنابع الهدى — موارد الفكر الإنساني التي يصدر عنها في أعماله ... الخ

وأتبع هذه الأبحاث بحثاً واسعاً مفصلاً في تحضير الأرواح ، وأنكر على مدعى هذا التحضير ، ونقد كثيراً من آرائهم وأعمالهم . وروى أقوالاً في هذا وقصّ قصصاً مختلفة .

والخلاصة أن هذا الكتاب تضمن فصولاً في معانٍ سامية ، ونظرات في المطالب العالية التي تتصل بالحق سبحانه وتعالى ومباحث إنسانية جليلة جديرة بالنظر والعناية .

— ٢ —

وقد تخلل هذا مآثرات من كلام الصوفية نظمهم ونثرهم ، والأدب الصوفي أدب يبين عن النفس الإنسانية في أسمى نزعاتها وأصفى حالاتها — ونحن في حاجة إلى إشاعة

بوصول ما انقطع من أحوال السلف فيه ، وقد دل ما رواه المؤلف الفاضل على أن الشعر الصوفي الذي عرفناه في تاريخنا البعيد والقريب ، لا يزال حتى اليوم شائعاً يترجم عن دقائق النفس الإنسانية ، ويحاول الإبانة عما في سرائرها ، والإعراب عما لا يمكن الإعراب عنه من الشعور الرباني الذي لا يحد ، والنفحات الإلهية التي لا تحيط بها الألفاظ ، ولا تقوى عليها العبارات .

وعلى الكتاب مسحة صوفية تشعر القارئ بإخلاص الصوفية في طلب الحق ، وتواضعهم في البحث والتحرى واعترافهم بعجزهم ، ومسارعهم إلى الأخذ عن غيرهم ، والإقرار له بالفضل ، وتوجههم في كل جليل ودقيق إلى مصدر الفيض الأعظم الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، ذاكرين دائماً الآية الكريمة « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وإن القارئ ليرى نفس المؤلف مخلصة في مطالبتها ، متجلية في أحوالها وصفاتها ومنازعتها ؛ فإن شاء باحث نفس أن يجعل الكتاب من جهة مؤلفه بحثاً عن النفس الإنسانية وجدها في الكتاب صريحة واضحة بينة لا عوج فيها ولا لبس ولا خداع ولا رياء ، بل يتبين خلجاتها ونزعاتها في كل فصل من الفصول معروضة للتصوير والتسجيل .

وبعد ، فإننا في هذا الزمن الذي سيطرت فيه المادة ، وتسلبت الحس ، وتحكمت الشهوات وتأله الهوى ، وصرف الناس عن أنفسهم ، ونسوا حقائقهم ، وصموا عن صوت الحق في ضوضاء الأسواق ، وعموا عن الحقيقة في غبار هذه المعارك التي يديرها الجشع حول حطام هذه الحياة الدنيا — نحن في هذا الزمن أحوج ما نكون إلى من يدعوننا إلى أنفسنا ،

ويلفتنا إلى الجوانب الروحية في حياتنا ، فكل بحث في هذا الجانب مفيد ، وكل رأى في هذا الموضوع مهم ، وكل كتابة في هذا الصدد جديرة بالعناية ، وسواء أوافق القارئ الكاتب على آرائه أم لم يوافقها ؛ فإنما يعيننا أن يهتم الناس بالمباحث الروحية ويعُنُوا بها ، ويلتفتوا بها قليلا إلى أنفسهم ومبدئهم ومعادهم ، وإنما نريد أن تستيقظ في الإنسان المطالب الروحية العالية التي تسمو به عن سفساف الأمور ، وتفتح أمامه آفاقا واسعة تصغر فيها هذه المظاهر المادية ، وتشعره لذات عالية دائمة ، يحقر بجانبها ما يعبد الناس من شهواتهم وأهوائهم .

إن المطالب الروحية والنزعات العالية تجمع النفس الإنسانية التي تنقسمها الأهواء ، وتفرقها المطامع حتى كأنها نزعات متعددة تختلف باختلاف الأوقات ، وتعدد المطامع ، وتردّها نفسا واحدة لها عقلها ووجدانها ، تصدر أفعالها عن عقيدة ، وتسير أفعالها على خطة .

ولا تهتدى النفس الإنسانية إلى حقيقتها ، وتتجه وجهتها الحققة حتى تجتمع وتلتئم ، ولن تستطيع هذا حتى تحرر من الأهواء وتخلص من الشهوات التي تفرقها وتشغلها دائما عن حقيقتها وعن مطالبها العليا .

شكر الله للمؤلف سعيه ، وجزاه الخير كفاء إخلاصه للحق ، وحبه الخير للناس ؛ وهداه لتي هي أقوم .

وهو المسئول أن يرزقنا جميعاً بالإخلاص في الفكر والقول والفعل وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

عبد الوهاب عزام

٧ رجب سنة ١٣٦٦ هـ

٢٧ مايو سنة ١٩٤٧ م

الامير تاج الدين

سَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَتَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

« قرآن کریم »

تأليف

أحمد بن محمد بن عبد السلام الطولاني

الطبعة الأولى

م ۱۹۴۷ — ۱۳۶۶ هـ

جميع الحقوق محفوظة للهؤل

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهداء

إلى الذى أحبه بروحى وعقلى ونحى وعظامى ودمى ،
وأهتف باسمه ما تردد فى نفس ، من ذات روحى ، ومن أعماق نفسى ،
وله محياى ومماتى ، وفى جاهه وكنفه أعيش ، وبسابع كرمه أحيا .
إلى ملك الملوك السبوح القدوس ، ربنا ورب الملائكة والروح
وإلى الذين يحبونه فيحبوننى وأحبهم بحبه ، وفى ظلاله نحيا فى الحياتين حياة السعداء ،
ونصل إلى روح الحقيقة ، فنجتلى من نورها بهجة الجمال ، ورحيق الوصال ؟
ربيب النعمة

المؤلف

مَقِيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

الحمد لله رب العالمين الذى أمدّ أرواح المؤمنين بنور هدايته ، وأنقذهم من نار الغفلة واستعبدهم فى أسرار حضرته ، وأذاقهم برّ رحمته ، وأفاض عليهم من نور خشيته ، وشوقهم لجنة رؤيته ، فأنأخوا على بابه طالبين وصلته ، وعرفهم منتهاهم فلم يلههم أمل خادع ، وانصرفوا عن الدنيا ، وجعلوا جلّ همهم الآخرة ؛ لينالوا الحظ الأوفر فى دار كرامته .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد روح أرواح أهل الحق ، حامل لواء المعرفة بالحق ، خير المرسلين لهداية الناس إلى طريق الحق ، الذى بلغ رسالة ربه ووعد الناس وعد الصدق ، فاتبعه كل رشيد آمن بالله وعمل لما بعد الموت ، حتى يجوز الموت وما بعده آمنا محفوفاً بالرحمة والرفق ، ويسعد فى دار لا يسعد فيها إلا أهل الصدق ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ » .

وعلى آله وصحبه أهل الإيمان والصدق ، وسلم تسليماً مباركاً نحوز به قصب السبق .
أما بعد : فهذا كتاب استخرت الله سبحانه وتعالى فى أن أخرجه للناس ، بعد أن كنت لا أرى داعياً لنشره ، خجلاً من قصوره وعيه ، أو أن أحاسب على قول قد لا يوافق الصواب ، ويقفى موقف أهل العثرات يوم الحساب ، وخاصة فإن موضوعه دقيق خطير ، لا يقدم عليه إلا كل عالم نحرير ، أو فيلسوف حكيم خبير ، فمن أراد أن يكتب فى الإيمان والروح ، فلا بد أن يكون من أهل العلم والحكمة والفتوح ، ولكنى قلت وما على وقد اندرجت تحت قول الله سبحانه وتعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »

وقوله جل شأنه : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » وهذه آيات توجب على العاقل أن يفكر في نفسه وفي مصيره وقد فكرت كأي مفكر يفكر في عاقبته ، ودونت بعض أفكارى قبل أن أقرأ لغيرى لئلا أتأثر بتفكيره ، أو ينفث في روعى من عقيدته دون أن أتبين صواب محبته ، أو يدع على عقلى حجابا لا أتمكن بعد ذلك من إزالته ، ولأكون حرا لا أعتد على أحد في تفكيرى ، ويكون جلّ اعتمادى على ما يفيضه الله على قلبى غير هباب ولا وجل ، فإنى أعتقد أن الله هو المعلم الذى إذا استفتحته فتح لى ، وإذا استسلمته ألهمنى وفهمنى ، وإذا استهديته هدانى ورشدنى ، والقلوب والأفئدة بين يديه ، لا يخطر على القلب خاطر إلا بعلمه ، وقد علمنى والذى رحمه الله رحمة واسعة أن أرفع حجاب التقليد عن عقلى وفطرتى ، فإن هذا الحجاب يميّت السموّ والارتقاء فى الأفراد والأمم على السواء ، إذ يصبح الفرد مقيدا مغلولاً لا يعتمد على الله فى تفكيره ولا يستلهمه ، وتصبح الأمة عالة مستعبدة لغيرها فى العلوم والمعارف ، وهذا الاستعباد أكثر ضررا من استعباد الأراضى والبلاد ، لأنه يدل على أن عقلها لم ينضج للاستقلال بالفكر وهداية غيرها من الأمم إلى سمو الإدراك الإنسانى .

وإطلاق الفكر حرا فى فضاء الفيض اللانهاى يفتح موارد العلم السامى الذى تنتفع منه الخليقة ولا ينتهى . والناس فى التأليف على أنواع :

قوم يعتمدون على النقل ويبالغون فى استقراء المراجع لما لاقى العلم من جهل النقلة وأطراف الكذب ، وهم نقلة العلم وحفظته يجمعونه للناس من الماضى إلى الحاضر حريصون على نسبة العلم لأهله وبيان مظانّه . وقوم ينقبون فى أغوار الماضى عساهم يخرجون ما يفيد فى الحاضر والمستقبل للوصول بينهما مع التهذيب والترجيح . وقوم يقرّبونه للأفهام ويسميغونه للقاصرين . وقوم يجمعون لبحث بعينه ما غاب فى شتات الكتب ، وهؤلاء وهؤلاء لهم الفضل ، ولكن الفضل الأكبر لكل من لا يستحي أن يطالع الناس بأفكاره مهما كانت صياغته لهذه الأفكار ، ويجهّد أن يزيد المعانى معنى جديدا أو يلبسها ثوبا ناصعا تطرب له العقول وتسكن إليه القلوب، حتى ولو أتعّب الناس فى أن يغوصوا على درره فى شتات حديثه؛

فإننا لا نحصل على اللآلئ إلا إذا غصنا البحار ، وأحسب أنى وإن لم آت بالكثير منها فقد جئت بما ينفع إن شاء الله ، وهذا ما شجعتنى على أن أنشر على الناس صفحة من تفكيرى حتى أشجع غيرى على ذلك ، فقد يكون لدى من لا يحسب لنفسه حسابا؛ فتح قريب وكشف جديد ، وأمة لاتشجع هؤلاء تترك أرضا خصبة فى نواحيها من غير كشف ولا زرع ، ولا تربي الملكات والمواهب النظرية ، وقد قال أستاذى المرحوم عبد الله بك عفيفى رضى الله عنه :

هو الجِدُّ حتى نحمد السَّير والشَّرى وحتى نرى ليل الحياة نهارا
فما عالم فى الأرض إلا سبيله هجا ألف باء فليس يبارى

ولهذا كان من عادتى أن أدوّن أفكارى ، وأبحث معتقدى فى شىء ؛ بنفسى أولا ثم أبداً فى القراءة لغيرى ، ثم أخص ما أقرؤه لثلاثي فئوتى الانتفاع بما لم يصل إليه فكبرى ، وحتى أزن ما وصلت إليه بما وصل إليه غيرى ، وأجتهد أن أصل للصواب ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله .

ثم أقرر خلاصة ما انتهيت إليه وكنت بعد أن أقرأ لغيرى أرى أحيانا توارد الأفكار ، وأن كثيرا من الناس سبقونى فى كثير مما كشفت عنه ، فكنت أفرح بذلك ، ولكنى لم أحاول أن أغير فى عباراتى ، ولا أترشح عما اخترته لمسمياتى ، مهما كانوا أحسن منى تعبيرا وأكثر فنا فى عرضهم ، ولو أخذت منهم شيئا تركت كلامى على ثوب فطرته ، وما حلا لى منهم زدتة تعاليق ونهبت عليه ، فتجمعت لدى جملة مقالات فى الإيمان والروح نشر بعضها فى جريدة منبر الشرق الغراء فى سنة ١٩٤٥ ثم أكملتها بأبحاث أخرى فى الأحلام وعالم الملائكة والجن وتحضير الأرواح وعالم البرزخ وما بعد الموت ، وجعلتها مادة هذا الكتاب ؛ وقد جاءت من غير ترتيب أو مراعاة للمصطلحات المتواضع عليها ، لأن جل اعتمادى فيها كان على تفكيرى وما ارتضاه قلبى وما نقلته عن الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وخاصة فإنى لم أرد به كتاب علم جاف ، بل أردت به كتاب إيمان وروح من شغاف لطيفة القلب ومن فيح ريحان الروح ، بغير ما تكلف وفى منتهى البساطة ، منتقلا من حديث إلى حديث عسى أن لا يمل قارئه فينتفع به بإذن الله . وأهم ما أهتمنى لإخراجه أن يعلم الناس

حقيقة ماتواضع عليه أهل العصر الحاضر من تسمية تحضير الجان بعلم تحضير الأرواح، وفي هذا لبس ، وقد أهدي إلى صديقي العزيز الدكتور محمد بك عبدالحى كتاب (على حافة العالم الأثيرى) وطلب منى أن أكتب عن هذا الموضوع ولكن مشاغلى منعنى أن ألبى طلبه فى وقته ، وقد سألتى كثير من إخوانى أيضا بيان هذا الموضوع علما وشرعا ، لأن كثيرا من الناس وقعوا فى هذا الفخ ففسدت أحوالهم فعسى أن يشفى غليلهم هذا الكتاب بعد قراءته ، وكنت أخشى نشره خوفا من الله أن يحاسبنى إذا تعثرت فيه ، قبل أن أخشى الناس إذا انتقدونى على خطأ فاتنى بين سطورهم ومعانيه ، أو عابونى على معاناتى موضوعا لست أهلا أن أعانيه ، ولكنى قلت إن الله لا يؤاخذنى مادام رائدى حسن القصد فيه ، وكنت أخشى أيضا أن يزل الجنان والقلم فى عقيدة لاتطابق الصواب، فيقع فيها غيرى بلا ارتياب ، ولكنى أبرأ إلى الله من حولى ومن قوتى وأفر إلى القرآن الحكيم وإلى سنة سيد المرسلين ، فهما عقيدتى التى أدين الله عليها حتى ألقاه ، إذ لا يضل من تمسك بهما . فإن أكن وفقت فى حديثى عن الإيمان والروح وسرت مع منطق العصر الحاضر دون أن أترجح عن الكتاب والسنة ، فذلك فضل الله وله الحمد والمنة ، وعلم الله أنى خرجت بنتيجة واحدة ، وهى أنى ازدددت إيمانا بأن نورهما على الأجيال لا ينطفئ وسراجهما أقوى كل أنوار المعرفة ، فهما الزبدة النقية التى استخلصت من اللبن ، فمن نظر فى غيرهما أتعب نفسه فإذا مارجع إلى الحق وجده فيهما واضحا لا يحتاج إلى عناء علماء الشرق والغرب على مر الأجيال مهما مرت على قلوب الناس موجات الريب من ظلمات المعاصى .

وقد ينفع الاطلاع على هذا الكتاب أمثالى ومن كان حاله مثل حالى ، يبيت مبلىب الأفكار لا ثبات له ولا استقرار، حتى يرى نور الحق وما يطمئنه فى سيره إلى الله ويهديه إلى ما فيه السعادة فى دار القرار ، أو أناب طامعا فى عفو العزيز الغفار ، ويعفو عن هفواتى ، وينتشانى من شرأتى ، ويستر عوراتى ، فإنى أعلم أن الدعوى مجلبة للبلوى ، ويأخذ منه ما يفيد ، فيشره للريب والبعيد ، ويحصص رأى الفطير ، ويدانى على الحق وصادق التعبير ، فإن ذلك مما يسر قلبى ويريح فؤادى .

ولقد بدأت أفكر في موضوع الروح وما بعد هذه الحياة مما ساقصه راجيا من الله أن يغفر لي ما تجرأت على الكشف عنه حبا في الخير .

أذكر يوما من أيام سنة ١٩٢٣ ميلادية أني كنت مريضا فذهبت للمغفور له الدكتور شعبان بك الهريدي، وكنت أعتقد في طبه وبركته وأمانته رحمه الله رحمة واسعة ، فقال لي تحتاج إلى عملية جراحية ، فقلت له هل من علاج غير المشرط ؟ فقال لا محيص من ذلك ، ثم اختار لي مستشفى كلسلاري بمحرم بك إسكندرية ، وكنت أخاف البنج فقال لي ستأخذ مخدرا من الأثير ، وتواعدنا على الغد ، فخرجت من عنده خائفا أترقب الغد ، وكنت في شرح الشباب تأخذ بلبي زهرة الحياة الدنيا ، لم يمر بخاطري أن كل امرئ فيها معرض لأن يودعها يوما لا يخطر له على بال ، وليس عنده من أمره ميقات رغم رؤيتي كل يوم للجنائز . وبت أفكر أني ربما أفارقها ساعة العملية ، عندئذ عرفت ربي وفتق الخطر ذهني ، فبت أصلي ليلتي وأدعو الله بالنجاة ، وأقول «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاَهُ» ولما أصبح الصباح اغتسلت وصليت ركعتين لله تاهبا لما عساه قد يحدث إذا دعا الداعي إلى لقاءه ، ثم قلت لوالدي : إني ذاهب إلى بعض المدن نزهة واستجماما حرصا على اطمئنانهما ، وحتى لا أشغل بالهما ، إلى أن يأذن الله بالشفاء فأعود إليهما يبشرى النجاة ، ولكن والدي على غير العادة قال لي سأوصلك إلى الحطة ولم يدع لي مهربا ، فلم أجد في أثناء السير إلى المستشفى بدا من إخباره ، وقد حجزوه خارج حجرة العملية ، إشفافا عليه من تلك العاطفة الأبوية ، وقد أناموني تحت كلمة البنج وصرت أنجرعه شبيقا في الأنف جرعة بعد جرعة ولا أكاد أسيغه وأعد لهم أرقام الحساب ، حتى كادت روحي تزهرق من هذا العذاب ، وقد طال بي وبهم الوقت ، وأخيرا أحسست إحساسا لا أشك أنا فيه أن روحي خرجت من جسدي وأنا أعينه ، إلى أن غاب عني وطرقت إلى السماء ، وهناك وجدت بها بهية الجمال ، نورها فوق كل الأنوار التي شاهدها ، نور يقرب من نور النهار قبل شروق الشمس ويزوغها للأبصار ، لونه أشد اخضرارا وأشد لمعانا من الكواكب الدرية ، لا يعيشو البصر ، في جمال لا يخطر على قلب بشر ، فتلقاني هناك قوم من العرب يلبسون ثيابا بيضا يلتفون بها على هيئة ثياب الإحرام ، طوال عن

طول جيلنا هذا ، أجسامهم هياكل نورانية أعضاؤها بلورية متألثة مملوءة بالنور في جلال وجمال لا يحيط به الوصف ، إذا رفعوا أيديهم في الهواء انتشر نورها في جميع الأرجاء ، كالأنوار الكاشفة ، ولكنها أنوار في أنوار وأضواء في أضواء ، لا يحجب ضوءها باقي الضياء ، فسبحان الله الخلاق العظيم ، وكأنهم حضروا للقائى ، فلما لاقيتهم حيونى أحسن تحية . ثم ساروا معى في تلك الأنوار القدسية ، فقلت لهم إلى أين تذهبون بى ؟ قالوا لملاقة الله ، قلت لهم : إن لى ذنوبا ، قالوا أبشر فقد غفرها الله لك ، قلت لهم إنكم لا تعلمونها وهى كثيرة جدا ، قالوا أبشر فقد غفرها الله لك جميعها فسر معنا للقاء الله ، قلت بخ بخ ولكن أحب أن أرجع لأهل الأرض ، فأبلغهم ما أتم فيه من النعيم ، وأخبرهم عن هذه الحياة الحقة وهذه الأنوار العظيمة المتألثة ؛ فإنهم لو علموها ما حرصوا على الحياة وما خافوا الموت ، بل تجرعوه كما يشربون فنجانة من الشاى سراعاً إلى هذا النعيم ، وهذه الحياة الصافية الخالية من النصب والغوب ، قالوا مالك ومالم ؟ قلت لا بد أن أبغهم ، ثم انتزعت يدي بقوة منهم فتنبت ، فإذا أنا على سرير المستشفى وإلى جوارى والدى رحمه الله . فلما رأيت أنى رجعت إلى هذه الحياة ضاق صدرى وندمت على ما فعلت مع هؤلاء الأبرار ، وأنى طاوعت نفسى فى الرجوع ثانية إلى هذه الدار ، وقلت لها ياليتك نجوت وبرئت من اكتساب الأوزار ، وما شألك بالناس والناس لرب الناس ثم بكيت . فأشفق على والدى وظن أن هذا أثر البنج فقال لى متلطفا : لا تظن أنى تأملت لك فى أثناء العملية فأنى سمعتك طول العملية تقول الله الله لم تفتر ولا لحظة حتى انتهوا منها ، فاطمأنت لذلك وأنت بخير ، فقلت له ما أحسست أنى أذكر قط ووالله ما أخاف شيئاً ولكنى حزنت إذ عدت أرى ظلام هذه الحياة ، ثم صرت أتكلم عن أحوال الروح بكلام غريب ، ومن هذا اليوم ابتداء تفكيرى وصرت أتعلم فى التفكير ، وازددت تطلعا إلى العالم الآخر لما مرضت ثانية واشتد بى المرض حتى ضاق بى ، فأخذت غفوة بين النوم واليقظة ، فرأيت سيدنا آدم عليه السلام إلى جوارى ، آدم الوجه فى سمره جميلة ذا وجه لم أر أجمل منه ، إذا تصور أى فنان جمال وجه فرسمه بريشته لم يبلغ فنه هذا الجمال فى جميع تقاطيع الوجه ، جمال أخاذ فى رهبة

وجلال ، ولكنى وجدته عابسا يكاد يخلع قلبي من شدة عبوسه ، وكنت أدرك من نفسى أن ذلك من عظيم ذنبى ، ولكنى تجرأت عليه ، وقلت له : لا أحب أن أراك على هذه الحال ولا أدعك حتى تضحك ، فتبسم تبسما لطيفا ، فقلت له إذن ادع لى ، فقال لى غفر الله لك ، فانتبهت من غفوتى مسرورا ، وبرئت من مرضى كأتى خرجت من عقال ، ومن هذا اليوم وأنا أحب سيدنا آدم أبا البشر عليه صلاة الله وسلامه ، وأرى فى الناس عقوقا إذا يذكرون والدهم الأكبر كما يليق بمقامه ، وكما يستحقه لبره بالمؤمنين من ذرئته ، جزاء الله عنى وعنهم خير الجزاء .

وقد زادنى تطلعا لمعرفة ما بعد الموت ، ما صدمت به يوما بعد يوم من فراق أحبتى ووالدى الذين سافروا من هذه الدار إلى الدار الأبدية ، وعلمت علم اليقين أن دار الدنيا ليست دار قرار وأنه لا بد لى يوما من الأيام - إن طال العمر أقصر - من السفر إلى حيث سافر هؤلاء ، فإنه لم يسمع أن أحدا ممن كانوا قبلنا لم يذق طعم الموت وكان من الخالدين ، وعلمت أن العاقل من يستعد لعاقبته ويتشوق لمعرفة ما بعد الموت ، وكانت أول صدمة صدمت بها موت أستاذى العارف بالله القطب الجليل سيدى الحاج محمد أبى خليل ، فما أحسست بضيق فى صدرى من الحياة إلا بعد وفاته إذ كنت مغمورا من وجوده بأنس لا يعلمه إلا الله ، فقد كان قدس الله شراه ، ورفع درجته فى درجات المقربين ، روحا عالية ، ونفسا عظيمة ، وكان معلما ومربيا ، وكان ردها وكنفا ، وكان ملاذا وعونا على النائبات ، وكان واسع الصدر يفيض أنسا وحنانا على تلاميذه أجمعين . فما أحسست ظلمة الحياة إلا من بعده . ثم صدمت بعد ذلك بموت أحد إخوانى الصالحين ممن كنت أحبهم حبا جما ؛ لدماثة خلقه ، وقوة إيمانه وفطر كرمه : وهو المرحوم (محمد بك الفقى) من كشيخ منوفية ، رحمه الله رحمة واسعة ؛ وزاد فى تأثرى أنه كان فى صحة جيدة وأنه نبأنى يوما وأنا أزور معه مقام سيدى أحمد البدوى بطنطا ميقات موته والمكان الذى سيموت فيه ، إذ قال : رأيت أنى خرجت للحجج فى هذا العام وأنى أطوف ، ولكنى غير قادر على الطواف ، فحملونى حتى لا أحرم الطواف وكان إلى جوارى والدك ، فقال : تجلجد يا محمد بك ، فإننا نذكر أكثر منك حتى تخرج حرارة الذكر من رؤوسنا

المعرفة الفطرية

أذكر يوما أديت فيه أعمالى، وعدت إلى منزلى فى الظهيرة، فأحضر لى غدائى، فلم أستسغ منه إلا قليلا مع حسن أنواعه وتعدد ألوانه، ثم أخذت فى مقبلى ولكنى لم أذق طعم الكرى لحظة، وكان اليوم صائغا شديدا الحر، فخرجت من المنزل أيمم بعض الحقائق الكبرى، وكنت منقبض النفس أكره أن أرى البعيد والقريب والعدو والحبيب، لم يكن كل ذلك عن تعب فى الصحة ولا شكاية فاقة أو مسغبة، قد يكون من الحر، وقد يكون من عدم وفاء من لاقيت من الناس، وتشعب آرائهم وكثرة لغظهم، وزيادة نهشهم لأعراض غيرهم، وقد يكون من غير ذلك، ولكنى كنت أحس فى صدرى ضيقا، يملك على أنفاسى حتى ضاقت بى الدنيا على سعتها، وما زلت كذلك حتى وصلت إلى الحديقة، واتخذت منها مكانا قصيا بعيدا عن أعين الناس لأسمع فيه همس الآدميين، جلست أسمع تغريد بعض الطيور وأتأمل جليل صنع الخالق، فإذا بى أستبدل بالضيق انشراحا، وبالقلق راحة واطمئنانا، فقلت ما أجل حياة العزلة فى جو الطبيعة الصافى من أدران الخلق، لقد سُرى عنى بالبعد عنهم، وقلت لنفسى: لم ألم أملكك وقت الضيق فأجعلك ممتلئة سعة وإيناسا، لقد حاولت كثيرا فلم أستطع ولو اشتد علىّ ضيق مثل هذا يوما من الأيام لصرت إلى الموت، وقلت لنفسى أمن ضيق لا تعلم مصدره تموت؟ وهل تضيق بنفسك أم تضيق بالعالم، أم العالم يضيق بك فينأى عنك؟ وهلا يكفيك من العالم هذه الشهوات فتتمتع بها كيف شئت، وتنغمس مع أهلها فتأنس وتلهو ما طاب لك الهوى فلا تشعر بالضيق؟ ولم لا يتسع صدرك لهذا العالم وما فيه من متع ولذات؟ وعدت أقول أو لا يعترينى الضيق بعد ذلك؟ وما يدرينى لعله لو جاء بعتة وحل بقلبي لا يصرفه أحد من الناس ولا تحوله عن صدرى تلك اللذات؟ لا يمكننى أن أدفعه إذا جثم على صدرى فأخذ على أنفاسى، وغير إحساسى، وأحال طعم الحلو ملحا أجابا، وأرانى النور ظلاما حالكا، وجعل الحبيب عدوا مبينا. وهل لا يعترينى الغم ولا تنزل بى النوازل؟ محال هذا، فكم وجدت حبيبا طواه الموت ولا يزال يتخطف الناس واحدا واحدا، وكم

رأيت قوما باتوا في الفقر والشقاء بعد الغنى والثراء ، حقا ما أضيق الحياة إذا ساورها هذا الضيق وكان الموت نهايتها الذي ينتهى إليه الإنسان ! . وتنهت بعد هذا الشعور إلى ما حولى من مرأى الطبيعة البهيجة ، فرأيت إحساسا من الأنس الذى لا أعلم مصدره يغمر صدرى وصرت أردد :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » .
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .
أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

ما أعذب هذه الآيات الشريفة ، وما أرقها من سلسيل تحيا به القلوب وتنتعش به الأنفذة ، من تذوق حلاوتها ، وأدرك مراميتها ، أينعت فى قلبه شجرة الإيمان ، وآتت أطيب الثمرات ، كلمات تسيل سهولة ورقة ، وتزداد حلاوة على التكرار ، وتزداد بفضل تفهمها معارف الإنسان . فهى مصدر المعرفة وآية البيان ، « الرحمن ... » ما أجله تفضل على خلقه بالإدراك والوجود ، وأنعم عليهم بجلال نعمه ، وأسبغها عليهم ظاهرة وباطنة ، وغمرهم بفيض المعرفة ، ونور العقل والإدراك ، ولولا ذلك الفيض وهذا النور السارى فى ملكوت السموات والأرض لانطفأ سراج العالم ، وتعطل الفهم وحسر اللب عن تفهم آيات الله وتذوق نعمه وحمد آلائه . لولا الرحمن ما كان الوجود ، ولولا نوره ما ارتقى العقل إلى الإدراك السامى ، ولولا فيضه لارتد العالم كئيبا حزينا ؛ وما تذوق إنسان نعمة من نعمه ، ولا فهم دقيقة من إبداع صنعه ولا صفة من صفات كماله وكبير آلائه ، ولم ينعم على خلقه بقوة أسرار المعرفة الباطنة والغرائز الملهمة والفيض الذى لا ينقطع بين الخالق والخلقين بسر إرادته وتدبيره ودقيق حكمته وبرّ حنانه ، لحرموا التشوق إليه ولضائق عليهم الأرض بما رحبت وظلت صدورهم ضيقة حرجة ، لا يؤنسها أنيس ولا ينقذها من غياهب ضلالها منقذ ، لولا الله ما اتخذت من الخلق أنيسا ولا استوحشت فى هذا الوجود الذى ليس له سراج من نفسه . فإلى الرحمن أحن بسر باطن وإليه أتوجه وبنوره أهتدى ، وبفيضه آنس وأزداد معرفة بسر هذا الوجود . وكانت المعانى هى التى تفيض فى نفسى كأنها لم تبلغنى من قبل ،

وتنسب بغزارة في قلبي حتى أنستني الحياة وآلامها ، وغمرتني بأنس كنت أشعر أنه لو وزع على أهل القبض لانبسطت أساريهم ، ورقصوا من هزة الطرب .

ذلك أني سمعت هاتفا في أعماق القلب يحركه : كيف تنساني وأنا لا أنساك ؟ كيف لاتذكرني وأنا خالقتك ؟ كيف تنظر إلى ما أبدعت ولا تتطلع إلى وأنا مبدعه ؟ كيف ترجو الوفاء من الخلق وهم لا يبدونه لك إلا إذا أردت ؟ إنهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، وكيف تأنس بهم قبل أن تأنس بي وقلوبهم بيدي أحركها كيف أشاء ؟ ألم تعلم أني أحول بين المرء وقلبه ؟ أنا أوفى الأوفياء ، أنا الذي خلقتك وخلقت العالم كله وإلى يعود ، اطلبني تجدني ، تجد الأنس والسعادة التي لاتجدها إلا بذكري .

ثم سكن الهاتف ، فسكنت وعدت إلى نفسي ، وأخذت أسألهما أين كنت قبل هذا العالم ؟ وطافت بي ذكريات الماضي من بدء خلقي فقرأت « هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا ، إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » وقرأت « أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقرأت « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِيتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلَّائِكِينَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » .

قلت ببح ببح ؛ هذا هو القرآن يرد الإنسان إلى صوابه ويهديه إلى الحقيقة سريعاً ، وهي حقيقة لأنها واضحة تمام الوضوح ، وكلما كان الكلام مطابقاً للحقيقة من أقرب معانيها استراح له القلب واطمأن له الفؤاد .

ولكني سألت نفسي هل إذا بقيت في هذا العالم وحيداً ، وفرضت أني لم أعلم من علم الناس شيئاً هل أصل إلى المعرفة ؟ .

فتذكرت ساعة الميلاد هل كان الإنسان يدري شيئاً من هذا الوجود ؟ فقرأت « واللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ثم تتبعت الطفل من يوم الميلاد فرجعت بنفسى إلى ذكريات الطفولة منذ ولدت طفلاً رضيعاً على ثدى أمى ، وهل كنت أدرك شيئاً ؟ فلم أذكر أنى كنت أعقل شيئاً حتى الرضاعة كنت لا أدريها ، ولولا أنى كبرت ورأيت الأطفال يرضعون ما فهمت أنى كنت رضيعاً مثلهم ، لأنى كنت فى عماء من التمييز والإدراك ، وها أنا ذا أرى الطفل الرضيع لا يدرك شيئاً إلا أنه يبكى عند الجوع والألم فإذا ما شبع وصح نام واستراح . وأمه تحتضنه وتفيض عليه من أعماق قلبها كل حب ورعاية . ولكن الطفل لا يدرك هذا الحب ولا هذه الرعاية . وأحسب أن هذا الإنسان مثل هذا الطفل تحتضنه العناية الإلهية بصورة أسمى من عمل الأم مع طفلها ولكنه لا يدرك ذلك كل الإدراك .

ولا زلت مع الطفل الحظ « أوأتبين » أحواله من الرضاعة وهو يتزعزع وجسده ينمو ويبدأ فأجد أن ما يتعرض له من الجوع والألم والحاجة يوقظ فيه حاسة التنبيه لما يحيط به شيئاً فشيئاً فيعرف والديه ويحس حنانهما وحدهما عليه ، إلى أن يدرك أنهما أولى به من نفسه ، يسهران على راحته ، ويقضيان حاجاته ، وينشئانه ويؤدبانه وينبهانه إلى ما يحيط به ، فإذا ما بلغ السابعة من عمره بدأ يسأل عما يراه فى محيطه ويبتثته ، وما يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى يعلم أنه إنسان مدرك له عقل وتميز تجيش فى مشاعره جميع الأحاسيس وهو فى كل ذلك فى حيرة من نفسه ، إذ أصبح إنساناً يدرك ويحس ويعقل ، فأين كان قبل

هذا الوجود ؟ ويسائل نفسه من حين إلى آخر متى بدأت أدرك ؟ وكيف أوتيت هذا العقل ؟ وهل عقلي تابع لهذا التركيب الجسماني ؟ وما علاقة هذا العقل المميز بهذا الجسد الفاني ؟ وما علاقة المعاني بالجواهر المادية ؟ وأيهما تسيطر على الأخرى ؟ ولا يزال في حيرة من أمره حيث لا يعرف سر الروح المدركة وأين كانت قبل هذا الجسد ؟ ولماذا نما إدراكها بنموه ؟ أهى تابعة له في الميلاد تولد بميلاده وتنفى بفنائه ؟ أم هى سابقة على وجوده ؟ ثم إذا كانت سابقة على وجود هذا الجسد فأين كان مقرها ؟ وهل كانت مميزة ؟ فإن كانت كذلك فلم لم يظهر هذا التمييز من أول لحظة ظهرت في دور الطفولة ؟ أكان يعوقها جسد الطفل الصغير عن بلوغ غاياتها ، أم هو نقص وعجز منها ؟ أم أعجزها علم هذا العالم الجديد فبدأت تتعلم لغاته وطريقة التخاطب وماهية حاجاته وشئونه وتدرجت مع الجسد في نموه ، وانتظرت حتى تتم معارفها وقت تكوينه ، فتنتفع به بعد بلوغ أشده ؟ وهذا الجسد أهو أداة لها أم هى أداة له ؟ وهل ضعف أحدهما يؤدي إلى نقصان الآخر ؟ ولا يزال الإنسان بغريزة حب الاستطلاع وفطرته التي فطره الله عليها يبحث عن سر وجوده ، ويتمنى لو أنه يستطيع أن يكشف عما وراء هذا العالم من عوالم ، وعما وراء هذه الحياة من حياة ، وما ينتظره في مستقبل أيامه ، ويرى أن المادة لا عقل لها ولا إرادة ، فلا بد أن يكون العقل وأن تكون الإرادة من عالم فوق عالم المادة أسمى بكثير من هذه العوالم ، فما هى الإرادة التي أنشأته ؟ وما هى الحكمة الخفية فيه ؟

أمسى على الليل في هذا التفكير ، فقفلت راجعا إلى منزلى ولكن هذا التفكير كان بداية سلسلة من الأفكار التي ستطالعها فيما يأتى :

بدأت أفكر في الشمس لها حرارة مفيدة تضيء ضياءً باهرا ، وتسير في مواعيد منظمة لا تتخلف لحظة ، وأرى القمر والنجوم تسبح في الفلك وتسير في نظام دقيق غاية في الدقة ، ويغيب عنى معظم حقائقها ودقائقها ، وأرى النوااميس الطبيعية ، في أوضاع بديعة ، لم يستوعبها الخلق جيلا بعد جيل مع كثرة البحث والتحري ، وكلما كشف الباحثون عن شئ أعجبهم أدهشهم وبهر عقولهم ، كشف جديد كانت الأجيال الغابرة عنه في عماء ، وكلما ظنوا أنهم

وصلوا إلى حقيقة بعض السنن جاءهم الغد بما يخب ظنونهم ويفقه حائرهم ولاعجاز الحق باهتين ؛ ولا يزالون يكشفون ويبحثون فلا يبلغون قطرة من بحر هذا الإبداع « فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ^(١) » وهامى ذى الأرض من جبالها جدد بيض وجر مختلف ألوانها وغرايب سود ، وبها معادن مختلفة من ذهب ونحاس وقصدير وزنك وزيت اللهب إلى غير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان فى حاجاته وشئونه ، وفيها جنات وعيون وبحار وأنهار يسعى الخلق فيها استدرارا لخيراتها وكنوزها فتفيض عليهم على توالى الأيام بما لا ينضب له معين ، وهم فيها يعملون ولا يعملون - يقبلون الأرض ويبدرون الحب فهل هم منبتوه ومخرجوه من أكمامه ؟ كلا بل لا يستطيعون تكوين ورقة من أوراقه ، أو تلوين لون من ألوانه ، أو إيجاد طعم من طعمه أو رائحة مما يفيح منه « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ^(٢) » انظر إلى النخيل وثماره والكرم وأعابيه والنخوخ والمان وغيرها من مختلف الفواكه ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(٣) » .

أنظر إلى الأزهار وألوانها البهيجة المتعددة وكيف يحاكي بعضها صور الحيوان وبعض ما يحتاج إليه الإنسان من أداة ، فصائل مختلفة كأنها نقشت بيد رسام سليم الذوق لايجارى فى سلامة ذوقه ، وكل لها من روائع جميلة تشرح الصدر وتملأ الجوع عطرا زكيا .

أنظر إلى الطيور وما فيها من عجائب وألوان تر فى الريشة الواحدة جملة ألوان مختلفة لونت بافتنان وإبداع ، فما أحلى الطاوس فى نسقه وألوانه ، صورة رسمت بيد فنان ، ومن أمثاله ما لا يقع تحت حصر يتعلم الإنسان منه سبيل الذوق وطرائف المدنية .

وانظر إلى الحيوانات الأليفة والمفتوسة وعاداتها ونظامها فهى أمم كل أمة منها تحتاج إلى دراسة طويلة . وانظر إلى البحار والأنهار « هَذَا عَذْبٌ فُوتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا

(١) آية ٣ ، ٤ الملك (٢) آية ٦٣ ، ٦٤ الواقعة (٣) آية ٤ الرعد .

مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ ثَمٍّ كُلُّونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا^(١) .

وانظر إلى التيارات الحارة في وسط الجليد البارد .. وانظر ثم انظر في آيات الكون تجد ما يحير العقول ويبهر الألباب ، ثروة لا يفنيها الفكر والتدبر مهما جال العقل وصال على مرّ السنين وكرّ الدهور « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٢) » . هذا الكون الذي نعيش فيه مهما تعمقنا في بحث أسرارهِ وعجائبهِ ودقائقهِ وآياتِ إبداعهِ وخفائهِ لن نصل إلا إلى يسير من سبر غور إبداعهِ ونرجع عنه حاسرين ، ولكننا نصل إلى حقيقة واحدة ، وهى أن لهذا الكون مدركا أكبر ، دبره وأودعه أسرارهِ وخفائهِ ، وأحاط بها إحاطة قدرة منزّهة عن العيِّ ، فإنه لا بد لهذا الوجود من موجد أرادهُ على هذه الصور البديعة ، ولهذا الخلق من خالق ، وهو السر الباطن الذى يتجه إليه الإنسان بقلبه لأنه يحنّ إلى موجدِهِ فهل له مثيل يدانيهِ ؟ لو وجد لكان لهما مدرك أكبر أوجدتهما ، وهل له من يشاركه ؟ لو وجد لاختلفا واحتاجا إلى حاكم أعظم وهو الذى عنه أسأل ، هو الذى لا يدانيهِ أحد ولا يشاركه أحد ، هو خالق العالم ومريده ومدبره ، هو الذى يفيض الإدراك والمعرفة على المدركين ، سابق على الخلق بوجودهِ ، ووجودُهُم من فيض جودهِ ، وهو الذى يحنّ إليه كل ذى عقل سليم ، فهو يدرك خلقهِ . ويعجز كل مخلوق عن إدراك كنههِ أو وصف عظمتِهِ ، إذ كيف نصف من لا مثيل له « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(٣) » ولا يصح تمثيل خالق بما خلق ، ومبدع بما أبداع ، يفيض الإرادة والوجود على المستحدثين ، إذا انقطع فيضهِ رجعت العوالم إلى الفناء ، وانطمست أفكار المفكرين وإحساسات المحسّين فلا نرى فى الأكوام من نأنس بوجودهِ ولا شيئا نلتذ به . نعم قد غاب عنا فى حجاب إبداع آياته لعجز فينا عن إدراك ظهورهِ فى جلال عظمتِهِ وكبريائهِ ومجدهِ ونزاهة صفاتهِ ، ولقصر فى أبصارنا ونقص فى صفاتنا ، حتى نتعلم بحفى حكمتِهِ

(١) آية ١٢ فاطر . (٢) آية ١٦٤ البقرة . (٣) آية ١١ الشورى .

ما أَرَادَهُ مِنْ وَجُودِنَا ، وَتَتَحَرَّقُ شَوْقًا إِلَيْهِ زِيَادَةً فِي الضَّرَاعَةِ وَالْإِنَابَةِ وَالِاتِّجَاءِ إِلَيْهِ .
لِذَلِكَ أَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ عَاقِلًا سَلِيمَ الْإِدْرَاكِ مُخْلِصًا نَفْسَهُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِأَبَاطِيلِ الْمُضِلِّينَ
لَمْ يَحْتَجْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ إِلَى مَنْ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ ، فَطَبِيعَتُهُ تَطْلُبُهُ وَبَاطِنُهُ يَحْنُ إِلَى اللَّهِ .

يَقُولُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُهُ (وَقَدْ اتَّفَقَ الْمَسَامُونَ - إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ لَا يَعْتَقِدُ بِرَأْيِهِمْ فِيهِ -
عَلَى أَنَّ الْإِعْتِقَادَ بِاللَّهِ مُقَدِّمٌ عَلَى الْإِعْتِقَادِ بِالنَّبَوَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْإِيمَانُ بِالرَّسْلِ إِلَّا بَعْدَ الْإِيمَانِ
بِاللَّهِ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُؤْخَذَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ مِنْ كَلَامِ الرِّسْلِ وَلَا مِنْ السَّكْتِ الْمُنْزَلَةِ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْقِلُ
أَنْ تُؤْمِنَ بِكِتَابِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَّا إِذَا صَدَقْتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِوُجُودِ اللَّهِ ، وَبِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَنْزِلَ
كِتَابًا أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا) .

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « فَاقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ^(١) » .

فَدَلَالُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالِصَةٌ بِنَفْسِهَا يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ السَّالِمُ وَيَرْفُضُ مَا يَشُوْبُهَا
وَالرَّسْلُ تَبْيِينُهَا لِلْمُمِيزِينَ ، وَتَعْلَمُهَا لِلْمُتَفَهِّمِينَ ، وَتُسَيِّغُهَا لِلْقَاصِرِينَ ، وَتُخْلِصُهَا مِنْ أَرْجَاسِ
الشَّيَاطِينِ وَتُرْهِاتُ الْمُضِلِّينَ .

فَإِذَا آمَنَّا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِيْمَانًا لَا شَرَكَ فِيهِ فَعَلَيْنَا أَنْ نَصْدُقَ بِالرَّسْلِ ، لِأَنَّهُ مِنْ حَقِّهِ
أَنْ يُوحِيَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ مَا يَرِيدُ مِنْ بَلَاغٍ وَمَا يَأْمُرُ مِنْ أَمْرٍ وَمَا يَنْهَى مِنْ نَهْيٍ ،
وَمَا يَتَّعَلَقُ بِالْأُمُورِ الَّتِي يَرِيدُ إِخْبَارَنَا بِهَا مِنَ السَّمْعِيَّاتِ الَّتِي لَمْ نَصِلْ بَعْدَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا ، فَإِذَا
بَلَّغُوا صَدَقْنَا ، وَهَذَا سَبِيلُنَا إِلَى الْمَعْرِفَةِ « قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ
رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ^(٢) » .

ذَلِكَ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ ، دِينُ الْفِطْرَةِ « وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ
مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٣) » .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا مِنْ
مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَفْرَأَيْتُمْ مَا فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا ، فَأَبَوَاهُ
يَهُودَانِهِ ، أَوْ نَصْرَانِيَّةً ، أَوْ مَجْسَانِيَّةً ، كَمَا تَنْتَجِجُ الْبَهِيمَةُ بِرَيْمَةٍ جَمْعَاءَ . هَلْ تُحْسِنُونَ
فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجِدَعُونَهَا ؟ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ
صَغِيرًا ؟ قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » .

« رواه البخارى ومسلم »

الإنسان بطبعه متعبد يطلب معبوده

يولد الإنسان في هذه الحياة الدنيا يغدو ويروح ، حتى إذا ما استوى وبلغ أشده تعرف الحياة ، وصقلته حوادثها من رخاء وشدة يبدأ تفكيره في نهايتها ، فلا يجد نهاية له إلا الموت الذى قضى على الأجيال الماضية قرنا بعد قرن « هَلْ يُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ^(١) » ولم يبلغه فى الأنبياء أن مولودا ذاق طعم هذه الحياة أو ذا روح وجسد كان من الخالدين ولم يتجرع كأس الموت ، ويرى أن الراجلين من هذه الدار لا يعودون إليها فيسمعون أعقابهم شيئا من أخبارهم بعد الموت ، ثم ينظر إلى جثثهم فإذا هي عظام نخرة تأكلها الأرض ، وقليل ما تترك لهم أثرا من الآثار .

ومن يولد يعيش ويمت كان لم يمر خياله بالكائنات فإذا مارأى آية الفناء تطلبه ورأى مثله فى الذاهيين الأولين ، اهتزت مشاعره وتحرك وجدانه ، وتألم غاية الألم ، وتمنى لو أنه لم يدرك معنى الوجود ليلحقه بعد ذلك الفناء والعدم ، أو ينعم بنعمة الوجود السرمدى فلا يحز فى نفسه هذا الذى يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويكاد ينسى وجوده لما يهوله من فكرة الموت ، ولكنه مع ذلك كله يعتقد اعتقادا جازما أنه إنسان حقيقة له ذات معنوية لها إرادة وتميز واختيار ، لها صفحة من الوجدان والتفكير يستطيع خياله أن يسيح فى جميع العوالم المحيطة به ، ويجد أن هذه معنويات تشع فى باطنه بغزارة تلهب فيه العاطفة وتؤمله فى الخلود ، ولكنه يحتار فى تكيف مصدرها وكيف تتصل بجسده الفانى وتسير معه إلى نهايته ؟ وهل تنتهى هذه المعانى بفناء الجسد ؟ وهل يطوى الموت كل هذه المعانى والأحاسيس ؟ ويجد فى نفسه حبا جما ، وميلا غريزيا للبقاء ، ويجهد ويشقى حبا فى البقاء ، فإن لم يبق بنفسه فليبق بذكره وأثره ، فيكرس حياته للتاريخ والولد ، ولكن لابقاء لأثر أو ذكرى كل ارتكازها على من كتب عليهم الفناء ، فهى فانية بالضرورة ، وكلما تحيىش بالإنسان فكرة الفناء تتلاشى معه الآمال وينعدم فيه الشعور بالواجب ولم يكثر بالمسئولية وإذا كان هو فانيا فعلى الدنيا العفاء ، ولكنه لا يستطيع التسليم بأنه فان فناء كليا بالجسد والروح ، وهو يسلم بوجود الروح المريدة المدبرة المميزة المختارة العاقلة التى تتذوق اللذة والألم ،

وهو يحسها إحساسا لاسبيل للشك فيه، وعقدة العقد أمامه في مدى اتصالها بالعالم المادى وعلاقتها بالجسد، وهل هى حقيقة بنفسها تسيطر عليه؟ أم هى تابعة له؟ فان كانت تابعة له فهو لا بد فان، وذاته متعلقة بالبقاء تعلقا شديدا ولا يكاد يصدق أنه بعد أن تذوق نعمة الوجود والإدراك التام يعود إلى الفناء الكلى، ويعجز تفكيره عن فهم حقيقة نفسه ولكنه يحس شعورا عميقا يفيض على باطنه يقوى فيه الأمل ويبعثه على حب البقاء « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ^(١) ».

ويقول الحق سبحانه وتعالى « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ^(٢) ». والله سبحانه وتعالى يعطى الدليل القاطع للانسان حتى يقر أنه عاجز عن إدراك حقيقة نفسه مع اعترافه بوجودها ليكون دليلا على وجود الله مع عجز الإنسان الكلى عن إدراك كنهه وخفى لطفه، وهذا العجز فى الإنسان وسيره إلى الفناء الجسمانى بعد هذا الإدراك المعنوى مع شدة تعلقه بالبقاء بعد تذوقه نعمة الوجود يلزم كل إنسان التفكير فى حقيقة العالم وإلى أى غاية وحكمة تسيّر معانيه « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ . أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ^(٣) » .

فالإنسان يطالب البقاء وينشده بكل عواطفه وبجميع نفسه، ويبحث فى الوسائل الموصلة إليه، فإما أن يهتدى إلى سبيل البقاء الذى يطلبه مشمولا بالسعادة الأبدية، وإما أن يضل الطريق ويسير إلى الشقاء؛ ولا يزال الإنسان بحكم حبه للبقاء يبحث عن الحقيقة التى توصله إلى سر البقاء، فيرى أن توجهه إلى كل ماهو فان ونصبه وتضييع وقته فى الحرص على كل ماهو فان يسير به إلى الفناء، ومن أجل ذلك يبحث عن سر القدم الذى يوصله إلى الباقي الذى لا أول له ولا آخر، إذ يستحيل أن يكون الإنسان موجودا بنفسه يمكنه البقاء بنفسه مع وهنه وعجزه وسيره إلى حتفه، ومن شعور الإنسان بالعجز وحبه للبقاء يتبنى الوصول إلى أقوى قوة وإلى أقوى الأقوياء الباقي بالازوال حتى يهبه استمرار الوجود، ويقوى بسلطانه وقوته فيعوض ما بنفسه

(١) آية ٥٣ فصلت . (٢) آية ٢١ الناريات . (٣) آية ٢٧، ٢٨ ص .

من ضعف وعجز ، ويشتد شعور الإنسان بالعجز لعدم إدراكه كنه وجوده وعجزه عن بلوغ الخلود بجسده وروحه ، وعجزه عن تنفيذ إرادته وإخراج مايجول في خاطره إلى حيز الوجود ، وتسبح أفكاره وتصوراته في جميع العوالم فلا يستطيع أن يذهب إليها بجسده كما تتصورها روحه في مرآة خياله ، لثقل جسده وعجزه عن بلوغ غاياته في دائرة وجوده الضيقة المحدودة التي رسمت له ، فلا يزال يرجو أن يصل إلى ذى القوة التي لا تحد ليعينه فيما يريد مما يتصوره ولا تبلغه ذات يده أو أمنية روحه .

ويحسب الإنسان أنه مالك لجسده لشعوره بنفسه ، ولكنه يجد أن جسده لايطاوعه في كل مايريد ولايخضع لأمره ، فهو إذن لايملك من يصاحبه ، وهو كالمطية الحرون ، يأمره بالسهر فلا تقوى أعصابه ثم يغفو وينام قبل أن يتم عملا هو أحرص الناس على إتمامه قبل فوات وقته أو فوز عدوه عليه ، ثم يأرق تارة أخرى بالرغم منه في الوقت الذي يرجو له السبات حتى يستجم لاستقبال عمل آخر ، ويعانى من هذا الجسد ألوانا مرة ، إذ لا يخضع لأوامره ولايسير على مبتغاه ، ولا يقوى على تنفيذ كل مايريد ، وجسده هذا خاضع لناموس آخر يشاركه في إرادته ، بل يتحكم فيه معظم الأحيان فيقاسى بسببه أنواعا من العذاب ، ينحرف مزاجه فلا يستطيع تلوينه بالمزاج الذي يبتغيه من بسط وسعة وهذوء ، ويمرض فيتعبه شفاؤه فهو لايسير إرادته ولا يفهم كثيرا من علله ، له معدة وقلب وكبد ، وله منخ وأعصاب إلى غير ذلك من تراكيبه وطبائعه تسير من تلقاء نفسها بحركة لا إرادة له فيها ؛ القلب يدق ولا يمكن لصاحبه أن يبطىء أو يسرع بدقاته ، وإذا وقف لايسيره ؛ والمعدة تفرز وتمضمض ولا يمكنه لايتكّن من زيادة إفرازها أو نقصه أو تحويل عصاراتها الحمضية إلى ضدها ، وهو إن عرف الداء قد يعجز عن الدواء لأن تفاعلاته لايسيطر عليها أحد ولو تماثلت الأسباب ، فلا بد له بعد ذلك كله أن يسأل عن يدبر له هذه الحركة ليسأله شفاؤه إذا ضج من الألم ، وليحفظه معافى حبا في البقاء . « وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ^(١) » وليس هذا كل مشا كل الجسد ، فكثيرا ما يخضع لإرادة خارجية تملى عليه إملاء ، فيجد الإنسان نفسه

محتاجة إلى متم آخر من الجنس ؛ كالزوجة كما هي أيضا محتاجة إليه ، ويشدد الحنين بحكم الغريزة الجنسية التي تحفظ بقاء النوع واستمرار التوالد ، ويندفع إلى ذلك اندفاعا ويترتب على ذلك تحمله تكاليف أخرى وإحساسات جديدة ، ويدخل في دائرة محبوبة الأطراف في الأسرة والاجتماع لا يستطيع التخلص منها فيخضع لإرادة غيره بحكم الشركة ، ثم يجد في حالة نومه نفسه تسبح في نواح متعددة ، وتسبح في خواطر شتى خارجة عن إرادته ، ويرى في نومه أحلاما قد تنبئه عن شيء يقع كما رآه ، فهل له عقل ثان ؟ وهل لروحه جولات أخرى في عالم غير هذا العالم ؟ « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ فِي الْبَحْرِ وَخِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنْأَمُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ^(١) » .

والإنسان محتاج إلى رزقه ورزق وزوجه وأولاده ليعيش فيسعى إليه كما يسعى من في مجتمعه من الناس ، فتارة يجده ميسورا وحينما آخر يجده عسيرا ، ومرة يصادفه وأخرى لا يصادفه ، فيجد أن حظه من الرزق وليد هذه المصادفات التي لا يملكها ولا تدبير له فيها - ولو أنه يرى أن العمل أساس يهبط عليه الحظ ويلد الصدف - إلا أن الحظ أوفر رزقا من سعى العمل ، فهو يمتنى الوصول إلى من يعينه على بلوغ رزقه ورجح أسعد الصدف وأجمل الحظوظ ، وهو في سعيه للرزق كسعيه في طلب العلم وطلب المجد إلى غير ذلك مما يريد . وهو إذ يسعى في بلوغ غايته لا يعمل وحده بل يجد آخرين يحتاجون إلى معاونته كما هو محتاج إلى رعاية غيره فمن هو أقوى من يعينه عليها ؟ . وهو إذ يجد ويكد ويشقى في سبيل رزقه وكفاية حياته لنفسه ولمن يعول يصادف أناسا قد عجزوا عن بلوغ غاياتهم وكسب أرزاقهم ، لإخفاقهم في أعمالهم أو نكد في طالعهم أو جشع تملك قلوبهم فيقفون في سبيله يظلمونه ويتعرضون لأرزاقه ويجعلون من أنفسهم سدا يحول بينه وبين تنفيذ إرادته وبلوغ

غايته «وإن كثيرا من الخطاء ليُبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وقليل ما هم»^(١) ، فمن هو القوى الذى يدافع عنه ويرد غائلتهم يأخذ بحقه منهم ؟
فلا يزال يبحث عن أعدل العادلين الذى يجد عنده الحق واضحا والغنى فضفاضا واسعا
فيعوضه من سوء حظه وهضم حقه .

وهو إذ يعمل يرى أنه لم يبلغ كما لا فى عمل من أعماله ولم يرسم لنفسه خطة أو سبيلا
مستقيا يوصله إلى البقاء ، فإنه إن وفق لمعرفة الطريق المستقيم لا يوفق السير دائما على صراطه
وتتأججه القريبية . بل هو دائم الانحراف بعيد الوصول إلى أهدافه ، يطلب الرزق ليعيش
فيذهب إلى مصارعة الآخرين ويضيع وقته سدى فيتولد عنده من ذلك الحرص والطمع ،
ويعدى بعدوى غيره ، ويفسد طبعه ، وبعد أن كان ينشد أعمال البقاء أصبح
يسعى على الرغم منه فى سبيل أعمال الفناء لعجزه عن بلوغ السبيل القويم ، وتتفرق
به السبل يدافع نفسه وتدافعه وينازع العالم وينازعه ، فهو عاجز فى نفسه عاجز أمام جسده ،
عاجز أمام بيئته ، عاجز أمام سلطان الوجود يبحث عن النصير الذى يقوى به على عجزه
ويسد به نقصه ، فلا يزال يجد نصيرا يعاونه من بيئته ولكنه يحتاج إلى المثل وتكافؤ الأجزاء ،
ولا يجد فى هؤلاء النصراء القوة والبقاء وصدق الوفاء ، وهم عاجزون عن حماية أنفسهم
إذا جد الجد ، ضعفاء أمام القوة العليا ، يؤثرون أنفسهم عند الحاجة ولا يُحْجَمُونَ أن يضحوا
به فداء لنصرهم وفوزهم ، ومن أجل ذلك يبحث عن نصير قوى مفيد بنفسه لا يستعين بغيره
ولا ينازعه منازع ، حتى لا يحتفى بحماية قوى يظهر له فيما بعد أن هناك من هو أقوى منه
ويضيع بحماية ضعيف .

والعالم من بدء نشأته يبحث بضرورة وجوده عن الباقي ويتجيب إليه ويتزاف إليه
لأنه لا أمل له فى البقاء إلا به ، ولأنه يجد فيه النصير القوى المنقذ من الآلام ، والمخلص من
العدوان ، وواهب الأمن ومفيض الإحسان .

وجملة القول أن محتاج الوجود إلى غيره يحن إلى خالقه حينئذ بالضرورة ويسابق غيره في التزلف إليه والتزلف هو العبادة ، فالعالم بطبعه يطلب من يعبد « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ^(١) » .

قال هنرى برنتجيه فى المجلد ٢٤ من مجلة المجلات الفرنسية . (إذا كان النقد التاريخى قد هدم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، فكل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد على أن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه ؛ ولولا ذلك ماهتم إنسان بالدين ولما كانت له هذه المنزلة والمقام الأول فى الحياة ، ولما استمع الناس للرسل واهتموا بشأنهم !) .

الحب نعمة وجمال

الحب نعمة كل ذى روح ، وحياء بلا حب كجسد بلا روح ، فالحياة كلها حب ، وأساس الحياة كلها الحب ، ومن عاش بلا حب عاش كئيلاً حزيناً ، بل وهو فى عيشة الكآبة والحزن لم يعش إلا للحب ، فإنه لو لم يكن أحب ما حزن على فقد المحبوب ، وإذا أمله المحبوب فى الرضا ، ازداد تليذاً بألم الحب ، إذاً الحب هو كسير الحياة فى حالة اللذة والألم والأمل ، ولحب خلفت جميع الموجودات ، والحب هو التمتع والتلذذ بكل ما هو محبوب والحب الإنسانى مادته اللذة والجمال ، واللذة حب الأجسام ، والجمال حب الأرواح ، واللذة من الطعوم ، والجمال من المعانى ، حتى ولو قامت بالمادة ، وبين حب الأجسام وحب المعانى معبر هو حب الفن . فإن كانت الأجسام فانية ، كان الحب الباقي هو حب المعانى ، ويكون تذوق اللذة من الأجسام أول طريق لحب المعانى ، فإن اللذة لا تقوم بالشعور إلا بذرة من النور موهوبة من الله سبحانه وتعالى فى قرارة الروح ، وإلا لم يذق إنسان لذة من اللذات ، واللذة هى من مفاعلة أو مواجهة الملوذ بالمتلذذ به ، فينفذ من ذلك شرارة إحساسية للروح ، فالذين يحبون الطعام والشراب يحبونه بما يجدونه فيه من اللذة أثناء تذوقه ، ثم يعاودون التذوق ويعاودون الطلب لبقاء الجسد صحيحاً ليباشروا اللذة مرة بعد مرة ، والذين يحبون النساء يحبونهن لمواقعتهم ، وتحصل من المواقعة الشرارة التى يتلذذون منها وهى أشهى ما فى الجماع من حب ، ولكن هذه اللذات تزول وتتأكسد وتضمحل ويتغشاها الفناء إذا خبت فى العنصر الجسمانى والمادى ، ولكنهم يجدونها بالجمال وسحر الجمال ، ولذلك ترى قوما يزهدون بحبوباتهم ولا يصبرون على لذة لا يتصاعد فيها الجمال فيتحسسونه فى كل من هى أجهل سيقانا ، وأعدل قواما ، وأسحر عيوننا إلى غير ذلك من أوصاف الجمال ، أو فالأجل ذاتا ، والأخف روحا ، وعلى الأيام يسأمون ويعافون الجمال الذابل ، وقوم ينعمون بجمال الطبيعة وما فيها من عجيب ، وقوم يصطنعون الجمال فيما يبنون ، ويصنعون فى دورهم وقصورهم وسائر أحوالهم فينفقون أموالا طائلة تليذاً بالجمال متعة ونظراً ، فضلاً عما ينفقونه من طاقة

العمل والفكر تفننا بما زين لهم من هذا الحب قال الله سبحانه وتعالى : « زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ . قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ بِالْعِبَادِ ^(١) » .

فإذا ما انغمسوا في حب هذا الجمال الفاني فات عليهم اكتساب الجمال المعنوي ، وصدموا بانقطاع سيال الحياة الجسمانية فيموت حبهم هذا بموت أجسامهم ، وذهبت لذاتهم بذهاب أجسامهم وعلموا أنهم كانوا في غرور ، وباعوا بالنذل والانحطاط ، والحسرة والندامة إذا ما وصلوا ساحة القبور ، وقد قال في هذا المعنى فضيلة الشيخ على عقل :

الناس تجعل في التراب رموسها رمسى محبة خالقي إذ أكبر

وقال الله سبحانه وتعالى : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ^(٢) » .

ولكن الله جلت حكمته يسوق الخلق من حب الشهوات إلى حب الجمال ، ومن حب الجمال يفتنون ويحبون الفن ، ومن الفن يصلون إلى حب العلم وتتسع طاقة الفكر فيحبون المعرفة فيصلون إلى الجمال الثاني وهو الجمال المعنوي غذاء الأرواح ومادة حياتها ، كأن الله يسوقهم من جمال الأجساد إلى جمال المعاني ، ومن الجمال الفاني إلى الجمال السامي السرمدي ، ومن لحظات الفناء إلى لفتات الخلود ، وذلك لأن الحب لا ينتهي ، فإذا انتهى مات أهله ولا بد له من فيض يغذيه وجمال يسيرون صعدا في طلبه ولا يصاون إليه ويزدادون به رقيقا طورا بعد طور ويكتسون به من حلال الفضيلة والكمال ، وعند ذلك يجدون لذة لا تنفي ، ونورا لا ينطفئ ، وحياة لا تتول ، وكلاما لا ينتهي ، لأن لذة المعاني من كهرباء النور السرمدي

وإعمال الفكر السليم ، إذ يبحثون عن الجمال ليتلذذوا به فلا يرون جمالا أجمل من النظر
والتشوق إلى خالق الجمال ، فهو منبعث منه ، فيرتقون من حب الموجود إلى حب الموجد ،
ومن حب المخلوق إلى حب الخالق .

قال الأستاذ كمال نشأت :

وتغربت عن جوائى غريبا تأمها أرتجى الضياء المبدد
وترنمت بالحنين لأسمو ولأحيا مع الصفاء وأسعد
والصفاء المأمون في قربك الحا نى وفى وحدة الشعور الموحد
يا إله الجمال حبي وإعجا ز الحسن منعم ليس يجحد
إن تفردت بالجمال فقلبي بالوفاء الطهور عبد تعبد

وقال غيره :

وأشهد في الوجود جمال حبي وأذهل سكرة من فرط حبي

وقال الشاعر الملهم فضيلة الشيخ على عقل :

إن كان سكر الناس من عنب ومن بلح فإني في الحبة أسكر

ويتلذذون بذلك الحب ويحصل لهم التواجد الذي يزيد في حرارة الوجدان مما يفيضه
الله على الأفئدة وينصب في قرارة الروح من الحكم والمعاني ، حتى يُغشى على أحدهم من
لذة المعاني فيغيب عن الوجود الحسى في الوجود الرحمانى ، لذلك قال أحد المتصوفة « لو علم
الناس ما نحن فيه من اللذة الحار بونا بالسيوف على مقامنا فيها » ولهم لذة أخرى في التسابق
مع أهل محبته في ذلك الحب سباقا لا يدع لهم لحظة من لحظات أهل الغفلات ، فلا يلتفتون
إلى غير محبوبهم لفظة واحدة يضحون في سبيله بكل مرتخص وغال ، قال الله سبحانه وتعالى :
« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ^(١) » وقال سبحانه
وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُوْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) .

وقالت السيدة رابعة العدوية :

كلهم يعبدوك من خوف نار
أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا
ليس في الجنان والنار حظ
أنا لا أبتغي بحبي بديلا

وقال الشاعر :

قد كنت أحسب أن حبك يشتري
وظننت جهلا أن حبك هين
حتى رأيتك تجتبي وتخص من
فعلت أنك لا تنال بحيلة
وجعلت في حسن الغرام إقامتي
فيها غدوى دائما ورواحي

وكما ارتقى هؤلاء المحبون المحبوبون من مقام إلى مقام ، تعارفوا وتحابوا مع أهل هذا المقام في سبحاتهم مع محبوبهم . قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(٢) » . وقد اتفقت مشاربهم وتفاؤوا في محبته وابتغاء وجهه . قال الله سبحانه وتعالى : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ^(٣) » .

(١) آية ١٠ إلى ٦٣ الصف

(٢) آية ٨ إلى ١٠ الحشر .

(٣) آية ١٦٩ ، ١٧٠ آل عمران .

وهذا الحب تحانس في المبداء ، وإغراق في محبة المحبوب ، جمعهم وحدة النظر إليه وجمعهم في أسرار وحدانيته ونشر عليهم لواء رحمته وحنانه وبره ، فلا شرك في هذا الحب مع أحد من المحبين المحبوبين ، بالنسبة إلى المحبوب ، وشتان إذن بين حب مشوب بحب غير الله يورث التأخر ، فإن زاد يورث الخسارة والهلاك ، وحب الله يورث التقدم والشرف والبقاء كما قال فضيلة الشيخ على عقل أطل الله في عمره :

يمازج الحب لمي وهو يقتلني ويرجع القلب مني ثابت الحكم
أمشي وأقضي على نفسي وأكتم ما في القلب حتى تراني فاقد الألم

ولولا الحب لم يخلق الله في الناس حياة ، فالحياة في حب الله هي السعادة والوجد ، وفي غير حب الله هي الشقاء والفقد ، قال الله سبحانه وتعالى «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ^(١)» فالخلق يحن إلى خالقه بضرورة وجوده لا يجد محبوباً أسمى من الله ، ولا يجد راحة إلا في السكون إليه ، ولا غنى إلا به ، ولا جمال إلا في التشوق إليه ، والخلق يحن إلى من خلق ببرحمته ، وبحكم احتياج الخلق إلى خالقه إلا إذا كان من الكافرين الأشقياء ، أو ذل بالحب المادى حتى هلك فيه .
فالحبيب الصادق لا يعيش ولا يهنأ له بال إلا بذكر محبوبه والتشوف إليه والهيام به هياماً يملك عليه كل حواسه كما قال الشاعر العربي :

إذا ما بدت ليلى فكلى أعين وإن هي ناجتني فكلى مسامع
وقال الشيخ على عقل رضى الله عنه :

الناس تسمع من آذانهم عجباً وكل جسمي سماع إذ يناديني
وكما قال سيدى مصطفى البكرى رفع الله درجته :
يحلولى الأسحار ذكرك في فمي أوّاه ما أحلاه عند المغرم

فلا يجب اسما إلا اسم محبوبه ، ولا يتغنى إلا بهذا الحب ، تأتاه على الدوام في بيدائه
لا يهتف إلا باسمه ، واسمه عنده أغز الأسماء ، وأرهف الأسماء إلى سمعه ، كما قال الشاعر :
فإن حدثوا عنها فكلى مسامع وكلى إن حدثهم ألسن تتلو
لذلك يكثر من ذكره ، ويجب أن يسمع اسمه من كل جوانبه ، ويغيب في هذا الذكر
ويهم فيه ، ولا يجب إلا الذين يُسمعون تسبيحه وتمجيده يُخلصون له كل الإخلاص ،
لا يسمعون لعدا لهم كما قال البوصيري :

محضتى النصح لكن لست أسمعهُ إن الحب عن العذل في صم

أهل هذه المحبة يؤثرون حبيبهم على أنفسهم ، ويبيعون دمههم وهو أغلى ما عندهم ،
ثمنا لرضا حبيبهم ، حتى يفنوا فيه فناء كلياً فيتكفل بهم عنهم ، وهو أولى بهم منهم .
وقد قال شيخ العارفين في زمانه القطب الجليل العالم الرباني والهيكل الصمداني الذي
ارتشف من بحار الجمال والجلال (سيدى عمر جعفر الشبراوى) في كتابه على شرح ورد
السحر لسيدى مصطفى البكرى في شرح كلمة العشاق « جمع عاشق » مصدر عشق بكسر
الشين أى أفرط في الحب :

واعلم أن الإرادة لها تسعة مقامات : المقام الأول « الميل » وهو انجذاب القلب إلى
مطلوبه فإذا قوى ودام سُميَ وكلما وهو المظهر الثانى للإرادة ؛ ثم إذا اشد سُميَ صباية ،
وذلك إذا أخذ القلب فى الاسترسال فيمن يجب ، فكأنه انصب كلماء إذا أفرغ فلا يجد
بداً من الانصباب وهو المظهر الثالث للإرادة ؛ ثم إذا تفرغ له بالكلىة وتمكن منه سُميَ شغفا
وهو المظهر الرابع للإرادة ؛ ثم إذا استحكم فى القواد وأخذه عن الأشياء سُميَ هوى وهو
المظهر الخامس للإرادة ؛ ثم إذا استولى حكمه على الجسد سُميَ غراما وهو المظهر السادس
للإرادة ؛ ثم إذا تمكن وزادت العلل الموجبة للميل سُميَ حباً وهذا هو المظهر السابع للإرادة ؛
ثم إذا هاج حتى كاد يُفنى الحب عن نفسه سُميَ وداً ، وهو المظهر الثامن للإرادة ؛ ثم إذا
طفح حتى فنى الحب عن المحبوب سُميَ عشقا ، وفى هذا المقام يرى العاشق محبوبه فلا يعرف
ولا يصغى إليه ؛ كما روى عن مجنون ليلى أنها مرت به ذات يوم فدعته إليها لتحدثه ، فقال لها :

دعيني فإني مشغول بليلي عنك ، وهذا آخر مقامات الوصول والقرب ، وفيه ينكر العاشق معشوقه ولا يبقى إلا العشق وحده ، فالعشق أعلى المقامات ، وقد جاء في فضل العشاق أخبار : قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ عَشِقَ وَكْتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » رواه ابن عساكر عن ابن عباس ، وأنشد بعضهم فقال :

كفى المحبين في الدنيا عذابهم تالله ما عدَّبتهم بعدها سقر
بل جنة الخلد مأواهم مرزخفة ينعمون بها حقاً بما صبروا

وكما قدمنا أن الحب يرتقى فيه صاحبه من مقام إلى مقام ما دام في حضرة البقاء ، فإن وقف أخذته الأنواء فلا يبقى الحب على حالة واحدة إما إلى تهقر أو إلى تقدم ، لذلك يقول الشبلي : الحب إذا سكت هلك ، أما إذا سلم لمحبوبه فهو يتولاه بالترقية إذا فنى فيه ، لذلك يقول : والعارف إن لم يسكت هلك . وقيل : المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب . وقيل : المحبة بذل الجهد ، والمحبيب يفعل ما يشاء . وقال النصراباذي : المحبة مجانبة الشُّلو على كل حال ؛ أي أنه يقول من سلا فقد فارق المحبة ، وقال الحارث المحاسبي المحبة : ميلك إلى الشيء بكليتك ثم يشارك له على نفسك وروحك . وقال الشبلي : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك . والله سبحانه وتعالى في كمال قُدسيِّ وعلو ، يسبح في النظر إليه السابحون فلا يصلون إليه ، فإذا نظروا إليه نظروا إلى أعلى ، ورقوا بهذا النظر إلى علو لا نهاية له ، بعكس الذين ينظرون إلى غيره ، ويقفون عنده ينظرون إلى ما هو تحت أقدامهم فيستفلون ، لذلك يقول أحد المحبين :

عجبت لمن يقول ذكرت إلني وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حيت
فأحيا بالمني وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت

وغيره يقول في وادي مناه :

لرائد وفد الحب لو كنت تفهم	فله واديها الذي هو موعد
محب يرى أن الصبابة مغرم	ففي ذلك الوادي يهيم صباة
يخاطبهم من فوقهم ويسلم	ولله أفراح المحبين عندما
فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم	ولله أبصار ترى الله جهرة
غدا كل وجه بالجمال مبسم	فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة
فلم يبق إلا وصلها لك مرهم	فإن كنت ذا قلب عليل بحبها
فهذا زمان المهر فهو المقدم	فياخاطب الحسنة إن كنت طالبا
فتخطى بها من دونهن وتنعم	وكن مغضبا للخائنات بحبها
ولم يك فيها منزل لك يعلم	وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها
منازلك الأولى وفيها الخيم	فحي على جنات عدن فإنها
زيارة رب العرش فالיום موسم	وحى على يوم المزيد الذي به
فيظهر للأحباب ثم يكلم	تجلى لهم رب السموات جهرة
بآذانهم تسليمه إذ يسلم	سلام عليكم يسمعون جميعهم
تريدون عندي إننى أنا أرحم	يقول سلونى ما اشتبهتم فكل ما
فأنت الذى تولى الجميل وترحم	فقالوا جميعا نحن نسالك الرضا

ولذلك كان يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمِنْ نَفْسِي وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ » وينشد الجبلى فى الاستغراق والتجلى والولع والحب :

أصلى إذا صلى الأنام وإنما	صلاتى لأنى باعتزازك خاضع
أكبر فى التحريم ذاتك عن سوى	واسمك تسبيحى إذا أنا خاشع

أقوم أصلى أى أدام على الوفا لأنك قرد واحد الحسن جامع
وأقرأ من قرآن حسنك آية فذلك قرآنى إذا أنا راع
وأسجد أى أفنى وأفنى عن الفنا وأسجد أخرى والمتميم والع

وتغننت رابعة العدوية بهذا الحب فقالت :

أحبك حبين : حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فحب شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

جعلنى الله من أخلص المخلصين له ، ومن أسعد السعداء بحبه فى الذين يحبهم ويحبونه ،

إنه سميع مجيب .

الإيمان بالغيب

الإيمان بالغيب : هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره ، ومنطق الوجود يدلنا على ذلك كله دلالة لا تقبل الشك ولو أننا لا نرى الله والملائكة بهذه العين الحادثة وفي انتظار يوم اللقاء ، اقرأ قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (١) حقا إن في خلق السموات والأرض لدلائل العظمة والقدر ، وما تحويه من عجائب وإبداع لآيات تحير العقول ، وفي اختلاف الليل والنهار تطورات كونية ، وحوادث مختلفة تدل على موجدتها وقدرتها صانعها وعظيم حكمته وجليل تدبيره ، إن في ذلك لآيات لأولي الأبواب ، ذوى العقول والبصائر الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ذكر توحيد وتمجيد خالق هذه الأكوان الذى أبدع صنعها ، وكيف لا يذكرونه وهم فى غدوهم ورواحهم لاتقع أعينهم إلا على مخلوقاته ، فإذا جلسوا لا تسرح خواطرهم إلا فى هذه العوالم التى سخرها لهم ، وإذا ما هجعوا ورددوا على جنوبهم تذكروا الرقدة الأبدية وما وراءها ، فإذا تحقق الإنسان أنه لابد لهذه السموات والأرض من خالق أبدعها ، ولهذه الكونيات والسنن والحوادث من مريد دبرها وأرادها فما هى حكمته فى ذلك كله ؟ وما هى حكمته فيما نحن بنى الإنسان الذى أودع فىنا سرا من أسرارهِ فكنا به ذوى عقل وتميز . لا يعقل أن يخلق الخالق هذا الخلق المبدع بهذا النظام المحكم لينتهى بنا إلى الزوال المطلق بعد الموت فنكون نسيًّا منسيًّا فلا ينشأ لنا نشأة أخرى فى طور أهم من الأطوار التى مر بها الإنسان « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ » (٢) حقا لن يكون هذا العمل الجليل باطلا لا نتيجة له إلا اللهو والعبث ، إذ ما لا بعث له

(١) آية ١٩٠ ، ١٩١ آل عمران . (٢) آية ١٩١ آل عمران .

لا نتيجة له قال الله سبحانه وتعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلَاتٍ خِذَانَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ » ^(١) وأى حكمة تكون بادية من الله لهذا الإبداع وهذا الصنع الجميل والتدبير الحكم إذا كان مصير كل ذلك إلى الفناء ، كما لا يبقى منه أثر من الآثار أو حكمة من الحكم إذا أفنى الله من يتذوقون المعاني ويبصرون الحكم فناء لا رجعة بعده « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ^(٢) تنزه الله سبحانه وتعالى عن اللهو والعبث الذى يتصف به الخلق وعن أن يسايرهم فى أفعالهم وهو الذى حير العقول فى بديع صنعه وجليلى حكمته .

وبدهى أن الذى أوجد السموات والأرض وخلق الإنسان ليشاهد آياته وبديع صنعه لم يخلقه إلا ليتعرف بها على مبدعها ، لأنه إذا اشتغل الإنسان بغير ذلك لا يجنى أى ثمرة مطلقا من يوم ميلاده إلى يوم مماته مهما طال به العيش ، فإنه إن عاش ليا كل ويشرب ويتمتع ويلهيه الأمل فمصره إلى الفناء ، فإن كان بعد هذا الفناء لا رجعة له ولا حياة كان وجوده باطلا وكان تسلسل الأجيال البشرية باطلا ، لأنه متاع قليل شاق يعقبه فناء مادم ، وإذا أعقبه فناء التميز واستذكار الماضى كان الإنسان بالنسبة إلى نفسه لا يساوى إلا العدم المطلق ، وكان الأفضل له ألا يتذوق كأس الحياة من الميلاد إلى الموت بلا فائدة تعود عليه ، ويترتب على ذلك فساد المجتمع لفقدان الجزاء بعد هذه الحياة « أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » ^(٣) وتكون نتيجة جميع الكائنات باطلة إذا لم يكن لها من وجودها وانتهائها حكمة ، وليست هناك حكمة باقية سامية إلا ما تعلقت بالباقي السامى فى حكمته وأفعاله ، وهل توجد حكمة أسمى من معرفته والإيمان به ، فإن رضى كانت السعادة وإن غضب كان الشقاء ، ولقد أبان الله هذه الحكمة واضحة فى قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ

(٢) آية ٣٨ ، ٣٩ الدخان .

(١) آية ١٧ الأنبياء .

(٣) آية ١١٥ ، ١١٦ المؤمنون

مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » (١) وهذه الآيات تبين عن حكمة خلق المسكفين المميزين من الجن والإنس ، وهى العبادة بالتعرف إلى الله والإيمان به والتوكل إليه باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وإليك البرهان : إنك لا تستخدم عمالا فى عمل إلا إذا عادوا عليك بفائدة ، زيادة فى مالك ، أو قوة فى وجودك ، أو عظمة تزيد فى جاهك . والإنسان فى الحياة يسعى فى سبيل رزقه وزيادة ماله حتى يطمئن إلى أنه لا يجوع ولا يعرى ولا يظلم ولا يشقى فى مستقبل أيامه ، ليعيش عمراً مديداً فى رفاهة من العيش وقوة الجاه ، فهو يطلب البقاء ممتعاً أكثر مما يستطاع . ولكنه مهما طال به الأمد فهو ميت ، ومهما جمع فمضيه ما جمع إلى الفناء ، وكل ما وقع عليه بصره مما هو حادث ومخلوق من العدم مضيره إلى الفناء والعدم ، فإن كان كل عمله صائراً إلى الفناء مع أنه حريص على البقاء فأولى به ألا يعمل . وخالق هذه الأكوان ومبديها أول لا آخر له ولا انتهاء ، خلق كل ذلك بقدرة منزهة عن العى والنصب « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٢) لا يحتاج إلى المعاون والشرىك ، فهو منزّه عن مشابهة الحوادث ، ولا يكون مثل مخلوقاته فى شىء مما يعملون ، لا يحتاج إلى طعام وشراب وتنفس وهواء ، وهو خالق كل ما يحتاجون إليه ، فما هى فائدتهم ومن أعمالهم الفانية الحادثة ، وما هى فائدتهم من حياة لا بقاء لها ونشأة لا رجعة بعدها ؟ الحكمة أنه باق لا يزول ولا يرضى الباقى إلا التعرف إليه بسر البقاء وحده آلائه لأنه غير محتاج إلى ما سواه .

ولكن الإنسان فى حالته البشرية وفى جو المحسوسات المادية لا يلمس إلا ما هو مادى وقليل ما يلتفت إلى المعانى الواضحة والأسرار المستلزمة والحكمة الخفية ، فهو يسأل دائماً أين خالق الأكوان ؟ وخالق الأكوان منزّه عن مشابهة مخلوقاته الحادثة ، لا يدرك كنهه إلا هو . فإذا ما رجع الإنسان إلى عقله وفطرته عرفه بقدرة وجليل حكمته فأمن به .

ولكنه كثيرا ما ينسى ذلك بحجاب المادة ويفتن بعظمة الأكوان وما فيها من جلائل
 فينظر تارة إلى الشمس فيفتن بها وطورا إلى القمر والنجوم ، فالذين لا يعقلون ينظرون إلى
 الكون فيفتنون به وينسون خالقه الذى أبدعه ، فإن ذكروه فإنما يريدون أن يسووه
 بما خلق ، والذين يعقلون ينظرون إلى ملكوت السموات والأرض فيتعرفون على مبدعه
 ولا يعقلون أن يشبه الخالق شيئا مما خلق ! انظر إلى إبراهيم عليه السلام أيام صغره وقبل
 أن تأتیه الرسالة وهو يوحى بفطرته ويتأمل فى آيات الكون فلا يقبل عقله السليم وفطرته
 المصبوغة بصبغة الحق ما يأتیه قومه من عبادة الشمس والأوثان « وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ
 كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا
 رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ
 بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي
 وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (١)
 فلم يرض أن يشرك بالله ، ولا أن يسويه أو يشبهه بشيء مما خلق . ورجع بالسموات
 والأرض إلى الذى فطرها . واعتقد أن وجوده سبحانه وتعالى حق لا سبيل إلى الشك فيه ،
 والحنيفية المستقيمة والعقل السليم يحتملان على الإنسان أن يؤمن به ولو عزَّ عليه أن يراه من
 سبيل الحس « قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
 لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
 تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثْبِتُوا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » (٢)
 يتهم الإنسان حسه ولا يقنع إلا بالظواهر ويطلب الدليل تلو الدليل وبرهان غيره
 على صحة ما يراه ، وهو فى ذلك كله أدعى للمغالطة ، مع أن الإيمان واليقين

لا يتعلق كله على أدلة الحس ، إقرأ قوله تعالى « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » ^(١) وقوله : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » ^(٢) وكأني بهؤلاء يقولون إن أداة حس الإنسان هي ذلك الجهاز البشري المعرض للسمم والتلف والخلل والسحر وخداع البصر ، وما يتعلق إدراكه بهذه الأداة فقط كان عرضة للصدق والكذب . ولا تصح به حجة دافعة فكيف يتعلق الإيمان عليه ؟ فإذا كان هذا شأنهم في الأدلة الحسية فكيف يغلثون أسماعهم وعقولهم فلا يقبلون الإيمان من طريق الحق ويطلبون رؤية الحق سبحانه وتعالى كما يرون الحوادث التي يستحيل أن يشبهها « وَقَالَ الَّذِيْنَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » ^(٣) وحكى الله عن قوم موسى « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ^(٤) ذلك لأن الإنسان في هذا العالم مكلف بالإيمان بالغيب عن طريق العقل والتمييز اللذين خلقهما الله فيه ليتهدى بهما إلى الحق بإذنه . وهو في هذه الحياة الدنيا نشأ نشأة فيها عجز وضعف ، ومكلف بأعمال تستوى مع هذا العجز والضعف ولم يبلغ الدرجة التي يستطيع معها شهود المعاينة « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ^(٥) فهو في حالة العقل والتمييز في أحسن تقويم ، وهو في حالة التكليف البشرية وإحساساته الشهوانية في أسفل سافلين ، فإذا آمن وتعرف إلى الله رجع إلى تقويم أعلى . ولا يمكن لمن تلبس بهذه الحالة البشرية أن يستطيع رؤية الله عز وجل « وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ

(١) آية ١٤ ، ١٥ الحجر . (٢) آية ٧ الأنعام . (٣) آية ٢٩ الفرقان .

(٤) آية ٥٥ البقرة . (٥) آية ٤ - ٦ التين .

فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا
 فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) ولولا أن موسى كان يطلب
 رؤية الحق شوقا إلى ربه مع قوة الإيمان الذي يتكافأ مع رسالته لما استطاع تحمل هذا التجلي ،
 ولولا لطف الله به ما أفاق من صعقته وظل مكانه إلى يوم يبعثون . فلما أفاق قال سبحانك
 تبت إليك وأنا أول المؤمنين ، أى أنه لم يطلب الرؤية دليلا على الإيمان وقد آمن قبل أن
 يؤمن قومه وأما رؤية رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاءت بلا طلب تكريما
 لخير مرسل وأعز إنسان ، ولم تكن بحالة مثل حالة موسى وقت الطلب ، بل رفع إلى السماء
 ليرى من آيات ربه الكبرى ، وليكون فى ملأ أعلى من هذا الملأ تتجلى فيه عظمة الله
 وهيبته ، وأودع الرسول صلوات الله عليه وسلامه قوة تسانده على احتمال هذه الحال ، فرأى
 ربه بعينى بصره وبصيرته ، وقال العرب أيضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعاهم
 للإيمان بالله : ائتنا بالله جحودا بعد أن أدلى لهم بالبراهين الدامغة والحجج القوية التى لا تقبل
 الشك ويستحيل مع قيامها الجدل « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
 يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ
 السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ
 زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ
 سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ^(٢) وإنه لعجيب منهم هذا الجدل . ماشأن تفجير
 الأرض ينبوع وإيجاد الجنات من النخيل والأعناب تتفجر خلالها الأنهار ، وإسقاط السماء
 كسفا حتى تنطبق على الأرض قهلك الحرث والنسل فى عقيدة الإيمان ؟ هل يجوز أن يكون
 هذا الخلق بلا خالق وهذا الإبداع بلا مبدع ؟ فالحق أن هذا القول جحود وعناد . وإذا
 كانوا يؤمنون بخالق الأكوان ووجوده وحقه فى إرسال الرسل ، فلم يتناولون على مقامه

العظيم بطلب مالا ينبغي لهم أن يطلبوه ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » ^(١) فهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن الإيمان بالله لا يحتاج مطلقاً إلى هذه الطلبات التي يطلبونها للعناد والمكابرة والجحود، وتدل دلالة ثانية على أنه إذا كان الإيمان في هذه الدار بالمعينة والشهود لم يكن للإنسان منه تكليف ، ولو وقع لانتهى التكليف ، ولا أجز لهذا الإيمان ، وبما أن هذه المعينة واقعة حتماً يوماً ما ^(٢) فإنه لا ينفع التكليف في هذا اليوم الذي يتبين فيه الحق من الباطل ، ويصبح الإنسان أمام الحساب عن الماضي ولا فائدة له من الإيمان يومئذ إذ لا سبيل للإنكار بأى دليل حسى أو معنوى « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » ^(٣) والسجود هو الإذعان والاعتراف لله بما يليق به من التسبيح والتمجيد من عابد لمعبود ومخلوق لخالق : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » ^(٤) فالناس في كل العصور يقعون في هذه الخطيئة ، إذ يعلقون إيمانهم بالله على رؤيته معانية ، أو التخاطب معه بهذه الأبصار وهذه الأسماع

(١) آية ١٥٨ الأنعام

(٢) عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » أخرجه الخمسة إلا النسائي تيسير الوصول ج ٢ ص ١٢٠ وعن صهيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ ألم تنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أخرجه مسلم والترمذى تيسير الوصول ج ٢ ص ١٢٠ .

(٣) آية ٤٢ - ٤٣ القلم . (٤) آية ١١٨ البقرة .

الحادثة وقال الله سبحانه وتعالى « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ »^(١) فالذين يطلبون مكاملة الله لهم عن طريق المشاهدة والمشاركة ، إنما يتناولون على الله وعلى مقامه العظيم وينأون عن فهم حكمته وخطر مقامه وعظمة جبروته وقوة سلطانه الذى لا ينازعه فيه منازع ، فهو القاهر فوق خلقه « بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ . يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ »^(٢) فإدام عقل الإنسان وباطنه يهديه إلى الله فكيف لا يؤمن به ويوحده ويتعرف إليه باتباع سبيل مرضاته ، ولا يتطلع إلى طلبات الجاحدين ، وهل يطلب رؤية الله والملائكة وهو فى هذا التكليف تتنازعه الفضيلة والريذة ، وتحفه الشهوات من كل مكان ؟ وهل يريد أن يرى الحق سبحانه وتعالى ويستمر فى هذا الشقاء والتكليف محتاجا إلى مأكل ومشرب وملبس لا يحصل عليه إلا بهذا الجهد والنصب ؟ وكيف يدارى سوائه لبيول ويغوط ويباشر زوجته على مشهد من الحق يراه كما يراه ؟ مع أن الذين أحسنوا واتقوا وعبدوا الله كأنهم يرونه كما يراهم وراقبوه فى جميع أحوالهم وعلى جميع هيئاتهم تتغير أحوالهم وأطوارهم من هذه المراقبة ، فلا يشبهون غيرهم فى كثير من أحوال الحياة ويمحرمون على أنفسهم كثيرا من الملذات ، فالذين يطلبون رؤية الله سبحانه وتعالى ليؤمنوا به وهم فى هذه الحالة البشرية يطلبون إفكا وبهتاناً ، فهم إن طلبوها استدلالا على وجوده ليؤمنوا ، فهو كفر بالحق الذى لا سبيل إلى إنكاره وجحود آياته وجليل آلائه ونعمه ، وإن كان طلبهم ذلك لغير هذا الوجه فهو تهجم على مقام خطير وإله عظيم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »^(٣) وإن الإيمان بالله

(١) آية ٥١ الشورى . (٢) آية ٥ - ١٥ القيامة . (٣) آية ٨٠ - ٨٢ الصافات .

في هذه الدار لا يحتاج إلى ترهات الجاحدين ، فهو ظاهر لأهل الحق ظهورا لا يحتاج إلى دليل ولولا فضل الله ما أتاب عليه أحدا ، ولولا أن الله أراد أن يغلب أهل الجحود على أمرهم ويلزمهم حجة أكبر على عدم إيمانهم به وافترائهم عليه - مع قوة ظهوره - ماسط على المؤمنين نار الشهوات وخداع السحرة وتنبؤات الكهان وهزات الشياطين وأباطيل المضللين « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » ^(١) وأراد الله بذلك أن يحزن الذين كفروا ليزدادوا كيدا ^(٢) على عدم إيمانهم مع وجود هؤلاء المؤمنين الذين ابتلاهم الله بهذه الفتن فلم تحجبهم عن دلائل الإيمان النيرة الواضحة ، وليباهي الله بالمؤمنين الملائكة ويظهر قوة إيمانهم وشغفهم بمعرفته ومقدار حبهم لمرضاته ، ولولا ذلك ما حف الإيمان بكثير من الفتن وما حجب رؤيته عنهم مع تشوقهم إليه إيمانا وحباً وتعبداً ورقاً ، وجزاهم بما صبروا جزيلاً الثواب وحسن المنقلب « أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » ^(٣) فسبحان الله الذي لا يغيب ، المهيم على جميع خلقه « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » ^(٤) يعلم ما غاب عن الإنسان من عوالم وأسرار لم يصل إليها بصره وسمعه ، ولم يدركها علمه لعجزه وقصوره « قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمَ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ . قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » ^(٥) « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) آية ٤٢ الأفعال . (٢) وهل هناك كمد ونكد للذين كفروا أكبر مما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله تعالى « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قلوا إن الله حرمها على الكافرين » الأعراف (٣) آية ٣ - ٦ العنكبوت (٤) آية ٣٣ الحشر (٥) آية ٤٨ - ٥٠ ساء

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ . فالحق أن تؤمن به ونوحده ونتبع أوامره ونجتنب نواهيه كأننا نراه « أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ^(١) قال القرطبي رضى الله عنه : اختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب في هذه الآية الله سبحانه وتعالى ، وضعفه ابن العربي ، وقال آخرون : القضاء والقدر ، وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب ، وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار ، قال ابن عطية وهذه الأقوال لا تتعارض ، بل يقع الغيب على جميعها ، قلت وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ ، قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ » وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ... » ^(٢) قلت وفي التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » ^(٣) وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ » ^(٤) فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى في هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال . قال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا يصلون للأوثان قبل محمد

دعاء الإيمان^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، شَهِدَ اللَّهُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ،
إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ وَأَمْسَيْتُ أَشْهَدُكَ وَأَشْهَدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ
وَمَلَائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ بِأَنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ بِمَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ وَشَهِدْتَ بِهِ مَلَائِكَتُكَ
وَأَنْبِيَائُكَ وَأُولُو الْعِلْمِ . وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ بِمَا شَهِدْتَ بِهِ فَآ كُتِبَ شَهَادَتِي مَكَانَ شَهَادَتِهِ
أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . رَضِيتُ بِاللَّهِ تَعَالَى رَبًّا
وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ
شَيْءٍ أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ
أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ
أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ اجْعَلْنِي مُخْلِصًا لَكَ وَأَهْلِي
فِي كُلِّ سَاعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَسْمَعُ وَأُسْتَجِيبُ . اللَّهُ أَكْبَرُ .
اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . اللَّهُ أَكْبَرُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . اللَّهُ . اللَّهُ رَبِّي
لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ . لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

(١) هذا الدعاء وارد في كتاب المؤلف [النفحات الحميدة] صفحة ١٤٤ مجموعاً من أدعية سيدنا محمد سيد
المرسلين، وقد أوردته هنا تبركاً بعد كتابته (الإيمان بالغيب) فقد يدعو به قارى فهميده الله ويزيده من نور الإيمان

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ
بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بُدِيعُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ . اللَّهُمَّ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، فَإِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ
فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاشْهَدْكَ وَكَفَى بِكَ شَهِيدًا أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ
لَا شَرِيكَ لَكَ ، لَكَ الْمُلْكُ وَلَكَ الْحَمْدُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ . وَأَشْهَدُ أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ،
وَأَنَّكَ تَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، وَإِنَّكَ إِن تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَعْفٍ وَعَوْرَةٍ
وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ ، وَتُتْرَكُنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبَاعِدُنِي مِنَ الْخَيْرِ ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ .
فَاجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدًا تَوْفِينِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تَخْفِ الْمِيعَادَ وَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي كُلَّهَا
إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ
وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ
بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ .
إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . اللَّهُمَّ ^(١) رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ
الْحَمْدُ أَنْتَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ
الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ،
وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ . اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ
وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاعْفِرْ لِي
مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي . أَنْتَ الْمَقْدُمُ

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرها وهذا لفظهما ، ويقرأ بعد صلاة التهجيد .

وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ . اللَّهُمَّ أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبدَ ، وَأَنْصَرُ
 مَنْ ابْتَغَى ، وَأَرْأَفُ مَنْ مَلَكَ ، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى . اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ
 لِأَشْرِيكَ لَكَ ، وَالْفَرْذُ لَا نِدَّ لَكَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَكَ . لَنْ تَطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِكَ .
 وَلَنْ تُعْصَى إِلَّا بِعِلْمِكَ ، تَطَاعُ قَتَشَكُرُ ، وَتُعْصَى فَتَغْفِرُ ، أَقْرَبُ شَهِيدٍ ، وَأَذْنَى حَفِيطٍ .
 حُلَّتْ دُونَ النَّفُوسِ ، وَأَخَذَتْ بِالنَّوَاصِي ، وَكَتَبَتْ الْأَثَارَ ، وَنَسَخَتْ الْأَجَالَ . الْقُلُوبُ
 لَكَ مُغْضِيَةٌ ، وَالسِّرُّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ . الْحَلَالُ مَا أَحَلَّكَ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمْتَ ، وَالدِّينُ
 مَا شَرَعْتَ ، وَالْأَمْرُ مَا قَضَيْتَ . وَاخْلُقْ خَلْقَكَ ، وَالْعَبْدُ عَبْدَكَ . وَأَنْتَ اللَّهُ الرَّءُوفُ
 الرَّحِيمُ . أَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَبِكُلِّ حَقٍّ
 هُوَ لَكَ ، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ أَنْ تَقِيلَنِي وَأَنْ تُخَيِّرَنِي مِنَ النَّارِ بِقُدْرَتِكَ . اللَّهُمَّ
 اهْدِنِي فِيْمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيْمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيْمَا
 أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ
 وَلَا يَعْزُ مَنْ عَادَيْتَ . تَبَارَكَ كَتَرَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ . نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ . وَصَلَّى اللَّهُ
 عَلَى النَّبِيِّ . اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ ، وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ ،
 وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ . وَنُثْنِي عَلَيْكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ . نَشْكُرُكَ وَلَا نَكْفُرُكَ وَنُخْلَعُ وَنَتْرُكُ
 مَنْ يَفْجُرُكَ . اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ ، رَزَجُو
 رَحْمَتَكَ ، وَنَخْشَى عَذَابَكَ ، إِنَّ عَذَابَكَ الْجَدَّ بِالْكَفَّارِ مُلْحَقٌ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَأَصْلَحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ ، وَأَنْصُرْهُمْ
 عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّهِمْ . اللَّهُمَّ أَلْعَنُ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَيُكَذِّبُونَ
 رُسُلَكَ وَيُقَاتِلُونَ أَوْلِيَاءَكَ ، وَيَجْحَدُونَ آيَاتِكَ ، وَيَتَعَدَّوْنَ حُدُودَكَ ، وَيَدْعُونَ مَعَكَ
 إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ . تَبَارَكَ كَتَرَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ غُلُوءًا كَبِيرًا .
 اللَّهُمَّ أَلْقَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ ، وَخَالَفَ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ ، وَزَلْزَلْ أَقْدَامَهُمْ ، وَأَنْزِلْ بِهِمْ

بِأَسْكَ الَّذِي لَا تَرُدُّهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . اللَّهُمَّ أَنْتَ عَظْدِي وَنَصِيرِي ، بِكَ أَحُولُ
وَبِكَ أَصُولُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ . اللَّهُمَّ وَاقِيَّةَ كَوَاقِيَةِ الْوَلِيدِ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ
فِي قَلْبِي نُورًا ، وَفِي بَصَرِي نُورًا ، وَفِي سَمْعِي نُورًا ، وَفِي يَمِينِي نُورًا ، وَفِي شِمَالِي
نُورًا ، وَمِنْ خَلْقِي نُورًا ، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا ، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا ، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا .
اللَّهُمَّ أَغْطِنِي نُورًا ، وَاجْعَلْنِي نُورًا ، وَفِي لَحْمِي نُورًا ، وَفِي دَمِي نُورًا ، وَفِي شَعْرِي نُورًا ،
وَفِي بَشَرِي نُورًا ، وَفِي لِسَانِي نُورًا ، وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورًا ، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا ،
وَاجْعَلْ لِي نُورًا . يَا مَنْ لَا تَرَاهُ الْعُيُونُ ، وَلَا تُخَالِطُهُ الظُّنُونُ ، وَلَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ ،
وَلَا تُغَيِّرُهُ الْحَوَادِثُ ، وَلَا يَخْشَى الدَّوَاثِرُ . يَعْلَمُ مَثَاقِيلَ الْجِبَالِ وَمَسَاكِيلَ الْبِحَارِ ،
وَعَدَدَ قَطْرِ الْأَمْطَارِ ، وَعَدَدَ وَرَقِ الْأَشْجَارِ ، وَعَدَدَ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَأَشْرَقَ عَلَيْهِ
النَّهَارُ . وَلَا تَوَارِي مِنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءًا ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا ، وَلَا بَحْرٌ مَا فِي قَعْرِهِ ، وَلَا جَبَلٌ
مَا فِي وَغْرِهِ ، اجْعَلْ خَيْرَ عُمْرِي آخِرَهُ ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ ، وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمًا أَلْفَاكَ فِيهِ .
يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ ثَبَّتْنِي بِهِ حَتَّى أَلْفَاكَ . يَا مَنْ أَظْهَرَ الْجَمِيلَ وَسَتَرَ الْقَبِيحَ ،
وَيَا مَنْ لَا يُوَاحِدُ بِالْجَرِيرَةِ ، وَلَا يَهْتِكُ السِّرَّ ، يَا عَظِيمَ الْعَفْوِ ، يَا حَسَنَ التَّجَاوُزِ ،
يَا وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ ، يَا بَاسِطَ الْيَدَيْنِ بِالرَّحْمَةِ ، يَا صَاحِبَ كُلِّ نَجْوَى ، يَا مُنْتَهَى كُلِّ
شَكْوَى ، يَا كَرِيمَ الصَّفْحِ ، يَا عَظِيمَ الْمَنِّ يَا مُبْتَدِئَ النِّعَمِ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا ، يَا رَبَّنَا
وَيَا سَيِّدَنَا ، وَيَا مَوْلَانَا ، وَيَا غَايَةَ رَغْبَتِنَا ، أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ أَنْ لَا تَشْوِي خَلْقِي بِالنَّارِ .
اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَسْتَ بِإِلَهِ اسْتَحْدَثْنَاهُ ، وَلَا بِرَبِّ يَبِيدُ ذِكْرُهُ ابْتَدَعْنَاهُ ، وَلَا عَلَيْكَ شُرَكَاءُ
يَقْضُونَ مَعَكَ ، وَلَا كَانَ لَنَا قَبْلَكَ مِنْ إِلَهِ نَلْجَأُ إِلَيْهِ وَنَذْرُكَ ، وَلَا أَعَانَكَ عَلَى خَلْقِنَا
أَحَدٌ فَتُشْرِكْهُ فِيكَ ، تَبَارَكَتَ وَتَعَالَيْتَ ، فَتَسْأَلُكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ اغْفِرْ لِي . اللَّهُمَّ
إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي ، وَتَرَى مَكَانِي ، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ
مِنْ أَمْرِي ، وَأَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ ، الْوَجِلُ الْمُسْتَقِ ، الْمُقَرُّ الْمُعْتَرِفُ
بِذَنْبِهِ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمُسْكِينِ ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمَذْنِبِ الذَّلِيلِ ، وَأَدْعُوكَ
دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ ، مَنْ خَضَعْتَ لَكَ رَقَبَتَهُ ، وَفَاضَتْ لَكَ عِبْرَتُهُ ، وَذَلَّ لَكَ

جِسْمُهُ وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ . اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي بِدُعَائِكَ شَقِيًّا ، وَكُنْ بِي رَءُوفًا رَحِيمًا ، يَا خَيْرَ
 الْمُسْتَوَلِينَ يَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ . اللَّهُمَّ يَا مُؤْنِسَ كُلِّ وَحِيدٍ ، وَيَا صَاحِبَ كُلِّ فَرِيدٍ ، وَيَا قَرِيبًا
 خَيْرَ بَعِيدٍ ، وَيَا شَاهِدًا غَيْرَ غَائِبٍ ، وَيَا غَالِبًا غَيْرَ مَغْلُوبٍ ، يَا حَيَّ يَا قَيُّوْمُ ، يَا ذَا الْجَلَالِ
 وَالْإِكْرَامِ ، يَا نُورَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَا زَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَا جَبَّارَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَا عِمَادَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
 يَا قَيَّامَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، يَا صَرِيحَ الْمُسْتَضْرِحِينَ ،
 وَمُنْتَهَى الْعَابِدِينَ ، وَالْمُفَرِّجَ عَنِ الْمَكْرُوبِينَ ، وَالرُّوْحَ عَنِ الْمُغْمُومِينَ ، وَنَجِيْبَ دُعَاءِ
 الْمُضْطَرِّينَ ، كَاشِفَ الْكُرْبِ ، يَا إِلَهَ الْعَالَمِينَ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، مَنْزُولُ بِكَ كُلُّ
 حَاجَةٍ . اللَّهُمَّ أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ
 الرَّاحِمِينَ ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي ؟ أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَكَتْهُ أُمْرِي ؟ إِنْ لَمْ
 تَكُنْ سَاحِطًا عَلَى فَلَا أُبَالِي ، غَيْرَ أَنْ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ
 الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ ، وَأَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 أَنْ يُحِلَّ عَلَيَّ غَضَبَكَ ، أَوْ تُنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطَكَ ، وَلَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا قُوَّةَ
 إِلَّا بِكَ . اللَّهُمَّ احْرُسْنِي بِعَيْنِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ ، وَاكْنُفْنِي بِرُكْنِكَ الَّذِي لَا يُرَامُ ،
 وَارْحَمْنِي بِقُدْرَتِكَ عَلَى فَلَا أَهْلِكَ وَأَنْتَ رَجَائِي ، فَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ
 قَلَّ لَكَ بِهَا شُكْرِي ، وَكَمْ مِنْ بَلِيَّةٍ ابْتَلَيْتَنِي بِهَا قَلَّ لَكَ بِهَا صَبْرِي ، فَيَا مَنْ قَلَّ
 حِينَ نِعْمَتِهِ شُكْرِي فَلَمْ يَحْرَمْنِي ، وَيَا مَنْ قَلَّ عِنْدَ بَلِيَّتِهِ صَبْرِي فَلَمْ يَخْذُلْنِي ،
 وَيَا مَنْ رَأَى عَلَى الْخَطِيَايَا فَلَمْ يَفْضَحْنِي ، يَا ذَا الْمَعْرُوفِ الَّذِي لَا يَنْقُضِي أَبَدًا ، وَيَا ذَا
 النِّعْمَاءِ الَّتِي لَا تُحْصَى أَبَدًا ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، وَبِكَ أَدْرَأُ
 فِي نُحُورِ الْأَعْدَاءِ وَالْجَبَابِرَةِ . اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، وَإِلَيْكَ الْمُسْتَكِي ، وَبِكَ الْمُسْتَعَاثُ ،
 وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
 عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
 الْمِيعَادَ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ الْكَامِلِ ذِي الْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَعَلَى آلِهِ وَحَبِّهِ وَسَلِّمْ

سبب انحراف الناس عن الحق^(١)

الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها تدل على الله ، وإبداع الله للأكون وعظيم آياته تدل على وحدانيته وكمال صفاته وتنزهه عن كل نقص في صفاته العلية ، وما يفيضه الله من رحمة وحنان على عباده وتذوقه قلوبهم ، وما يلقيه من إلهام وبيان لطريق الصواب على صفحة الوجدان وتعرفه الأفئدة ، يجعل بين العباد وخالقهم صلة لا تنقطع « وإذا سَأَلْتَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »^(١) وعجز الإنسان وحاجته إلى ربه القوى الغنى المحسن في جميع شؤونه تدعوه إلى عبادته بالالتجاء والتزلف إليه ، ولن يتزلف إليه كافر غير مقرر بوحدانيته وعظيم آلائه . وفي كل العصور لم يستطع أحد إنكار وجود الله العلي العظيم إلا جحوداً وكفراً ، إذ لو اجتمع أهل الأرض والسماء وكان بعضهم لبعض ظهيراً ما استطاعوا تصوير شبهة تحجب دلائل وحدانيته وقيامه بنفسه وتديره لما خلق ، فسبحان الله الذي فطر السموات والأرض وخلق الخلق جميعاً من العدم وأبرزها شاهدة على قدرته وعظمته وبديع صنعته .

وكل الفلاسفة الذين تجردوا من الغرض وسلمت أبحاثهم من دنس الشهوات وضلال الفكر سبّحوا بحمد ربهم واهتدوا للإيمان والتوحيد ، سواء منهم من وضع نصب عينيه ألا يجعل للأدلة النقلية سلطاناً على عقله وتأثيراً على فكرته ، والذين قبلوا الأدلة النقلية وبحشوها على محك العقل والمنطق ، يقول سكوتس (إن الفلسفة الحققة والدين الحق شيء واحد لأن العقيدة مرحلة من مراحل الحياة العقلية) وكل فاسفة تجريبية أو علمية أو نظرية أو على أى طريقة من طرق البحث إذا صدقت وخلت من الغرض أدت إلى المعرفة بالله سواء منهم من نظروا إلى الطبيعة وجعلوها دليلاً على كمال موجدتها وواسع علمه وجليل إبداعه ، أو الذين جالوا بأفكارهم وتأملاتهم وراء الطبيعة فسلموا بوجوده وعجزهم عن إدراك كنهه ، إذ يسع الذهن الحادث تصوير كل شيء مهما عظم إذا كان ذلك الشيء حادثاً ،

(١) نشرت بمجريدة منبر الشرق الغراء سنة ١٩٤٥ . (٢) آية ١٨٦ البقرة

ويحترق ويتلاشى أمام الذى أوجده من العدم ، والعقل يسلم بوجوده تسليماً لا يقبل الجدل والإنكار ، فسبحان الله الذى حير الألباب من عظيم هيئته وجليل قدرته .

ويسمع الناس سماعاً متواتراً من بدء الخليقة أن لهم خالقاً أكبر ، خلق أباهم آدم فى الجنة وأهبطه الأرض ليكون خليفة له فيها يعمرها ويصلحها هو وذريته ولا يفسدون ، يعدلون ولا يجورون إلى وقتهم المعلوم ، فإذا ما عادوا إلى بارئهم جازاهم عن ذلك أعظم المثوبات . ويعلم الناس فى كل العصور أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسلاً فى كل أمة ليدلوهم على الحق وليبينوا لهم سبيل الهداية والإيمان الصحيح ، وليخرجوهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والعرفان « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »^(١) ولم تخل أمة ، ولا بيئة من ذوى الفطر السليمة والعقول الناضجة . فلدى الإنسان فى كل العصور مادة المعرفة بالله والإيمان به من فطرته وروحه ووجدانه وعقله ، ومن آيات السكون البارزة ، ومن إرشاد الرسل وتعاليمهم ومن أهل الإيمان والحكمة ، مما يرضى به العقل ويطبق المنطق السليم ويحكم به الحق .

فإذا كانت هذه طبيعة الحق فلم يختلف الناس فى العقيدة وتفرقوا شيعاً وعبدوا الشمس والقمر والنجوم والأوثان ، واتخذوا من ملوكهم وأنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله مع أن الفطر السليمة والعقول الناضجة لا تقرهم على ذلك ؟ فهو أمر تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، إن جحد الإنسان ربه هذا الجحود وبدل شكر نعمته كفراناً . هل يرجع ذلك الاختلاف إلى خفاء الحق وإخفاق الناس وجهدهم فى الوصول إليه ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول « ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُتَكَلِّمًا الْقَرِىُّ يُظْلَمُ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ »^(٢) ويقول : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ »^(٣) والحق أنه لا خفاء ؛ والجواب عن هذا السؤال واضح فى الكتاب العزيز : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ^(١) وهنا وضح أنه كانت علة الاختلاف البغى . ويقول الله جل شأنه في البغى وسببه ونتيجته « يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُغِيكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ^(٢) والبغى هو الظلم الذى هو ضد العدل وعدم الانصياع للحق والتطاول عليه بالباطل ، ورأس الظلم التعرض للمالك فى ملكه والتداخل فى إرادته والاعتراض على أحكامه ، وأول من وقع فى ذلك بالنسبة لله رأس الغواة إبليس اللعين إذ أبى الانصياع لأمر خالقه ومالكة عندما أمر بالسجود لآدم وأخذه الكبر واعترض على حكم ربه قائلاً « أسجد لمن خلقت طيناً ، فخذ وكان من الكافرين . وأول الظالمين الباغين على الأرض قابيل إذ قتل هابيل : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَكِن بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » ^(٣) ولقد فتنت الدنيا قابيل وطمع فى زواج من لا تحل له وأحلها الله لأخيه ، فتم على ذلك ظمناً وعدواناً ، وطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين النادمين فى وقت لا يفيد فيه الندم ، وغضب الله عليه وأضله بعد علم ، فكان من الكافرين ، وصار عوناً لإبليس رأس الغواة الجاحدين ، فاتخذة إماماً لأهل الفساد فى الأرض ، ووسوس له أن الله غضب عليك وطرده من رحمته فاعبد الشمس إن كان لابد لك أن تكون من العابدين ، فطمع على قلبه وكان من القوم الكافرين ، وفتنت الدنيا كثيراً غيره فاتبعوا الهوى وظلموا أنفسهم بافتياتهم على حقوق غيرهم وعدم خضوعهم لأحكام ربهم ، فقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وعاثوا فى الأرض فساداً ، وعاقبة هؤلاء وأمثالهم أن يضلهم الله بعد علم ، ويسلب منهم الإيمان والعياذ بالله ، ويصبحوا من الكافرين « أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ » ^(٤) ويعاقب الله الناس إذا زادوا فى البغى والعدوان

(٢) آية ٢٣ يونس .

(٤) آية ٤٣ الفرقان .

(١) آية ٢١٣ البقرة

(٣) آية ٢٧ - ٢٩ المائدة

واخذوا الهوى إلهاً وحكماً ولم ينقادوا لأحكام الله بسلب الإيمان ، ليموتوا بعقوبة الكفر والشرك ، ومادتها الخلود في النار ، وذلك بأنهم كلما كسبوا السيئات ، اشتد سواد قلوبهم « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ^(١) وكما أظلمت القلوب ازدادت جرأة على الحق فازداد غضب الله عليهم ، وإذا غضب الله على عبد قطع صلاته به « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ^(٢) وصلاة الله على عبده هي هدايته له ورحمته به ، وإذا قطع الله حبل الرحمة والهداية بينه وبين عبده لعدم طاعة العبد وظلمه وبغيه وكثرة فساده ، قطع صلاته به ولعنه وغضب عليه ، فإذا كان ذلك والعياذ بالله انقطع عن العبد نور العقل وخف إدراكه لحقائق الأشياء ، واشتدت عليه الفتن ، وكثرت في قلبه الشبهات وغلظ قلبه وكبده ، وتيسرت له بواعث الضلال ، فأثر الحياة الدنيا ، وأنكر ما وراءها ، تبريراً لأعماله وخداعاً لنفسه ، وافترى على الله الكذب وما لم ينزل به سلطاناً ، يقول الحق سبحانه وتعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » ^(٣) ويقول : « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » ^(٤) ويقول : « هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » ^(٥) ويقول : « الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » ^(٦) .

ومن الظلم والبغى تفرعت أسباب الكفر والضلال ، فعبد قوم الشمس والقمر والنجوم والأوثان بعد أن جحدوا وكفروا بالله ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، وسوّل لهم أن يرغبوا غيرهم على هذه العبادة ، ليضلوا عن سواء السبيل وليكونوا شركاء ، فكانوا أئمة الكفر والضلال ، عنادا بالباطل وكبراً وعتوا « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا قَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ

(١) آية ١٤ المطففين (٢) ٤٣ الأحزاب (٣) آية ٥ الصف .

(٤) آية ١٥٥ آل عمران (٥) آية ٦٠ المائدة (٦) آية ٣٥ غافر .

لَهْدَيْنَا كُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجَزُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ حَمِيصٍ «^(١) وقال تعالى : « وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُوا أَأَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا
السَّبِيلَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ
مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ الَّذِي كَرَّمُوا قَوْمًا بُورًا «^(٢) وكان هؤلاء الطغاة في الأرض
بعد كفرهم سبب كل مصائب البشر وسبب ضلال كثير من الناس بعد الهدى وكفرهم بعد
الإيمان ، فانطمست العقول وعميت البصائر ، فدخل خلق كثير في تبعيتهم ، وصموا آذانهم
عن نداء الحق ودعوة الرسل ، وعطّلوا عقولهم فهم في غفلة معرضون ، لأنهم وجدوا
في الكفر خروجا عن ربة التكليف ، وهدما لصرح العدل الذي كرهوه وتجروا على
الحقوق تكبرا وتجبرا اتباعا للهوى ، ولم يكن ذلك خاصا بزمن دون زمن ، فكم أضل
البغي والظلم والكبر والهوى قوما بعد إيمانهم من اتباع المرسلين ، فغيروا الأحكام طبقا لمشتهاهم
واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا يبدلون بها تبديلا ، فكفروا بعد إيمانهم وضلوا وأضلوا كثيرا .
واقترضت حكمة الله ورحمته بعباده المؤمنين أن يرسل بين الفترة والفترة رسلا يأمرون
الناس بالعدل والإحسان وينهون عن المنكر والبغي ، ويبينون لهم الذي اختلفوا فيه وليردوا
الناس إلى الإيمان ، ولكن معظمهم تأخذهم العزة بالإثم فيكذبون الأنبياء ولا تروعهم الآيات
ولا أنباء المعجزات ، ويأمرون أتباعهم من السفهاء أن يتطاولوا عليهم بالباطل كبرا ، وعتوا
وفسادا في الأرض ، ولا يزالون بهم حتى يقتلوهم إن استطاعوا فيزدادوا إثما وكفرا قال الله
سبحانه وتعالى : « أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ »^(٣) .

وتتلخص أسباب الضلال والكفر في النقاط الجوهرية الآتية

أولا : الغرور بالدنيا وشغف الناس بالشهوات ، فيلهيهم الأمل عن اتباع الواجب
والعدل في الأمور ، فيأخذون في البغي والظلم للاستكثار والتكاثر والتمتع بحق وبغير حق ،
ويكفرون بعد الإيمان ، استحبابا في متاع عاجل ويأسا من خير موعود ، قال الله سبحانه وتعالى

(١) آية ٢١ إبراهيم (٢) آية ١٧ ، ١٨ الفرقان (٣) آية ٨٧ البقرة .

« زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْفَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » ^(١) ويقول الله سبحانه وتعالى في شأن الذين كفروا منهم « زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ^(٢) وهؤلاء الذين استهوتهم الشهوات كالأنعام بل هم أضل ، يرتعون في المنكر ماشاءوا وشاء لهم الهوى ، وهم عاجزون عن القيام بالقسط لانعدام إنسانيتهم لا يستحيون من الله ولا يستحيون من الناس ، يَحْرِمُونَ الناس حقوقهم ، يسلبونها سلباً لا يراعون فيهم إلا ولا ذمة ، ولا يعرفون واجباً ، وهم عاجزون عن أداء رسالتهم في كمال الإنسان المستقيم النافع ، ويهزءون من الحق ويعتبرون التمسك به ضعفاً وعجزاً عن بلوغ المآرب والרגبات ، يبيتون في أنفسهم من أنواع الدناءة والخسة أكثر مما يبدو للناس ، ويزينون الباطل ليكثر أعوانهم فيولغون في الدناءات بلا استحياء .

ثانياً : استخفاف الطغاة بشعوبهم واستبدادهم بهم ، أو إغراؤهم لهم بالمال والجاه حتى يعبدوهم من دون الله استخفافاً بعقولهم ، ويزينون لهم ذلك حتى يألفوا عبادتهم فلا يخرجوا من طاعتهم وطاعة ذراريهم لأبنائهم ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن فرعون وقومه إذ قال جل شأنه : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » ^(٣) وقال تعالى : « وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى » ^(٤) وقال تعالى : « وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوًى عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » ^(٥) ولم تنفع فيهم الآيات ولا النذر حتى أخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر . وفي التاريخ أمثال فرعون ممن خلعوا على أنفسهم ثوب الألوهية وغرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور .

ثالثاً : طبع كثير من الناس على التقليد الممقوت يقلدون الغالب ويقلدون قومهم وآباءهم ، وتنطبع العقائد والعادات في نفوسهم بلا بحث ولا تعقل ، ويتعصبون لما هم عليه من ضلال وإفك ويصمون آذانهم عن دعوة الحق ولا يفكرون العقل من عقاله ليهتدوا ،

(٣) آية ٥٤ الزخرف

(٢) آية ٢١٢ البقرة

(١) آية ١٤ آل عمران

(٥) آية ٣٧ غافر

(٤) آية ٧٩ طه

بل يقولون قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ »^(١) أو يقولون : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ »^(٢) ويشوشون على غيرهم بعنادهم وأباطيلهم ، يلتمسون أوهى الأدلة ، ويدللون على أن النور ظلام ، والظلام نور ، ويعقدون السهل ويدخلون بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان ، في سبيل نصرته ما ورثوه ، ويقفون في سبيل النور ويظنون أنهم بتمجيد آبائهم وحرصهم على اقتفاء آثارهم ، ولو كانت باطلة يبرءون من عذاب الله يوم لا تنفع معذرتهم ، والله سبحانه وتعالى يقول في شأنهم : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ »^(٣) .

رابعاً : رأى كثير من الملوك والسياسيين أن المبادئ السياسية والاجتماعية والاقتصادية لاتصلح أساساً ثابتاً لتلك زعامة الشعوب وتثبيت سلطانهم وقضاء مآربهم ، لأن اتباع هذه المبادئ أبعد الناس عن الثبات عليها لمدة طويلة وأقلهم تضحية من أجلها ، فهم كثيرو التحول من مبدأ لآخر ، تبعاً للمنافع والأغراض والشهوات ، وتبعاً للغالب الذي يرهب جانبه ويؤمل في مؤازرته الأمن والفوز والرخاء بلا غضاضة على نفوسهم ، ورأوا اتباع الأديان أسلس قياداً منهم متفانين في مبادئهم الدينية ، يضحون في سبيلها بكل مرتخص وغال ، يصعب تحويلهم عنها ، يطيعون زعماءهم طاعة تقديس عمياء ، ذلك لأن المبادئ الدينية المقام الأول في كل عصر ، فهي الدعامة الكبرى لحياة الإنسان يستلهم منها سعادة المستقبل ، لا يرهف شعوره إلا لها ولا تتغذى إحساساته إلا بها ، لأنها تبعث فيه الأمل وتقوى عنده الشعور بالواجب ، ولأن التدين طبع في النفس البشرية مهما زاغت عن الحق فيه تبعاً للأهواء . فوجد الساسة في الدين الأسلحة الناجعة لمحاربة الخصوم يستنفرون به الناس على أعدائهم ، فجعلوا من أنفسهم حراساً على العقائد حتى ولو لم يعتنقوها في قرارة نفوسهم . ولما كانت العقائد الصحيحة حقاً مشاعاً للبشر ، ولكل شريعة حراس من أهلها

(١) آية ١٧٠ البقرة

(٢) آية ٢٢ الزخرف

(٣) آية ١٠، ١١ الملك .

المصلحين ، لجأ السياسيون إلى الحيل واستهواء بعضهم بالمال والجاه ، ليؤيدوا بهم سلطانهم ، فإن لم يطاوعوهم ولم يجدوا فيهم مآرباً سلطوا عليهم المرتقة من الكتاب والمتفهبين لتحقيق شأنهم ، وإثارة الجدل والشبهات في العقائد ، وإكراههم على ما يريدون ؛ فإن لم يستطيعوا كسب الخلق إلى جانبهم نجحوا على الأقل في تفكيك عرى جماعتهم وحوّلوا طبقة من أهل الأهواء فتشيعوا لهم ، ومن هذه الفتن تشيع أهل الدين الواحد وصاروا فرقا وأحزاباً « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (١) وقد يعتمد البعض عند اشتداد العناد إلى تغيير الدين والتجديد فيه ، إما في أصوله أو فروعه ليأتوا بعقيدة جديدة تخالف عقائد الآخرين ليلقحوا أذهان الجماهير ويرهفوا إحساسهم بالجديد ، ولا يهربون في بعض الأحيان وضع دين جديد يختصون بالدفاع عنه ويكون سلاحاً قوياً في أيديهم ، ولن تقوى هذه العقائد والأديان على البقاء وسط العقائد الصحيحة إلا إذا تعصبوا لها وأزكوا نار الجدل ولجوا فيه كبرا وعتوا ، واستعانوا على تأييد زائفهم بملحدى المتفلسفين ، وكلّفوا المرتقة من الشعراء والكتاب التغنى به ، وإساغته للعامة بوضع الأساطير الكاذبة والمقالات الرنانة والأدلة المزيفة : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (٢) « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ . ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ » (٣) ومن هؤلاء السياسيين ذاقت الأديان في كل العصور هواناً ، ولعبت بها الأهواء فأفسدوا على الناس عقائدهم ، وعرضوا للعناء حياتهم ، وقلّ أمنهم وتعرضوا لسخط رب العالمين . أولئك الذين يقول الله في شأنهم : « الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُوءًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » (٤) .

(٣) آية ٨ ، ٩ الحج

(٢) آية ٦ ، ٧ لقمان

(١) آية ١٥٩ الأنعام

(٤) آية ٥١ الأعراف

خامسا : التعصب والغلو في الدين امتناعا عن إعطاء الحق لأهله وتكبيرا حتى لا يكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وحبا في الزعامة وتبعا للأهواء والمنافع الشخصية ، فيحاربون الرسل وأهل الحق والإصلاح يكذبونهم تارة وتارة يبخسونهم ويحقرونهم بالتعالى في رفع أقدار السابقين إلى مقام الألوهية ، ويكرمون زعماءهم تكريما يوقعهم في الشرك ولا يخافون ربهم فيحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلبسون الحق بالباطل حتى يغيب الحق عن أبصار المبصرين : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »^(١) « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ »^(٢) ومن هؤلاء الطوائف من غيروا في الكتب المنزلة ليشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ومنهم من وقفوا في سبيل الرسل يكذبونهم بغير الحق ظلما وبغيا حتى تبقى لهم الزعامة والكبرياء في الأرض « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ قَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »^(٣) مع أنهم لن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

سادسا : أولئك الذين أخفقوا في حياتهم وحسدوا الذين رفعوا راية الحق والكرامة واستظلوا بها فدافعوهم ولم يكونوا أمثالهم ، فاتخذوا سبيل الخالفة في الرأي والعقيدة سبيلا لإثبات وجودهم بين الأعلام البارزين ، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم المثل « خالف تعرف » من أمثال الفلاسفة المغرضين والعلماء المتفيعين الذين يزينون دعواهم المخترعة بالألفاظ الخلابة وزائف المنطق ليستهووا بذلك العقول الضعيفة مع أنهم في قرارة أنفسهم يعتقدون أنهم كاذبون وأنهم على الحق مجترئون « وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ »^(٤) .

(٢) آية ٥٩ المائدة .

(٤) آية ١١٦ الأنعام

(١) آية ٧٧ المائدة

(٣) آية ١٦ البقرة

حكمة إرسال الرسل

عليهم صلوات الله وسلامه

سبق أن بينا أن الله سبحانه وتعالى جعل قضية معرفته سهلة لا يكابر فيها إلا كافر جحود ، أعى الله بصيرته وختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة ؛ كما بينا أن العقل الناضج والفطر السليمة تهدي إلى معرفة صفاته ، وأن الإنسان في هذا العالم العظيم مع ما وهب من القوى الفكرية التي تسمح له أن يحجب أسمى المعاني عاجز عن بلوغ أغراضه لا يأمن عواقبه إلا إذا استعان بالقوة الخفية التي تدير أمر العالم ، وهي قوة خالقه ومريده ، قوة الله الذي أتقن كل شيء ، وهي التي يتحتم عليه أن يلجأ إليها كلما استمان ويحتكم إليها إذا ظلم ، فإن استعان بغيرها ضعف المعين وكان من الهالكين ، وكل إنسان في هذا العالم لا يعيش وحده بل يحتاج إلى بني جنسه ، وبنو جنسه يحتاجون إليه لا يعيش الكل إلا بالتعاون والتآزر والتراحم ، ومن هذا كانت حاجته إلى الفضيلة من أهم ضروريات وجوده لصالح هذا المجتمع وبقائه سليما من أدران الرذيلة ، حتى لا يتفكك نظامه ويسير إلى الفناء ، ولئلا يشقى فيه أهله وتصبح حياة النور الحسى ظلما يحبس الأنفاس . فهل مع هذه الحقائق الناصعة سار العالم الإنساني إلى السمو وارتقى إلى أوج العرفان الذاتي وعاش أهله عيشة الأبرار ؟ يؤمنون بالله ويعملون طلبا لرضاه ، وينأون عن الدنس ؛ يتعاونون ولا يتباغضون ، ويستلهمون الأسرار العلية والمعاني السامية التي ترفع أقدارهم عن البهيمية وتنفعهم في مستقبل حياتهم الأخروية .

حال العالم في كل العصور يدل على أن وضوح الحق لم يكن مانعا من الضلال ، وأن كثرة الناس تهوى إلى أحط مراتب الإنسانية بل تندفع إلى الفجور اندفاعا ، وتسير إلى الشقاء كما يلقي الفراش بنفسه إلى النار ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف هذه الحال لقومه إذ قال : « إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ تَقَعُ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَمْنَعُهُنَّ

فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا أَخَذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا» أخرجه البخارى^(١). وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْنَتِهَا ، فقال رجل : أَوْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرضاء . وقال : أَيْنَ هَذَا السَّائِلُ ؟ وكأنه حمده . فقال : إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُيْلِمُ إِلَّا آكَلَةَ الْخَضِرَةِ فَإِنهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا فَاسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَنَاطَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَنَعَتْ . وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ خُلُوٌّ . وَنِعَمَ صَاحِبُ السُّلَمِ هُوَ لِمَنْ أَعْطَى مِنْهُ الْمُسْكِينُ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَإِنَّ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَمَنْ يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أخرجه البخارى ومسلم والنسائى .

ذلك لأن الناس تتبع الشهوات وتميل إليها ميلا عظيما فتجترى في سبيلها على كل حق وتطغى النفوس « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ »^(٢) ولا تتبع سبيل الحق ولا يردعها العقل بل ينطفي نوره وتخبو جذوته ويحتاج إلى من يشعله من آن لآخر حتى يضى لصاحبه ، وقد يفسد حتى لا يعود إلى الضياء إلا إذا مسته قوة الكهر باء العلية . فهل يكفي العقل إثباتا على وجود الإنسان وكفره فيحمل عليه العقاب ، ويبوء بالشقاء الدائم في دار الخلود لأنه لم يعرف الحق من نفسه ، ولم يتعقل طريق الهدى ولو لم يأتها هاد يعاونه على سلوك الطريق المستقيم ويذكره بأيام الله ، وهل تقوم عليه الحجة بوضوح الحق لأن قوما عرفوا الحق من أنفسهم فاتبعوه ، وتبينوا الفضيلة والذيلة بإيثار ما ينبغي وفيه السعادة الأبدية ولو كان شاقا على النفس حارما لها من لذائذها العاجلة ؟ مع أن الإنسان لا تفرعه النذر تلو النذر إلا قليلا ممن يخاف عذاب الآخرة وأكثرهم لا يفيق من غفلته إلا حين يرى العذاب ، وهو في حالة الضعف والاحتياج خاضع متذل ، وفي حالة القوة

(١) ورد في تيسير الوصول ص ١٠٣ في كتاب ذم الدنيا وأما كن من الأرض .

(٢) آية ٦ ، ٧ العلق .

والاستغناء طاع متكبر « إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا » ^(١) كثير
الجدل والمغالطة يتلمس في تنكبه عن الطريق القويم أنفه المعاذير . يقول الحق سبحانه
وتعالى : « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى » ^(٢) وقالوا : « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ
الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ » ^(٣) ويقول عنهم أيضا : « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ
الْكِتَابُ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا
أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهْدًى
وَرَحْمَةً ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ » ^(٤) ويحذر الله الناس من هذه المعاذير بقوله :
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ
السَّائِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » ^(٥) هذه المعاذير وأمثالها لا يدحضها
إلا إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، فإذا أرسلوا قطعت جهرة قول كل خطيب ، وانتفت
حجة كل مكابر « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » ^(٦) والله أعدل
العادلين يقول : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » ^(٧) ويقول : « ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ
مُهِلِّكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ » ^(٨) ويقول : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا
مُنْذِرُونَ » ^(٩) ويقول : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

(١) آية ٢٠ ، ٢١ المعارج (٢) آية ١٣٤ طه (٣) آية ١٦٨ ، ١٦٩ الصافات

(٤) آية ١٥٦ ، ١٥٧ الأنعام (٥) آية ٥٥ ، ٥٨ الزمر (٦) آية ٤٢ الأنفال

(٧) آية ١٥ الإسراء (٨) آية ١٣١ الأنعام (٩) آية ٢٠٨ الشعراء

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» ^(١) ويقول: «لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ» ^(٢).

وانظر إلى الإنسان خلقه الله وجعله هو وذريته خلفاء في الأرض ووهبه من أسمى الملكات ما يرفعه إلى مرتبة الكرامة والشرف ، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» ^(٣) وخلقته في أحسن تقويم ووهبه من القوى الروحية ما يسمو به إلى أعلى عليين «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» ^(٤) ويقول الحق جل شأنه: «كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ . وَمَا أَزْكَاكَ مَاعِلِيَّوْنَ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» ^(٥) وسخر له كل شيء وآتاه من كل ما سأل وفي مقابل هذا حملة أمانة سامية ، وهي أن يؤمن به ولا يجحد الفضل فينسى أنه قائم بالنبابة عنه في إقامة العدل وعمارة الأرض والإصلاح فيها ، وأوصاه أن يتصف بصفات الكمال التي يتصف بها ليكون باراً رحماً مصلحاً ، ووعدته أجر هذه الأمانة دار رضوانه ، وعظيم إحسانه ، كما أوعده الذين يفرطون في هذا الشرف العظيم وهذه الأمانة النار يصلونها وبئس القرار . فهذا وأيم الحق شرف ليس فوقه شرف وأمانة تعلو قيم الأمانات ، وحملها والقيام بحرماتها من أشق المشقات ، ورعايتها والقيام بواجباتها ليس من الهنات الهيئات «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» ^(٦) فهل لا يحتاج الإنسان إلى مرشد ومعين للقيام بتكاليف هذه المهمة السامية والأمانة الغالية مع خطورة مسئوليتها ونبل غايتها ؟ إن الله أرحم بعباده من أن يتركهم يتخبطون في مراتع الشهوات التي اكتنفت طريق هذا الشرف وتكاد تورد الناس جميعاً موارد الهلكة ، فلا يرسل إليهم رسلاً من لدنه ، يزينون لهم الإيمان ، ويبينون لهم وجه الإحسان ، ويعلمونهم شريعة الحق ونظام المدنية الفاضلة ، وينذرونهم خطر التفريط في الأمانة

(١) آية ٣٦ النحل (٢) آية ١٦٥ النساء (٣) آية ٧٠ الاسراء
(٤) آية ٤ التين (٥) آية ١٨ - ٢١ المطففين (٦) آية ٧٢ ، ٧٣ الأحزاب

التي احتملوها عن جبار السموات والأرض ، فهل بعد ذلك يظن ظان أن الله يترك خلقه سدى بدون تربية ولا تعليم؟ وهل يكفي أن أفراداً من ذوى الفطر السليمة ، والطبع المعتدل ، والعقل الرشيد ، والتفكير المستقيم ، والحكم العادل ، والنفس الأبية النازعة إلى أسمى الفضائل القادرة على مغالبة الشهوات ، قاموا بالقسط وهُدُوا من تلقاء أنفسهم إلى الإيمان الصحيح والطريق المستقيم أن يكون دليلاً على أن غيرهم من الناس لا يحتاج إلى الهداية والإرشاد ، اعتماداً على أن لهم عقولاً تميز ، ووازعا من القدس الأعلى يقرع النفوس ويسكن في الضمائر ، وقد شهد العالم أن الأكثرية استهوتها الشهوات وتكاثرت عليها الشبه والأباطيل ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، خفت الضمير وقل إلهام العقول ، وتفرقت السبل وعز الحق في تيارات الضلال ، ولم يعد لشكاة العقل سراج يرد الجماع أو يهدي سواء السبيل ، فانظروا غاب في الظلام الدامس ، ولن نثر عليه إلا إذا طلعت شمس الحقيقة ، ولن يعود إليه النور حتى يجد من يشعله إن كان فيه بقية من قبول للإصلاح . والعقل أساس لقبول الهداية إلا أنه قد يكون صغيراً كالميزان الصغير الذي لا يزن إلا ما كان صغيراً ، فإن حملته أكبر من طاقته أخطأ الحكم ، والعقل ميزان يزن الأدلة لأنها بضاعته ، والنفس والهوى من عملائه فإذا طغوا في الوزن أو وضعوا ثقل التقليد في كفتيه اختل الميزان وتعطل عمله مهما كانت قابليته لوزن الأمر الخطير أو الصغير ، وخسر الإنسان في تجارته وقل ربح الفضيلة من أعماله فأخلد إلى السوء «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» ^(١) وثبت من أحوال الخلق أن العقل يدل على ناحية الخير وطريق النجاة ، ولكن الإنسان يتحول عن الخير إلى الشر ولا يسمع لحكم العقل . وكما تنسكت الأمم عن سلوك الطريق السوي وصمت آذانها عن دعوة الحق ونداء العقل واستغاثة أهل الصلاح . وثبت من دراسة أحوال الناس أن كثيراً منهم يشغلون عقولهم في بحث كثير مما لا فائدة لهم فيه ، لأنهم لم يحددوا لأنفسهم أهدافاً خاصة بل يكون ذلك منهم عبثاً وتضييع وقت ، ولا يكلفون أنفسهم بحث قضايا الإيمان والحكمة مع أن على بحثها يتوقف صلاح عقائدهم أو فسادها وسعادتهم أو شقتهم ، فهم محتاجون في كل وقت

إلى رسالة من منطق الحق يدعون لها وتقرع نفوسهم . ثم إن العقل الإنسانى إذا تحرر من كل ما يشينه من أسباب الهوى والتقليد يحتاج إلى صهر كالمعدن إذا صهر زال صدؤه واشتد ذكاؤه ، كما أنه لا يمكن من جلاء كثير من الأحكام فى كثير من القضايا التى تلمزمه إلا بعد جهد شديد وبحث عميق لا يصل إليه كافة الأفراد ، فإذا جاءت القضايا محضرة والدليل واضحاً جلياً مبسطاً هضمه العقل الصغير والكبير وأمكنه الحكم فى القضايا حكماً حقيقياً ، فهو فى أشد الاحتياج لأرقى نوعه كى يهديه ويرشده للحكم الصحيح من أقرب طريق حتى لا تتفرق به السبل ، بل يهتدى للسبيل الأقوم قبل ضياع الفرص ، من هذا نتأكد أن العقل محتاج إلى أدلة غيره بحكم التعاون فى إصدار أحكامه ، وقد يزهى فى العمل ويتبلد عن أداء رسالته فلا تصدر أحكامه إلا عن التقليد المطلق بدون بحث للقضايا التى تعرض عليه فينحط عن مرتبة نوعه ويكون أضل من الأنعام إذا انغمس فى الشهوات مع أن الله يمد الخلق إمداداً لا ينقطع فى أحوالهم الشخصية وأحوالهم العامة بالقضايا التى تحتاج إلى الأحكام ليزكيهم ويأجرهم على جهادهم ، ولم يصل العقل البشرى إلى النهاية من السمو على كثرة ما حبتة القرائح من عصارات الفهوم وما أنتجه الفكر من مكنونات العلوم ، ولم ينزل دائماً ولما يصل إلى أغوارها البعيدة « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (١) . ويختلف الناس فى الأحكام تبعاً لاختلاف الأدلة واختلاف البيئات وترقى الفهم وظهور الأدلة لقوم دون آخرين ، أو قيام دليل جديد يضعف دليلاً كان موضع الاحترام ، ألا يكون من رحمة الله على خلقه أن يرسل لهم رسلاً من لدنه يبينون لهم سبل الهدى ويشرعون لهم القانون الذى يسرون عليه ويكون فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة فى غير ضلال ولا هوى ويقربون لهم فهم ما استعصى عليهم فهمه فى أهم القضايا التى يتوقف على الحكم فيها والإيمان بها سعادتهم فى الدنيا والآخرة ؛ والخلق محتاجون لقانون التعبد الذى يسمو بالروح إلى أوج الصفاء واستجلاء أنوار القدس ، وهو قانون لا يعلل بالأسباب ولا يمكن لمخلوق أن يخترعه اختراعاً لأنه خاص برب الملك والمملكوت ولا يصدر إلا بتبايع منه ليكون فى اتباعه رضاه ، وقانون التعبد مهما بولغ

فى استجلائه بأن يقال إنه تعويد للنظام والخضوع للأحكام فهو غير مسبب بسبب ولا معلول بعلّة ، لأن العبادة لاتعود على الله بشيء «وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ»^(١) والله غنى عن جميع أعمال العباد وأحوالهم ، كما أن الأعمال التعبدية ليست فى أشكالها أشياء تفيد الإنسان إلا أنها فى جوهرها صلة بين العبد وربّه وحبل الوصل ، فهى من العبد خضوع والتجاء إلى الله بالكيفية التى أمرهم باحترامها وآدابها ، ومن الله انعطاف على العبد بالرحمة والود وإفاضة النور .

هذا والناس بحكم الموت والحياة يتطلعون إلى معرفة شيء عن العالم الآخر ومحتاجون إلى من يرغبهم فيه بالعمل الصالح ويخوفهم أيام الله حتى يتقوها ، وهم بحكم الغريزة الفطرية يتشوفون من يأسون فيه معرفة الغيب ويطمئنون إلى صدقه تعزية لهم عن ترك هذا العالم الفانى فينتظرون ما أعد لهم فى عالم الآخرة من جزيل الأجر والثواب بثبات وصبر على التكليف «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا»^(١) والناس فوق ذلك كله محتاجون فى كل أمورهم إلى قوة عظمى تردهم إلى شريعة الحق وحماية العدل ، فإنهم إن خافوا سلطان البطش الإنسانى فى ظاهر أحوالهم فإنهم لا يخافونه فى باطن معاملاتهم ، مع أن حقيقة الطاعة فى باطن النفس ومنها يصدر الإخلاص والتفانى فى الواجب وإيثار الآخرة على العاجلة ، ولا يهرب إنسان من قلبه أحدا يلزمه طاعته إلا الله سبحانه وتعالى أو من استمد الحق والقوة منه لقوة سطوته وعظمته جبروته ؛ ولأنه سبحانه وتعالى لا يضيع ثواب عمل عامل من ذكر أو أنثى ، وأهم ما يُعنى به أهل الإرشاد هو إيصال هذا الخوف إلى القلوب . ولا يخضع الإنسان لقانون خضوعا قلبيا إلا إذا اقتنع أنه الحق الذى لامرية فيه وأنه صادر من العدالة الإلهية التى تعوض الإنسان عما يلحقه من حيف إن عاجلا أو آجلا فيسلم له تسليما . ولن يصل للبشر قانون سهل المأخذ فى أوامره ونواهيه بعيد عن ضلال الفكر ونزعات الهوى والنفس مصدره الحق سبحانه وتعالى نفسه إلا بواسطة الرسل الذين اصطفاهم لشرف الرسالة وهذه المهمة ، من أصفى عباده سريرة وأكملهم خلقا وأعدلهم

حكماً وأطيبهم نفساً وأزكاهم روحاً ، وأولئك هم الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى في صدر الأمر الذي قضاه بإبراز هذا الوجود ليكونوا مبلغى رسالاته خلقة ومقيمى أمر دينه مرشدين هادين لعباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته قال الله سبحانه وتعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (١) . ولا يمكن أن يكون لهم الشأن العظيم في أعين الناس ما بين مصدقين ومكذبين إلا إذا أيدهم الله بالآيات البينات والمعجزات الباهرات تمييزاً لهم عن غيرهم من المجتهدين ، أو الأدعياء الذين يتطاولون على شرف الرسالة بغير سلطان أتاهاهم حتى يطمئن الناس على أن ما جاءوا به هو الصدق من عند ربهم فيذعنون ، فإذا أيدهم الله بآياته وجب الإيمان بهم والأخذ عنهم .

ولما كان شرف الرسول من شرف مرسله كان لمقام الرسالة خطره ، فهو ليس كأحد من الناس بل هو رسول من قبل رب العالمين ، من لم يؤمن به فقد كفر وجحد من أرسله ، ومن كذب بما جاء به بلائينة من ربه فقد افتري على الله ، ومن لم يعظمه ويعززه ويوقره من قلبه ولسانه فقد استهان بمقام خطير ، المساس به احتكاك بسلطان الله القوى الذي لا يغلب ، وسفه نفسه « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » (٢) .

عناية الله بخلقه ومنابع الهدى

لقد كانت عناية الله بالإنسان عظيمة من بدء خلقه ، قال الله سبحانه وتعالى : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَيِّينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » (٣) فأى شرف يعدل هذا الشرف إذ نسب الله النفخ في الإنسان

حتى استوى وصارت له روح مميزة إلى نفسه بأمره وقدرته ، وأودعه نور العقل قبل أن يلحقه التكليف ويهبط لهارة الدنيا « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » ^(١) فبهذا التقويم الحسن أرسل الله الإنسان إلى عالم التكليف وجعله خليفة له في الأرض ليعبدته ثم يقيم فيها مدينة فاضلة ، فإن تشق الحق وعاش للحق إلى أن يعود للحق سبحانه وتعالى عاد معافى من دنس المادة وإلا ارتد إلى أسفل سافلين وتبدل تقويمه الحسن إلى سواد وطن ، ومن الله على الإنسان بأن سخر له ما في السموات والأرض عناية به وتشريفا للسر الذي أودعه فيه ولأنه نفخ فيه من روحه « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ^(٢) وتكفل الله للخلق بالرزق فأمدهم بما في خزائن السموات والأرض من ثمرات ، ولولا رحمته بهم وتكريمه لصورتهم المعنوية أن يصيبها الخمول ولا يكون للإنسان فضل فيما يرزق ما كلفه بالسعى إليه حتى يأتيه رزقه المقسوم « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » ^(٣) .

وتعهد الله الإنسان بعنايته ورعايته من بدء خلقه في عالم الروح بهذا الشرف وهذه الكرامة إلى أوان ظهوره في الصورة الإنسانية ، ولم تكن عناية الله بالإنسان مقصورة عند هذا الحد بل جعله الله موضع رعايته وعنايته وتعهده من وقت نزوله في بطن أمه في جميع أطوار خلقه وفي جميع أسباب حياته « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سِوَاهُ مِنْكُمْ مِّنْ أَسَرِّ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ

(١) من آية ٤ - ٦ التين . (٢) آية ١٣ الجاثية . (٣) آية ٣٢ - ٣٤ إبراهيم .

مَعْقَبَاتٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ « (١) .

وأكرم الله الذين آمنوا بولاية أخص « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢) فكيف يظن إنسان بعد هذه الآيات البينات أنه خلق عبثاً أو أنه يسير بنفسه بلا مدبر دبر أمره . ورب يمدده بفيضه ويربيه خلقاً وجسداً وروحاً ، فإن أساء أدبه ، وإن كفر عذبه ، وإن آمن حفظه ، وإن أحسن وكان من الهداة المهديين أدخله في زمرة الصالحين ورفع درجته في درجات المقربين ، وأثنى عليه بما يليق به « أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنًى يَمْنَى . ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً خَلَقَ فَسَوَّى » (٣) .

فكيف بعد ذلك لا يستحي الإنسان من ربه ويظن به الظنون « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَاكَ رَبُّكَ أَنْ يَكُونَ الْكَرِيمُ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ . كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْخَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (٤) . « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ » (٥) فكل إنسان ميسر لما خلق له ، يظهر في الصورة التي يريد الله إبرازه في ثوبها ليؤدي رسالته على ما أراد الله لا يتخلف في نفس أو لفظ أو عمل ، فلا يتنفس نفساً واحداً إلا من فضله ولا يخطر بباله خاطر إلا يعلمه « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » (٦) ولا يرزق رزقاً من خيري الدنيا والآخرة إلا من فضله وبسط يديه .

(١) آية ٨ — ١١ الرعد (٢) آية ٢٥٧ البقرة (٣) آية ٣٦ — ٣٨ القیامة

(٤) آية ٦ — ١٤ الانفاطار (٥) آية ١٧ — ٢٠ عبس (٦) آية ١٦ ق

وقصارى القول أن كل عمل من أعمال الإنسان يستمد من فيض موجدته بالصورة التى صورّه بها وفى الزمن الذى يريده ، وفى القوم الذين يسعدهم أو يشتقيهم بلقائه « وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » (١) هذه عناية الله بالإنسان فى عموم نوعه من الأسود إلى الأبيض والعربى والعجمى ، لم يخلق فردا من أفراد بلا تدبير وقضاء سابق ولم يحرمه رزقه وفيض رحمته وإمداده وتدبير شأنه ، كلُّ على صورته سواء أكان من السعداء أم من الأشقياء . وأما عناية الله بخصوص الأفراد فلا تنتهى إلى حد . وقد خص من آمن منهم بتوفيقه وهدايته أولئك الذين أحبههم ويحبونه ورضى عنهم ورضوا عنه « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » (٢) فالنور الذى يسكبه الله فى أرواحهم وعقولهم وضمائرهم يتذوقون به حنانه ويهتدون به فى ظلمات الحياة ويحيون به حياة السعداء فى دار الدنيا ودار الآخرة فى طمأنينة وهدوء « أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (٣) واختار الله من بين هؤلاء المؤمنين قوما أحسن صورهم خلقاً وحُلُقاً ومعنى ، وأمدهم بفيض من أسمى فيضه ، وحجب ذواتهم عن الدنس بنور قدسى ملأ أركانها وفاض على الأرجاء ، واختارهم رسلا من لدنه لهداية خلقه وكان لهم نعم المولى ونعم النصير ، فكان مددهم أكبر ، وفيضهم أتم ، ونورهم أعم ، وكانت خيراظهم رحمة ، وأحاديث أنفاسهم ملكية ، وإلهاماتهم صدقا ، وأقوالهم حقا ، وكان سيرهم هدى ، وتشريعهم فى خير البشر ، وجهادهم خالصا لوجه ربهم ، تعبدوا ورقا وحباً ، فكانوا ملائكة فى أثواب بشر ، وكانوا كواكب نور ربانى حجبت فى جمال ظهورهم فى ذلك الرداء الإنسانى ، وكانوا سبب هداية كثير من الضالين وفتنة كثير من الكافرين ، فيا سعادتهم ويا هناءتهم ويا شرفهم بكرامة الله لهم وبره بهم ويا سعادة من تأسى بهم ونهج نهجهم وترسم خطاهم .

يقول الحق سبحانه وتعالى عن إبراهيم « وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » (٤) ويقول فى حقه وحق بنيه « وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » (٥) وخاطب

(١) آية ٦٤ مريم
(٢) آية ٩٦ مريم
(٣) آية ٨٢ الأنعام
(٤) آية ١٢٥ النساء
(٥) آية ٥٠ مريم

الحق جل شأنه موسى بقوله « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » ^(١) وقال على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام « وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا رَّابِعًا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » ^(٢) .

ويقول جل من أنعم عن يحيى عليه السلام « يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا » ^(٣) .

هذا مثال من كرم الله وشرف خطابه لمن اجتبه فكان تاجا على جبين الزمن ، وفضلا فوق كل فضل ، ونعما فوق كل نعيم ، وعطفا وإحسانا فوق كل عطف وإحسان ، ومنة تتضاءل دونها كل المنن « أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » ^(٤) .

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله يخلق ما يشاء ويختار ، فما بالك بصفوة المختارين حبيب رب العالمين ، وسيد المرسلين ، وخير المشرعين ، وأعلم البشر أجمعين ، وخير المعلمين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين ، وأصبر المجاهدين ، وأخلص المحتسبين ، وأعبد العابدين ، وأخشع الخاشعين ، وأحمد الشاكرين ، وأصفى المحبين المحبوبين ، وأطهر أهل القدس أجمعين ، المبعوث رحمة للعالمين ، صاحب النور الأول ، والسر الأول ، والفيض الأول ، والممدد الأعم ، الذي ظل مرموقا بالعناية الأزلية ، مغشى بنور الأبدية ، ملحوظا بجلال الصمدية ، إلى أن آن أوانه ، وتهيا العالم لظهوره وقبول علومه وأسراره ، صاغ الله ذاته الشريفة من حسن وجمال وجلال وكمال ، ولما استوت في كمال الصورة الإنسانية خاطبه الحق جل وعلا من قدسه الأعلى « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » ^(٥) فكان سراجا من الحق يغذى به مصابيح الأرواح ، مصدر

(٣) آية ١٢ ، ١٣ مريم

(٢) آية ٣١ — ٣٣ مريم

(٥) آية ٤٥ ، ٤٦ الأحزاب

(١) آية ٣٩ طه

(٤) آية ٥٨ مريم

فيضه نور من الحق يصل به روحه المتألثة في تواصل مستمر الزيادة ، هو سر روحه وحياته هو منبع إلهاماته الصادقة وأقواله الحكيمة « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ » ^(١) فكلامه العادى صادر من تلك الإلهامات النورانية من فيض الذات العلية ، وكلامه عن الحضرة الربانية مؤيد بالوحي الملئكى فى مكاشفة الروح وتمييزها الكامل الذى لا يقبل الشك والالتباس :

تبارك الله ما وحي بمكتسب ولا نبى على غيب بمتهم
فالنور الذى غمر الله به سيد المرسلين فى الظاهر والباطن وفى سر ذاته وفيض روحه ،
هو أعلى ما وهبه الله لمخلوق من خلقه بلا مكابرة مكابر :

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم
منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم
وهذا النور ليس هبة له وحده بل جعله الله هبة ثانية للعالمين لمن أراد أن يستقيم
ويدخل فى زمرة المؤمنين « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » ^(٢) تستزيد منه أرواح
المؤمنين نورا وهداية وقربا ورفعة ، وتحيا به أرواح بعد موتها أو خبؤ نورها من ظلمة
ما يقترفونه من المعاصى والسيئات فتعود إلى عالم القدس الطاهر ثانية سالمة بإذن الله ولا يحيق
بها الشقاء ، لذلك عبر الله عن هذا النور بأنه سراج منير ، ذلك لأنه وضاح كثير النور
تهتدى به النفوس الضالة وتراه الأرواح التى بقى فيها أثر من آثار نور العقل الذى أمدّها
الله به فى نشأتها الأولى ، أو تكون من تلك الأرواح التى كتب الله لها السعادة فعرضها
وساقها لهذا النور وهذا الفيض لترتوى من مناهله فتحيا به بعد موات كما تحيا الأرض الجذباء
بأمطار السماء وفيضان الماء ، ولا تنكره إلا الأرواح المظلمة التى باءت بغضب الحق وحققت
عليها كلمة العذاب ونزل بساحتها الشقاء ، فأنكرت النور أو رأته كما ترى عين
فاقد الضياء .

هذا النور هو نور خير المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وهو أعظم من أى نور خلقه
الله وأمد به قوما من عباده فى صفائه وقوته ومعناه ، هو للأرواح غذاء حياتها ومنبع سعادتها

وفيض معارفها ولباب حكمتها ونور عرفانها ؛ وإذا كانت الأجساد تحتاج لنور الشمس والقمر لتحيا به نعمة من نعم الله على الأبدان ، فالأرواح أحوج ما تكون لنور الذات الحمديّة لتطهر وتسعد به نعمة من نعم الله على أرواح أهل الإيمان ، يقول الحق سبحانه وتعالى « تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَرًّا مُنِيرًا »^(١) فالسراج هو الشمس بنورها الوهاج وحرارتها التي تفيد الأجسام والقمر المنير ، بنوره الصافي بين كواكب السماء ، فقابل هذا بقوله سبحانه وتعالى : « يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا »^(٢) . نجد أنه قابل سراج الشمس بسراج النور النبوي وفضل نور النبي عليه بصفاء النور وجلاله لأنه لا ينقطع ليلا ولا يضر نهارا ، فهذا النور سراج الأرواح في ظلمة الحياة ، أمدنا الله بنوره وأفاض علينا من فيضه وجعلنا في زمرة ومن والاه وأحبه وسار على هديه ، ومن سدد الله خطاهم وتفضل عليهم بأحسن ما يحبون آمين .

موارد الفكر الإنساني التي يصدر عنها في أعماله^(٣)

إن العالم ليتيه في بيداء علم الله الذي لا نهاية له فإن لم يركن إلى الله غاب في الظلمات ومن ينسکر ذلك فهو ظالم لنفسه جهول ، وقل لي بربك :

هل وصل العلماء في أبحاثهم إلى عمق النواميس الطبيعية ، وأبأنوا عن علماها بعد بحث الأجيال المتعاقبة ؟ اللهم لا ، إذ كلما كشف لهم البحث العلمي النظري عن قانون كان عليهم أن يبحثوا في علة هذا القانون بصرف النظر عن خطئه أو صوابه - ويتسلسل البحث حتى لا يجدوا علة أولى لسكل موجود إلا مفيض الوجود ، فيقفوا أمام قوته وواسع علمه وجليل قدرته حاسرين عاجزين .

(٢) آية ٤٥ ، ٤٦ الأحزاب .

(١) آية ٦١ الفرقان

(٣) نشرت بجريدة منبر الشرق الغراء .

وكل علم أو بحث لا يلد الاعتقاد بهذا العجز فهو الجهل بعينه ، وكل علم يوصل إلى الاعتقاد بالعجز عن بلوغ مدى القوة اللانهائية ، التي تفيض على كل موجود وجوده ، وتسير العالم يقرب من الحق سبحانه وتعالى وينير لصاحبه السبيل ويكشف له أسراراً عظمت ، لأنه بذلك يدعن لصاحب القوة ويعترف بالحق للذي يلهم البشر ويكشف لهم عن خفايا العلوم بقسطاس معلوم في أزمان مقدرة كلما اقتضت ذلك حكمته العلية تبعاً لتقدم العمران وترقى الإنسان على مدى العصور ، حتى يتهيأ الفكر البشرى لقبول ما هو أعظم مما لم يخطر ببال من سبق من الناس ، وقد تفاض بعض العلوم رحمة ونعمة لتفتح على الناس أبواب البركات من السماء والأرض عند ما تنفجر من قلوبهم ينابيع الإيمان ويشكرون الرحمن جل وعلا ، وقد تفتح عليهم غضبا ونقمة عند ما يعم العالم موجة من أمواج الكفر والإلحاد والبغى وقلة الحياء ، ومجاهرة جبار السموات والأرض بالمعاصي ليزيق بعضهم بأس بعض ، فيضلون ضلالا بعيدا وتقسو قلوبهم ويشدد كربهم لانتزاع الرحمة من قلوبهم ، فيجعلون من نور العلم نارا تحرق أجسامهم وأفئدتهم ، فإذا يئسوا من تراحمهم وجأروا إلى أرحم الراحمين بالتضرع والرجاء صرف عنهم هذا البلاء ، وإلا سلب عليهم أبوابا من العلم تزيدهم ألوانا من العذاب ، فالناس على حالين في العلوم ، وأهم علومهم علم الحكمة «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»^(١) وكل من لا يرفع حجاب الغفلة ويقنع بالظواهر لا يسبر عمق الحقيقة ولا يذوق طعم العلم ولا يتمتع بأسرار الحكمة من معين الفيض اللانهائى . وكل عالم لا يزال متعلما حتى يبلغ قبره «أُطْلِبِ الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى الْآخِرِ» وكل متعلم ظن أنه وصل إلى نهاية البحث فى شىء بذاته إلا قول لا إله إلا الله ، فقد خرج من دار العلم واستخف بمقامه ، وسكن دار الخراب والجهل وعميت بصيرته ووقف من ترقى الخلق فى الدرجة الدنيا ، «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»^(٢) . «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ»^(٣) وهاهى ذى شهادات علماء الغرب فيما وصلوا إليه من العلم :

(١) آية البقرة ٢٩٦ (٢) آية فاطر ٢٨ (٣) آية يوسف ٧٦ .

إسحق نيوتن (لسنا إلا كالأطفال في جزيرة على شاطئ بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من القواقع ، على حين أن الجواهر النفيسة في قعر البحر) .

شوبنهاور (كلما انحط الإنسان في القوة العقلية ، عمى عن نور الحق ، وجمد تفكيره ، وأصبح كل شيء في نظره يحمل تفسيراً لكيفية وجوده وسبب حدوثه) .

لوسيان بوانكاريه (إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تاماً ويجمع عليها المجربون إجماعاً عاماً ، بل يسود اليوم عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى) .
جوستاف لوبون (الوجود مغمم بالجهولات التي لا نراها والحجاب الذي يحجبها عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي) .

إدوارد لوروا (العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا بمظهر الثبوت ، فالعلم وحالته هذه لا يستطيع أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة وكل ما ينتظر منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل) .

وليم كروكس (إن عدم اعتمادى على رأس مالى العلمى قد بلغ حداً بعيداً جداً ، فقد يفتض هذا النسيج العنكبوتى للعلم كما عبر عنه بعض المؤلفين حتى لا يبقى منه إلا كرية حقيرة تكاد لا تدرك) .

هنرى بوانكاريه (إذا نظرنا فى ناموس خاص أيا كان فإننا نستطيع أن نتأكد من أنه لا يمكن إلا أن يكون تقريبياً) .

لوجيل (كلما أمعن الإنسان فى دراسة العلوم من ناحيتها المعنوية ازداد اعتقاداً بأن ليس فى العلم ما يمنع اتفاهه وأبعد الفلسفات مرمى . نحن لا نعلم إلا الظواهر والقشور أما الحقيقة والعلة فتأبى أن تتكشفاً لنا) .

بيو الفرنسى (إننا لا نشاهد إلا ما يظهر لنا من العلم فى الخارج وقد حجب عنا ما هو أعجب وأغرب ، لعمر كى قل لى من ذا الذى استطاع أن يفهم سرّ طيران الذبابة وسرّ الأعيب الفراش ؟ نعم شيئاً عن تركيبها الجسمانى وقابليته ، ولكننا عاجزون عن رؤية الحكمة التى أمرت بها ونظمها ، إني أمام مشهد الوجود العظيم أعتبر نفسى جاهلاً) .

كاميل فلاهر يون (ما هو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقلية فى إنتاج نتيجة مادية ؟ كيف يوصل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل ؟ كيف يدرك هذا العقل ؟ أين مستقره ؟ ما هى طبيعة العمل الخفى ؟ لن تستطيع أكبر رأس أن تجيب على أحقر أسئلتى) .

وأخيرا وصلوا إلى تفتيت الذرة ولكنهم مع ذلك لم يصلوا إلى شىء قال تعالى « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » (١) .

وهذا يدلنا على أن الإنسان مهما دأب على تعلم العلم فإنه يعجز عن إدراك كنهه خالق الوجود وعن إدراك كنهه أفعاله ، وعن إدراك كنهه كل ما خلق حتى إدراك كنهه نفسه ، وليس له من وجوده إلا إدراك ظواهر الأشياء وظواهر الأفعال ، وجميع الذين لا يسمون بذلك « يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » (٢) . فرد كل شىء إلى الله الذى خلق السموات والأرض ويدرك كنهه كل شىء خلقه ، ولا يدرك ذلك غيره ، لأنك إذا أردت أن تفعل مثل فعل غيرك لا بد أن تكون مساويا له فى الذات والصفات فتدرك كنهه ما يفعل ، ولا بد أن تكون موجودا وقت الفعل ولا يوجد مساو لله سبحانه وتعالى فى الذات ولا فى الصفات ، ومن المستحيل أن يكون مخلوق موجودا قبل خلقه وإعيا ما يفعل به « مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » (٣) .

فلا سبيل لإنكار عجزنا عن إدراك الكنه وسيرنا إلى علم لا نهاية له . وما دام الوجود غير قائم بنفسه فهو محتاج إلى من يقوم به وهو موجد فى أى لحظة من الزمن ، ومن هذا نعلم أن دورة الوجود من بدئها إلى النهاية أو اللانهاية بيد الخى القيوم إقرأ قوله سبحانه وتعالى « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ

(١) آية ٣ ، ٤ الملك . (٢) آية ٧ الروم (٣) آية ٥١ الكهف .

- لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» (١).

نعم هو الله الذي لو انقطع مدده وفيضه عن أى موجود لاختل نظام وجوده ، بل لزال أثره وأصبح عدما محضا وتلاشى إدراك كل مميز حتى لا تبقى مادة ولا روح .

وهذا الفيض السارى فى عناصر المادة ولطائف الأرواح ، يهب لكل مخلوق وجوده هبة استمرار ماشاء الله وجوده ، ويفيض فيضه فى كل مخلوق بما يلائمه وفى كل حى بما يناسب مرتبته ، ويلهم كل موجود وظيفته فى الوجود « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » (٢) .

وهذا الفيض له مظاهر متعددة فى الإنشاء والتكوين وفى جميع عناصر المادة وتحولاتها وانسجام نظمها ومظاهرها وفائدتها لما خلقت له ، وفى الإلهام والفكر وفى الأفعال بل وفى جميع أحوال الروح وما يترتب عليها .

ومن هذا نرى جميع الحشرات والحيوانات من الطفيليات ذات الخلية الواحدة إلى أرقى أنواعها تحيا بقدرة موجدتها وتؤدى وظيفتها وتعاونها بين أفراد نوعها بالإلهام ، وتعمل كل ما فيه استمرار حياتها وتدفع كل ما يقطع عليها حياتها إلى آجالها المحدودة بالإلهام . ولا يمكن أن يكون الإنسان قائما بنفسه وسط هذا الكون الحادث الشامل لكل ما هو حادث ، فهو مخلوق خالق الأكوان مربوط بسلاسل القدرة الخفية والظاهرة فى دائرة الأكوان المتحركة بسر موجدتها ولو أن الإنسان يشعر فى بعض أفعاله بالاختيار ، إلا أنه يذوق الاختيار ذوقا وليس فى قدرته أن يمد حقيقته بامداد من عنده وفيض من وجوده ، لأنه مغمور بالمدد والفيض من موجد له من حقيقة نفسه ، ولأن وجوده مندرج بسر الأمر من الإرادة العلية . وكل ههنا فى هذا البحث هو دراسة مظاهر هذا الفيض فى أعمال الإنسان وأخلاقه ومدى أثره فى تطور النفس البشرية ، وهذا يلزمنا البحث فى أحوال الروح المدبرة للجسد ، لنرى من أى مصدر يصدر الإنسان فى عمله وهو ما ستطالع فى الأبواب الآتية إن شاء الله بقدر الإمكان .

الروح^(١)

هى ذلك الجوهر النورى الصادر من عالم الغيب، عالم الأمر الذى لا يدرك كنهه، أَلَا لَهُ الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، أو هى قبضة الفيض السامى من جواهر العالم العلوى اللطيفة . هبة من الله لكل مخلوق مميز قُدِّرَ له أن يعيش فى عالم الشهادة وحلقة الاتصال بينهما ، أو هى القوة القابلة لافتعال المعانى والأفعال فى عالم المادة .

هى السر الخفى فى نفس الإنسان الذى غاب عنه وحير أبواب العالمين ، هى التى تدع الإنسان فى غصة وعجب لعجزه عن إدراك كنه نفسه ، ومصدر أفعاله ؛ فالناس يعلمون علم اليقين أن لهم أرواحا ، ولكنهم عاجزون عن تحديد مكان وجودها فى أعماق أنفسهم كأنها من عالم الوهم الذى لا يتطاول إليه التصور . فما أخزى بنى الإنسان حين يتطاولون إلى مقام خالقهم ، ويجهدون أنفسهم بذواتهم التى جهلوا أن يصوروا فى أذهانهم القاصرة كيفية تدبير الله خلقه وقيامه بأمرهم وحكمته فى أفعاله ، كما يتطاول البرغوث إلى فهم أسرار السماء ومحاكاة الملائكة ، مع أنه مثل مع الفارق . فالبرغوث مساو للملك فى أنهما مخلوقان ، وما أسفههم حين يحاولون استقراء الغيب بظاهر حواسهم . لذلك لانبث فى كنه الروح ولكن نبث فى كيفية اتصالها بالجسد وأحوالها وأفعالها . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »^(٢) . وتتلخص أقوال العلماء فيها على هذا النحو :

يرى أرسطو والغزالي والإمام نجر الدين الرازى والراغب الأصفهاني وغيرهم : أنها جوهر متجرد عن المادة ، واتصالها بالمادة اتصال تدبير وتصرف لا اتصال حلول واتحاد .

ويرى سقراط : أنها جسم حال فى هذا الهيكل حلول الدهن فى السمس وماء الورد . ويرى أفلاطون : أنها حياة غير قابلة للفناء محصورة فى سجن فإن هو الجسد . والرأى الأول نشأ من أن أصحابه اعتبروا الروح كاملة النشأة وتصوروا أن لها قوة مطلقة ،

(١) نشر هذا البحث تباعا بمجريدة منبر الشرق الغراء ابتداء من العدد ٣٦١ بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٣٦٤ هـ و ٢٢ يونيو سنة ١٩٤٥ . (٢) آية ٨٥ الإسراء .

وعلى هذا الأساس الذى اعتبروه وكونوه بالظن لم يدر بخلدكم أنها وهى بهذه القوة وعلى هذه الصورة تسكن الجسد أو تحل به وتتقيد فى قيود عجزه .

وأصحاب رأى الثانى ذهبوا إلى واقع المحسوس من أنهم يشعرون أن الروح حالة فى الجسد متحدة به متقيدة بأغلاله ، وأنهم يرون من حضره الموت تنتزع روحه من جسده انتزاعا وهى غير راضية عن مفارقتها ، وتنتزع من كل عضو انتزاعا قويا حتى تبلغ الحلقوم . فتسيل الروح الحيوانية من الفم وتذهب الروح الأخرى إلى بارئها وملأها التى وردت منه . وهم هنا أقرب إلى الحقيقة من أصحاب رأى الأول وأقرب إلى قوله سبحانه وتعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١) .

وإذا كانت الروح متجردة عن الجسد تجردا كلياً لكان خروجها من الجسد أهون عليها مما يرى ، ولذهبت إلى عالمها فى أى وقت شاءت ولم تبلغ آجالها المحدودة ، وكانت الأجسام سخرية والتكليف مرفوعا ، ولما احتاج الذى ضاقت عليه الدنيا بما رحبت وقنط من رحمة الله إلى الانتحار ، ولكن أصحاب هذا رأى أرادوا تصويرها وهى حالة فى الجسد فجعلوها أشبه بجوهر مادى حل بالجسد حلول الدهن فى السمسّم وماء الورد ، فإن كان تشبيها مع الفارق فقد صح ، وإن كان اتحاد حلول كاتحاد واختلاط المواد فهو بعيد عن الصواب .

وأما أصحاب رأى الثالث فإنهم توسطوا بين الطرفين وجعلوا الروح سجيّنة فى الجسد حتى يكونوا مع رأى الأول فى أنها متجردة مطلقة ، وليوافقوا أصحاب رأى الثانى الذين لا يتعدون ماهو محسوس ولكنهم لما عجزوا عن تحديد مكان وجودها وإدراك كيفية اتحادها به وقفوا عند حد أنها سجيّنة بلا بيان للسكيّفية .

وذهب جماعة آخرون من منكبرى البعث إلى أنها تفاعل حرارة الدم فى الجسد وما ينتجه من إحساسات فى الدماغ إما صادرة من الداخل أو محرّكة بإحساس من الخارج .

وهؤلاء لا يقدرّون على تعليل ما في النفس البشرية من قوة التمييز والإدراك ، ولا تمييز لهم ولا إدراك . وهم أخرى بالاحتقار والازدراء لأنهم يحقرون خلق الله ويريدون أن يضعوا مرتبة الإنسان في مرتبة أحط الحيوان ، فهم أحق بهذه المرتبة لحكمهم على أنفسهم بها . والذي استقرّاته وأميل إليه من أمر الروح بعد أن قرأت أقوال بعض المتقدمين وأقوال بعض المتأخرين أيّنه فيما يأتي غير متقيد بنقل بذاته أو بالاصطلاحات التي تعارفوا عليها أو بترتيب خاص فيما أقوله تاركاً لنفسى حرية البحث والاستطراد ، مجرداً قولى عن التنميق لأظهر صورة مما يجول في نفسى وغاية معرفتى صريحة واضحة للقارىء ، خصوصاً فإن معظم ما أقول راجع إلى تدبرى لأحوال نفسى وما ألهمنى الله أو أكرمنى برؤياه قبل أن أقرأ لغيرى . فأقول مستعيناً بالله :

إن الروح لها في الخلق نشأة بعد نشأة^(١) وتتطور من طور إلى طور ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا »^(٢) فأما خلقها الأول فهو من عالم الأمر الذى لا يخضع لأسباب المادة والعلّة من أسرار البقاء^(٣) .

وقد شرف الله خلق الروح بأن نسبته إلى ذاته سبحانه وتعالى : قال جل شأنه وهو يصف خلق الإنسان بعد أن استوى في كمال الصورة الحسية والمعنوية الروحية والجسدية . « ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »^(٤)

(١) أجمع أهل السنة على أن الروح محدثة مخلوقة ، ولم يخالف في ذلك إلا الزنادقة ؛ ومن نقل الاجماع على حدوئها محمد بن نصر المروزي وابن قتيبة ؛ ومن الأدلة على ذلك حديث « الأرواح جنود مجنّدة » والمجنّدة لا تكون إلا مخلوقة (شرح الصدور للجلال السيوطي رضى الله عنه) .

(٢) آية ١٤ نوح .

(٣) قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود وعلى هذا ابن عباس وأكثر السلف .

(٤) آية ٦ - ٩ السجدة .

والروح المنفوخة سرٌّ من أسرار الله لا يدرك كنهها إلا الله « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ^(١) فكيف خلقت؟ ومتى خلقت؟ سرٌّ لا يعلمه إلا الله، « مَا أَشْهَدَتْهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَخَذَ الْمُضِلِّينَ عِزًّا » ^(٢) .

وأما خلقها الثانى خلق التسوية، فقد خلقها الله من جسم ^(٣) نورانى شفاف يتمثل على صورة الجسد قبل أن يكون، ثم أودع السر الإلهي (الروح) وباجتماع الروح بهيكلها النورانى تكون نفساً ^(٤)، وقد ورد عن الإمام مالك رضى الله عنه أن الروح على صورة الجسد كما قال اللقاني فى جوهرته :

لمالك هى صورة كالجسد فحسبك النص بهذا السند

(١) آية ٨٥ الاسراء . (٢) آية ٥١ الكهف .
(٣) أكثر المسلمين على أن الروح جسم وهو الذى دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لوصفها فى الآيات والأحاديث بالتوفى والقبض والإمساك والارسال والتناول والإخراج والخروج والتعظيم والتعذيب والرجوع والدخول والرضا والانتقال والتردد فى البرزخ، وأنها تأكل وتشرب وتسرح وتأوى وتعلق وتنطق وتعرف وتسكر إلى غير ذلك مما هو من صفات الأجسام . والعرض لا يتصف بهذه الصفات أيضاً، فلاشك تعرف نفسها وخالقها وتدرک المعقولات، وهذه علوم، والعلوم أعراض؛ فلو كانت عرضاً والعلم قائم به لزم قيام العرض بالعرض وهو فاسد . وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : وكون الروح من الأجسام اللطيفة فى الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة . انتهى ما لحصه الإمام جلال الدين السيوطى من أقوال الأئمة . هذا، وقد كنت أزور مقاما عظيما وجلست إلى قبره أتلو القرآن والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قتل للسلام فزال من أمام بصري جميع ما كنت أرى من معالم الأمانة ورأت عيناى حقائق نورانية وأنا فى يقظة كاملة فى مكان مضى ثم تراءت لى الروح على هيئتها كاملة الأعضاء جسدا من نور على هيئة الأجساد الانسانية ولكنها بهرتنى فأخذنى الحياء ثم تشجعت ونظرتها ثانية فإذا هى الروح أمامى ولم أستطع زيادة النظر من شدة الرهبة والخشية والحياء . ومن هنا جازمت ببقائها بعد الجسد وبأنها هيكل نورانى ولم أكن قرأت هذا ولم أكن لأصدق، فالحمد لله أثمتنا على هدى ونور، وعلماء الاسلام أصدق العلماء على مدى العصور .

(٤) قال الإمام الجلال السيوطى تلخيصا عن ابن القيم وأئمة العلماء : الصحيح أن الروح والنفس شئ واحد، قال الله تعالى (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكِ) وقوله (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) ويقال : فاضت نفسه أى ماتت وخرجت؛ وقال بعض أهل السنة : إن الروح التى تقبض غير النفس، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) قال فى جوف الانسان نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فيتوفى الله النفس فى منامها ويدع الروح فى جوفه تتقلب وتعيش، فإن أراد الله أن يقبضه =

ويقول الله سبحانه وتعالى عن هذا الطور من الخلق « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » ^(١) والنشأة الثالثة باتحادها مع الجسد عند ما ينزل بها الملك حوالى الشهر الرابع من الحمل فيودعها جسد الجنين وهو فى بطن أمه .

والنشأة الرابعة عند مباشرتها للجسد وتديره ويكمل بها طور الإنسان المخاطب بقول الله سبحانه وتعالى : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » ^(٢) وقد تعارف العلماء على تسميتها فى هذا الطور بالنفس الناطقة ، والنفس الناطقة الكاملة النشأة تسكن القلب وتشتع منه فى جميع الأعضاء ومجرها الإرادى وموضع تديرها بين القلب والصدر والفؤاد ، ولا بد لمن يريد أن يلاحظها ويتحسسها أن يراقب من نفسه كيف يبدأ الخاطر والتفكير ؟ وكيف يعتمل الحديث النفسانى ؟ وكيف تبدأ إرادته فى التنفيذ ؟ وكيف يبدأ فى النطق ؟ ولتقريب ذلك نريد أن نذكر اسمه تعالى « الله » فانظر إلى القلب والفؤاد وكيف يبدأ الأمر بالذكر ؟ ثم اذكر الاسم فى أخفى الخفاء كالكلام النفسى ثم كرر ذلك جملة مرات وأنت تراقب بدء جريان الاسم ثم أعلنه لنفسك مع النفس شهيقةً وزفيراً ثم أجره بعد ذلك يسيراً يسيراً حتى تنطق به فإنك بعد ذلك تدرك بدء الإرادة من قلب الروح ، ثم تستشعر رويداً رويداً مركز النفس الناطقة المدبرة المريدة التى إن خرجت مات الجسد .

== قبض الروح فأت ، وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه . وقال مقاتل : للانسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كخيل ممتدله شعاع فىرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد فهما يتقلب ويتنفس فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين ، فإذا أراد الله أن يميتة فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت ، وقال أيضاً : إذا خرجت نفسه فصعدت فإذا رأت الرؤيا رجعت وأخبرت الروح وتخبر الروح القلب فيصبح ويعلم أنه قد رأى كيت وكيت انتهى . أما الحقيقة فكلا القولين بأنهما نفس واحدة أو أنها نفس وروح فهذا شئ واحد لأنها كانت روحاً ثم اندمجت بالجسد الروحانى فصارت نفساً واحدة كما صارت بعد اتحادها بالجسد إنساناً واحداً ، والروح لها معالم كبرى لزيادة قوتها ونورها ، والملائكة من عالم الأمر ولها روح وأجساد نورانية تتماثل وتكبر وتزيد (يزيد فى الخلق ما يشاء) وعند النفخة تقبض الملائكة فيخرج الروح وتموت أجسادها النورانية المزادة ، وفى البعث تخرج إلى حالة أسمى وأقوى من الأولى ، والجن والشياطين كذلك لاجن أجسام من نار والشياطين من هذا الأصل ، سبحانه الله العظيم خالق كل شئ وهو بكل شئ عليم .

ولنتكلم عن النفس المسواة التي خلقها الله على صورة من نور تماثل صورة الجسد ، وفطرها فطرة سليمة يوم سواها فألهمها فجورها وتقواها . فبالإلهام تحكم على ما هو قبيح بالقبح وكل ما هو حسن بالحسن ، فتميز بين الفجور والتقوى بإحساس ذوقى صادر عن تكوينها فتحس بانقباض عند نية السوء يحيك في الصدر ولا يمكنها دفعه ، حتى إذا ما وقع اشتد الانقباض وبدأت تلوم نفسها ؛ وتشعر بارتياح وانسراح عند ماتنوى فعل الخير ، فإذا أتمته كانت أشد ارتياحا وانسراحا ، وهذا كله بالإلهام الإلهي ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْبِرُّ مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَخِفْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » .

هذا الشعور بالخير والشر الذي يصدر من انسراح النفس وانقباضها بطريق الإلهام والذوق هو الأساس الأول من أسس التمييز في الإنسان وهو ما يسمونه بالضمير ، وأنا أسميه الحر الخلام أو ضمير المعرفة الأولى الوهية قبل أن ترد على الإنسان المعارف الكسبية . يقول سقراط : إن الرجل الذي يمكن أن يحيا سعيدا هو الذي لا يعمل ما يستوجب تأنيب الضمير . ويقول باسكال : إن الضمير هو أصدق وأجل كتاب نملكه فيجب أن نسترشد بصفحاته ونستعين بجملة وكلماته كلما حزبتنا مهمة من مهمات الحياة . ويقول فيسيو : اذهب حيث شئت فإنك تجد ضميرك أمامك ، إن كل القضاة معرضون للخطأ ما عدا قاضي القلب فإنه معصوم - ليس حكم غيرك هو الذي يخشى وإنما هو حكم الوجدان . ويقول جون سيمون : لا توجد سلطة أخرى تصدر أوامرها بحرية غير سلطة الضمير .

فهؤلاء جميعا وأمثالهم يؤكدون أن حكم الضمير حكم فوق تكليف أهواء الشخص نفسه . ولا يخالف الإنسان هذا الحكم إلا ظلاما وعدوانا ، ذلك لأن سلطان الضمير من سلطان الحق الذي أودعه سريرة الروح لتمييزه بين الخير والشر بالذوق المعنوي ، فهو صادر من الحق سبحانه وتعالى ؛ لذلك يقول كانت الألمانية : إن الضمير هو شعاع نوراني هبط من لدن القوة العليا المطلقة غير المحدودة إلى القوة المقيدة المحدودة ؛ فهو هاديها إلى الصراط القويم ، وقائدها

فى الطرىق المعتدل ، ومبدد ظلمات الحىاة التى تضل فىها لو حادث عن نصحه وإرشاده قىد أنملة . وىقول جان جاك روسو : إن الضمىر هو قوة نورانىة سكبها الخالق جل جلاله فى وسط ظلمة هذا الجسد الكثىف الضال فأحالت ظلامه نورا وبذلت ضلاله هدى .

فهولاء وأمثالهم أىضا اعترفوا بالحق وعرفوا مصدر هذا النور الذى ىمىز به الإنسان بىن الخىر والشر . وأما غىرهم فقد قالوا : إن الضمىر هو حاسة ىمىز بها الإنسان بىن الخىر والشر كحاسة السمع واللمس . فإن كانت حاسة قائمة بالروح ىكون الخلاف فى التعبير ، ولكن بعضهم ىقصد أنها حاسة كباقى حواس الجسد . وهذا ىخالف الحقىقة لأن المعانى لا تقوم إلا بالروح ، والضمىر معنوى فى وجوده وأحكامه ؛ كما أن باقى الحواس لا قىمة لها إلا إذا مىزتها الروح ، فالحواس لا تقوم بنفسها ، فإذا رأى البصر مثلاً صورة من الصور وانطبعت الصورة فى المخ ولم ىقم معناها بالذات لا تكون إلا صورة جماد انطبعت فى جماد ، كالجسد المىت إذا فارقتة الروح تتعطل حواسه . وحقىقة الضمىر أنه نور إلهى أودع سرىرة الروح من يوم التسوىة وىزىده الله إمداداً بالنور كلما جاهد الإنسان نفسه فى ترك اللذات غىر المباحة وابتعد عن الشر إلى الخىر .

استطراء : وبعض علماء الأخلاق ىنكرون أن الضمىر وازع ىصل إلى الإنسان بمجل من نور الله وأنه ىقوم بالروح ، وىقولون إنه لاصلة له بالله ، وحجتهم أن الإنسان ىتألم من الشرخوف اطلاع الناس علیه ، ولو آمن أن تنزل به العقوبة واطمأن ما لام نفسه قط ، والواقع ىخالف ذلك لأننا نرى كثرىا من المجرمىن ىعملون جرائم فى الخفاء وهم آمنون من اطلاع الناس علیها ولكنهم ىفزعون منها فى أحلامهم وىلازمهم الفزع فى صحوهم حتى ىدلوا على أنفسهم ؛ ولهذا ضرب المثل (ىكاد المرىب ىقول خذونى) ولن ىكون هذا الدافع للخوف من المرء نفسه بل من تخوف الله المنصب على روح الإنسان والملقى فى روعه ولو كان لا ىبصره ولا ىدرکه .

وأذكر قصة مجرم سمعتها : عرف رجل في قرية بالفقر والإعسار ، وعلى حين غفلة من الزمان صار من أثرياء القرية بل أثرى الناس فيها ، ثم أراد أن يتزوج فنزح إلى مدينة واختار أشرف رجل فيها وتقدم لمصاهرته فسارع إلى القبول ورحب به ، ولكن بنته لم تشعر براحة صدر فاحتجت لوالدها بأصله ، ولكنه رغبها في ماله و«أصل الفتى ما قد حصل» ، وزفت إليه وعاشت شهورا منقبضة النفس دون أن تعرف لانتقاضها سببا ، فهي تسكن قصرا وتطعم وتكسى في رفاة من العيش . وفي يوم من أيام الصيف كان زوجها ينظر للنهر من نافذة وكانت هي على مقربة منه ولكنها لم تشعره بوجودها ، فهب نسيم عليل فحدث الزوج نفسه بصوت عال آه آه لقد كان فلان يظن ظن البلهاء أن الهواء يبلغ رجال الأمن ما فعلت به ويقول لا تقتلني فإن الهواء يباغ رجال الأمن فيقتلوك فنكون قتيلى مال لعنه الله ، انتظر الدار الآخرة أو خذ مالى ودعنى ، ثم يقول لنفسه لو طوعته أو خفت من هرائه ما تمتعت بهذا النعيم وما تزوجت من هذا البيت العظيم زوجتى هذه الحسناء . ومن هذا علمت زوجته بالحادث فخافت من معاشرته وخرجت لبيت والدها تفزع إليه هربا من هذا الجرم السفاك ثم بلغت والدها عنه فظهرت الجريمة وسيق إلى الجزاء العادل . .

وقد استدل غيرهم على أن الضمير من أهواء الشخص نفسه ، وليس له صلة بالله ، وحجتهم أن الضمير هو عماد الوازع الخلقى فلو كان من عند الله أو له صلة بالله لاتفق الناس على قانون الأخلاق ، كما أن الأخلاق الدينية التى اتفقت عليها الكتب المقدسة أنها من عند الله لا يلهمها الإنسان بدون تعلم ، ولو كان للضمير شعاع من نور الله لتواضع العالم الإنسانى كله بلا تعلم على قانون الأخلاق كما جاءت به الشرائع وما اختلف الناس فى فهم الأخلاق ، يقوم يرون عملا من الأعمال فضيلة ، وغيرهم يراه رذيلة ؛ ويختلف تذوق الفضيلة فى الأمم والأفراد ، ولو أن الضمير متصل بالله لاتفق الناس لأنه إله واحد وهو فى ضمير الخلائق لا يتعدد وإرشاده للخير لا يتشعب فى مذاهب عدة ، ولكن هؤلاء فاتهم أن الله لم يخلق الأجساد فى كلأمر مرة واحدة أو جعلها فى تناسق واحد بل تدرج فى خلقها من نقطة إلى علقه

إلى مضغة ثم جعلها عظاما ، وكوّن جنينا حتى صار طفلا فرجلا ، وكذلك الروح تتدرج في تربيتها ويتوقف فهمها للفضائل على ماتنال من العلم ومدى استعدادها لتلقى النور الإلهي ، ولا يتساوى الناس في المواهب والاكتساب ، ولم يقفل الله باب الاجتهاد لترقى الإنسان في نوعه فإذا ما بلغ مرتبة العقل الراجح والضمير الحى كان ذوقه سليما وحكمه صحيحا فرأى أن قانون الأخلاق الذى ورد به القرآن الكريم هو أصح قانون يعمل به وهو الميزان المحكم ورجع إلى صفاء الروح ، ولا يزال يترقى الإنسان ويفهم حكم الضمير على أعماله وشئونه الخاصة الذى ترك الله لكل إنسان حرية الاجتهاد فيها لأنها لا تقع تحت طائلة القانون العام ، وإذا جاهد الإنسان نفسه في اتباع الخير وترك الشر وسخر حواسه الظاهرة مع حواسه الباطنة في الوصول إلى النبل والسمو والكمال قوى ضميره وجاشت في صدره الآمال الرفيعة ومطالب المجد وأصبح للفضيلة نصيرا ولو ضحى بنفسه ورغباته :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجساد

وإذا جاشت بالروح مطالب المجد نحت بالجسد والحياة لاعتقادها أنها كسبت معركة الحياة مرة واحدة ، وكذلك إذا طافت المبادئ السامية بأمة من الأمم استهان أفرادها بالأجساد والحياة فحاربوا بقوة في سبيل المجد لأن الروح لا تعباً عند ذلك بالجسد وتكون في نشوة من خمر السموّ ؛ بخلاف ما إذا تبلدت وحرصت على حياة أشبه بحياة الحيوان فتسعى في الأرض إلى أن تموت خاوية من المعارف والسمو ذليلة إذا جاء أجلها المحتوم .

ولنرجع إلى تصوير أحوال الروح في كمال خلقها الإنسانى : تودع الصورة الروحية للمهمة مستودعها من الجسد وهى خالية من المعارف . ولنقرب ذلك إلى الفهم : نفرض أن رجلا ولد وحيدا وأمكنه أن يحيا وحيدا في ظلام دامس إلى أن كبر ولم يجتمع بأى مخلوق ولم تصله أية معلومات عن هذا العالم فإنه بالطبع يكون خاليا من كل معلوماته ولو أفهمناه وهو في عزله وظلامه عن هذا العالم أمره وشئونه فإنه يتصورها تصورا ذهنيا لا يبلغ تصويره إذا ما رأى العالم بصورته الحقيقية واستودع خياله حقيقة صورته حسا ومعنى ؛ كما أنه إذا فهم شيئا عنه قبل رؤيته فإنه يكون بطيء الفهم مع أنه لو رآه يكون أسرع فهما واستنباطا وأدق معرفة وأكثر استقراء وعلمًا .

وبالطبع لا يتأتى له ذلك طفرة لأنه يبدأ كما يبدأ الطفل يحتاج إلى التعلم رويدا رويدا ، كما أنه قد يفزع مما تقع عليه عينه كما يفزع الطفل ولكنه لا يلبث أن يستوى .

هذا مثل واضح للروح عندما تسكن جسدها كغريب انتقل إلى عالم جديد، تخرج من نشأتها الأولى إلى هذا الوجود لا تدري من هذا العالم وتكاليفه شيئا ، مستعدة استعدادا إلهيا لتمييز ما هي مقبلة عليه من التكاليف وأعباء الحياة . ولما كانت الروح تماثل الجسد في الصورة فهي ترى منه مثالا لها تفرح به بعد حلولها فيه ، وترى فيه أداة للسير في هذا العالم الجديد ، فإذا وصلت من حواسه الظاهرة إلى حواسها الباطنة ما تلتذ به اشتد تعلقها به واهتمت بمباشرة شؤنه فتلهو به عن عالمها الذي درجت منه ، ولا تحن إليه إلا في أوقات النوم إذا نام الجسد نوما هنيئا واطمأنت على حالته ، فتجتهد في الإشعاع شعاعا لطيفا غير محسوس إلا إذا تعلقت بشهواتها والميول الدينية فإنها تخبو في خيالاتها . وقد يحصل للروح إشعاع من أغشية الجسد فتترق كنفاد أشعة إكس ، وذلك إذا توجهت إلى العلم والحكمة والتقى واكتالت من هذه الينابيع بالكيل الأوفى ، لأنها مادة حياتها وثروتها الباقية وزادها الذي تنزود به في رحلتها إلى عالمها الذي درجت منه ، والذي لا غذاء لأهله إلا المعنويات ولباب المعرفة فتساوى بذلك عالمها ، ولا تأنس بالعالم الأرضي إلا فيما يعود عليها بالنفع وما تستبقي به جسدها للترزود بهذا الزاد الذي يزيد في درجاتها . ويحصل لها ذلك غالبا في آخر أيام الحياة عند الشيخوخة وعند ما يكون الإنسان في انقطاع عن الدنيا وإقبال على الآخرة ، أو عند اليأس من متع الدنيا ولذاتها واكتفاء النفس من حظوظها وانصراف الروح إلى أعمال الآخرة ونظرها إلى الجسد نظرة الإنسان إلى العود الذابل .

ولنرجع إلى موضوعنا فنقول : إن الروح تباشر أعمالها وأحوالها في هذا الجسد مستخرة حواسه الظاهرة إلى حواسها الباطنة فيما يعن لها من شئون في هذا العالم المادى كوسيط مرئى بينها وبينه ، أو كسائق يسوق (ما كينة) تدير آلات للرئ والحصاد والطحن وغير ذلك من الشئون ولكل من قطع هذه (الماكينة) وآلاتها اسم مخصوص وفائدة مخصوصة

ولسائقها الفوائد التي تنتج من أعمالها وهو المركز المدبر لكل هذه القطع . فالروح لها مركز الإرادة والتدبير وسر التميز في حواس الجسد وحركات أعضائه ، وتستفيد منها تذوق اللذة والألم وارتشاف المعارف . وفوق ذلك للروح حواس باطنة أهم من حواسها الظاهرة في قلب الروح، تتعدد أسماؤها المعنوية ولا تتعدد جهاتها وآلاتها كما تتعدد في أعضاء الجسد ؛ ولكنها تفيضها على حواس الجسد وتتقبلها منه تقبل الفراز الذي يفرز ما يصله من بضائع فيختار منها ما يجب . وأما إحساسات العالم الروحي غير المنظور فإنها تصل إلى حواس الروح الباطنة مباشرة بدون وساطة حواس الجسد الظاهرة لانعدام الحاجة إليها فيما يتبادلها بينها وبين عالمها الذي لا يحتاج إلى الوسائط المادية في العمل والفهم ، ولكن الإنسان لا ينتبه لعمل روحه وحواسه الباطنة لحرصه على الدنيا وتعلقه بها ولا نصرافه الكلي إلى أحوالها حتى تموت إحساساته الباطنة وتصبح وظيفتها محصورة في تدبير الحواس الظاهرة لا تلتفت إلى طروق أهل عالمها أو تفسير ما تتلقاه منه ، وقد تسمع أحيانا هوائفه ولكنها لا تميزها إلا قليلا وقت النوم عند سكونها عن تدبير حواسها الظاهرة في الميول التي اكتسبتها في يومها وراء المادة . ولكن هذه السوانح غير المفهومة لا أثر لها في أعمال الأرواح ولا تدنيها من عالمها السامي . وتسرى إرادة الروح في حواس الجسد كسيال الكهرباء في أدق ما في الأعصاب من تكوين^(١) ولذلك يصدر العمل بمجرد النية المقرونة بالإرادة . والإرادة مركزها القلب مهيبط

(١) اطلعت بعد كتابة هذا البحث ونشره بمئبر الفرق في سنة ١٩٤٥ على كتاب الطاقة الروحية للعلامة هنري برجسون تعريب الأستاذ سامي الدروني في أواخر سنة ١٩٤٦ وآرائه في هذا الموضوع وسأكتب بعضا منها على حواشي هذا الكتاب فقد جاء في صحيفة ٣٩ من هذا الكتاب (إن الجسم يقوم بالحركات الإرادية بفضل بعض الأجهزة المعبأة في المجموعة العصبية ، والتي تنتظر الإشارة حتى تنطلق . والدماغ هو النقطة التي تصدر عنها الإشارة ويصدر عنها الانطلاق أيضا ، فالمنطقة الرولاندية التي حددت فيها الحركة الإرادية أشبه بمركز توجيه القطارات حيث يفتح العامل للقطار الواصل السكة التي سيسير فيها ، أو هي أشبه بجهاز الوصل الذي يصل التيار بآلة من الآلات تنتخب انتخابا ، ولكن هناك شيئا آخر ، غير أعضاء الحركة وعضو الانتخاب ، هو الانتخاب نفسه . وانظروا أخيرا إلى الفكر حين تفكر بقدر ألا نتحدث إلى أنفسنا فنخطط حركات الألفاظ أو نهبطها وقد نجربها بالفعل . ولا بد أن يرسم شيء من هذا في الدماغ) إلى أن قال في صفحة ٤٢ (إن الدماغ عضو التعبير عن الفكر بإشارات ، فوظيفته أن يعكس حياة الفكر وأن يعكس كذلك الظروف الخارجية التي ينبغي للفكر أن يتلاءم معها . فالنشاط الدماغى هو من النشاط النفسى ، هو بمثابة حركات العصا التي يحرکها رئيس الاركستر من اللحن المعروف . إن اللحن يصفو على الحركات =

الروح ومركز التمييز ووعاء المعاني . فالحافظة والخيالة وغيرها في المنح البشرية ليست إلا مكان الإرسال والتلقي من باقى الأعضاء وإليها ، فلا تقرأ الروح منه كتابا مسطورا على تجاعيده ^(١) . أو صورة محفوظة على ثنياه ، إنما تتلقى وتصدر بوساطته كآلة الكتابة التى أعدها صاحبها بالحروف والأعداد والرسوم ويزيد عليها ما يلزمه ويصوره ليضرب عليها بيده فتخرج كتابا مقروءا أو منطوقا منه ، ولذلك لا تستعمله وقت إرسال الحفوظ فيقرأ الإنسان سريعا مما وعته الروح ولا يستعمل إلا آلة النطق وهى اللسان . أما فى حالة ما يستعيد سرّا عند النسيان فإنها توصله إلى المنح ^(٢) وتستعيد فيه كحديث النفس حتى تستذكر ولا تتلعم عند النطق به لأن سيالها الروحي أسرع من أعمال الجوارح التى تضطرب عند السرعة .

والخلاصة أن فى مركز الروح كل المعانى والتخيلات التى تكسبها من العالم المنظور وغير المنظور ، تتوارد بكثرة على الأداة حتى إنك ترى الخيالة البشرية تعجز فى بعض الأحيان عن قبول كل الصور التخيلية ، أو يحصل للشخص اختلال أو هذيان عند كثرة التفكير الروحي الذى يلهب أعصاب المنح فلا يصح حتى يستريح وتعود إليه قوى التلقى من مركز

= وكذلك حركات الروح تضاف على حياة الدماغ ولكن الدماغ لأنه يستخلص من حياة الروح كل ما يمكن أن يتحرك وأن يكون مادة ولأنه نقطة اتصال الفكر بالمادة يضمن تلاؤم الفكر مع الظروف فى كل لحظة ويصون اتصال الفكر بالوقائع فى غير انقطاع ، فليس هو إذن بالمعنى الأصلى للكلمة ، عضو تفكير ولا عاطفة ولا شعور ، وإنما هو يجعل العاطفة والشعور والتفكير تظل ممتدة على الحياة الواقعية ، وقادرة لذلك على القيام بعمل ناجح . فقولوا إذا شئتم إن الدماغ هو عضو الانتباه إلى الحياة .

(١) قال العلامة هنرى برجسون فى كتاب الطاقة الروحية بعد الاستدلال فى صحيفة ٤٨ (ولكن إذا لم تكن الذكريات مخترنة فى الدماغ فأين إذن تقيم ؟ الحق أننى لا أدري أى معنى لسؤال (أين ؟) حين لا يكون الحديث عن الجسد ، الانطباعات الفوتوغرافية تحفظ فى علبة ، والتسجيلات الصوتية تحفظ فى خزانة ولكن ما حاجة الذكريات إلى مخزن وما هى الأشياء التى تحس وتلمس ، بل كيف يمكن أن يكون لها مخزن ؟ وإذا كان لابد من مخزن تقيم فيه بالمعنى المجازى للكلمة فهذا المخزن هو الروح ، واستدل بكثير من الاستدلالات ، فمن أراد زيادة الاطلاع فليرجع إليها .

(٢) قال العلامة برجسون فى كتاب الطاقة الروحية صحيفة ٤٦ (وما يدل على أن الذكرى لا تزال موجودة هو أنه يتفق للمريض فى بعض الأحيان وهو يستعين بجمل عن الكلمة التى يظن أنها زالت ، أن يستعمل هذه الكلمة نفسها فى جملة من تلك الجمل ، فالذى ضعف إذن إنما هو ذلك الانطباع على الواقع ، الذى يكفله الدماغ ، أو قل بوجه أخص لأنه الوظيفة التى تنقل الذكرى إلى حيز الشعور بمبادرتها إلى رسم الحركات التى تظهر بها الذكرى إلى الخارج .

الروح في القلب المودع سر التمييز ونور الفطرة هبة من الله العلي الحكيم ، لذلك خاطب الله القلب على أنه سامع ومبصر لأنه نهاية اكتساب أعمال الحواس ومجتمع أعمالها ومركز إرادتها . وأما الخطاب الموجه لكل حاسة بالذات في القرآن الكريم فمن قبيل مخاطبة من لا يعلم الحقيقة بظاهر ما يعلم ويحس ، ومن باب الإنذار حتى لا تستعمل الحاسة البدنية إلا فيما خلقت له ، ولئلا تفتتح بابها للذة فلا يغلق حتى يرد منه العذاب ، فهو أداة التوصيل في كلا الحالين . ولذلك يقول الحق « كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » (١)

وتتصل الروح من مسكنها الأول وهو القلب بجميع الحواس بوساطة المخ ولذلك أسميه مركز التلقى أو الفؤاد أو صفحة الوجدان أو ما شئت فسمه ، وهذا المركز هو ملتقى الحواس الباطنة والظاهرة (٢) وهو كأداة البريد يتقبل الرسائل الواردة ويفرزها ويوزعها ويرسلها ، والرسائل الصادرة من الروح إلى نواحيها بقدر ما يستطيع ، لذلك كان على الإنسان أن يحفظه من مصادر السوء ووارد السوء « إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » (٣) ولنضرب مثلاً يقرب صورة من عمله . يرغب الإنسان لقاء شخص فتصدر الروح أمرها للمركز فتبحث الخيلة عن مكان وجوده بما تصدرد لها الروح من صور تتخيلها

(١) آية ٥٦ النساء .

(٢) قال العلامة هنري برجسون في كتاب الطاقة الروحية صحيفة ١٦٥ (إننا نخبرون حين نتحدث عن الأشياء الخارجية ، بين نظامين في الإشارة ، فإما أن نعامل هذه الأشياء وما يطرأ عليها من تغيرات على أنها أشياء ، ولما أن نعاملها على أنها تصور وكلا هذين النظامين مقبول بشرية أن يحافظ أحدهما على النظام الذي ينتجيه — ولنحاول قبل كل شيء أن نميز هذين النظامين تمييزاً دقيقاً واضحاً حين يتحدث المذهب الواقعي عن أشياء ، وحين يتحدث المذهب المثالي عن تصورات ، فإنهما لا يتناقشان حول ألفاظ . فهذان في الواقع نظامان في الإشارة مختلفان في فهم تحليل الواقع . فأما بالنسبة للمثالي فليس في الواقع شيء غير ما يبدو لشعور الفرد ، أو للشعور بوجه عام . ومن السخف أن نتحدث عن خاصة من خواص المادة لا يمكن أن تكون موضوع تصور . فليس ثمة إمكان ، أو على الأقل ليس في الأشياء شيء إمكانى صرف ، فكل ما هو موجود فهو فعلي أو قابل لأن يكون فعلياً : أي أن المذهب المثالي نظام في الإشارة فخواه أن الجوهرى من المادة معروض أو يمكن أن يعرض في تصورها لها ، وأن مفاصل الواقع هي بينها مفاصل التصور ، وأما المذهب الواقعي فيقوم على عكس هذا الفرض ، وهو يرى أن المادة موجودة بغض النظر عن التصور ، وأن تحت تصورها للمادة علة لهذا التصور لا تدرك ، وأن وراء الإدراك الذي هو فعلي ، قوى وإمكانات محتبئة ، وأن ما نرى في تصورها من انقسامات ومفاصل متوقف على طريقتنا في الإدراك فقط) . (٣) آية ٣٦ الاسراء .

عن مكان وجوده من حاسة البصر الباطنة وهو ما يسمى الظن ، فإن وضح كان اليقين .
وتشتغل الذاكرة حتى يمضى الأمر لجميع الأعضاء . وكذلك في أى رغبة من رغبات
المطعم والملبس والمشرب وجميع الشئون ، أو يتلقى رغبة من رغبات غيره بوساطة السمع
والبصر فتلتفت الروح إلى النداء بالسمع أو الإشارة بالمرأى ، وتصدر بمجرد وصوله إرادة
الروح بالعمل أو الترك أو الالتفات المركزى أو صرفه حسب رغبته وتعلقها وسعة معارفها
وتيقظها لكل ما هو مفيد أو لذيذ حسب ما اكتسبته من ميول تألفها بالتكرار سواء كانت
هذه الميول ضارة أو نافعة ، وعند ما يشتد الميل إلى رغبة ما يكون عمل المركز قليلا لأن
الأوامر تصدر اندفاعا من رغبة الروح كأنه عمل بلا إرادة بالنسبة لما اعتادت عليه وكثرة
تلذذها به وهواها في الإسراع إلى الحصول عليه أو دفع كل ما يقوم ضد هذه الرغبة حتى
تفقد الوعى الظاهر لعدم استطاعة الجسد السرعة ومتابعتها فيما تريد .

ولتتكلم عن واردات وصادرات هذا المركز ، وهى : قسم يختص بعالم المحسوس
المنظور . وقسم يختص بعالم غير المحسوس غير المنظور .
فأما واردات القسم الأول فتشتمل على ما يأتى :

١ - ما يتأتى من حاجات الجسد نفسه ، فالجسد يسير بحركة لا إرادة للإنسان فيها .
فالدورة الدموية والإفراز والهضم والتفاعل وأمثالها تسير بحركات لا تدخل للإرادة فيها . وكلما
احتاج إلى حاجة من الحاجات أرسل إلى المركز دقات التنبيه لتتيقظ الروح^(١) إلى ما يحتاجه
من طعام وشراب عند الجوع والعطش ، ويوصل إليها الألم والراحة عند ما يصاب بشيء من
داخله أو خارجه ، فتسعى الروح فى حاجاته وإصلاحه بما اكتسبته من معارف وتذوقته
من لذائذ .

(١) قال العلامة هنرى برجسون فى كتاب الطاقة الروحية صيغة (٣٩) (وأما ذلك الجزء اليسير وهو
الجانب الوحيد المرسوم فى النشاط الدماغى ، فإن دراسة الوقائع سوف تسمح بوصفه وصفا ما ينفك يزداد
دقة انظروا مثلا إلى وظيفة الإدراك أو الشم ؟ إن جسمنا المتدرج فى العالم المادى يتلقى تنبيهات عليه أن
يرد عليها بحركات مخصوصة ، والدماغ بل والمجموعة الدماغية الشوكية عامة هما اللذان يهيئان هذه الحركات
ولكن الإدراك شيء آخر تماما .

٢ — ما يرد أو يصدر إلى الحواس الخمس الظاهرة، وهى السمع والبصر، والنزوق واللمس والشم .

٣ — ما يصدر أو يرد على الحافظة والخيالة باستمرار عند الفكر والتذكر والرغبات

٤ — ما يصدر أو يرد من العقل الأول المعنوى لقياسه على العقل الحسى .

أما القسم الخاص بعالم غير الحسوس، فيشمل ما يأتى :

١ — ما يرد من الباب الملكى للروح مباشرة : وسميناه الباب الملكى لأنه باب الرحمن

باب الخير ومهبط النور :

(أ) وهو ما نتلقاه من الله مباشرة نورا يقذف فى روحها يقوى فيها التمييز والإدراك ويبعثها على العمل الصالح إما بسطا أو قبضا حسب استعداد الروح وتحملها موارد الأنوار فتقوى مداركها وتفتح لها مغاليق العلم والحكمة .

(ب) تتلقى من الملائكة^(١) والروح الطاهرة النصيح والإرشاد بما يضررون على أوتار المركز؛ كما تفعل الروح نفسها بمركزها فتقرأ ما يرد عليها ، إما يقظة بالتذكر فيما ألقى من قول أو صورة وهو ما يسمى بالخطر ، أو مناما بمشاهدة الأرواح للأرواح كما تتفاهم الأشباح وتنبه إليه الروح لعدم انصرافها إلى شئون الدنيا والجسد ، ومن ذلك مخاطبة الموتى السابقين بما لا يلتبس على الإنسان تذكره بالنهار ، وقد تتم هذه المشاهدة من الروح للروح فى حالة اليقظة الكاملة أو الناقصة حسب همة الروح وقواها ؛ فمنها ما تتوقف معه الحواس الظاهرة فيكون الشخص أشبه بالنائم أو المغمى عليه ، لعدم قدرة الروح على احتمال رؤية العالم الحسوس وغير الحسوس مرة واحدة مستعملة حواسها الظاهرة والباطنة فى وقت واحد^(٢) .

(١) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة . فأما لمة الشيطان : فيبعد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك : فيبعد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله تعالى ، فليحمد الله تعالى ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : (الشيطان يعدم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية أخرجه الترمذى .

(٢) اطلعت بعد كتابة هذا الموضوع على كتاب [الطالاب القدسية] لحضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ محمد حسين مخلوف العدوى رضى الله عنه فى صحيفة ٥ مانصه (فالبرهان قائم على أن للنفس فى ذاتها قوى عقلية تصرف بها فى المعقولات تصرفا لا تحتاج معه إلى هذه الآلات الجسمانية وإن كانت مقارنة لها

أو يكون من أرباب المهمم النادرة والمواهب العليا فتحتمل قواه الباطنة والظاهرة الإشراف في العالمين^(١) ولو إلى وقت محدود ، لأن الجسد يتألم من هذه الحال ، وقد يفسد إذا ما زاد عليه ؛ وأهل هذه الحال هم الرسل والأنبياء والصدّيقون ، وأعلاه الوحي الذي يهبط عليهم ويحتملونه . وتنقسم الأرواح في هذا الشأن إلى مدرّكة أو غير مدرّكة له حسب درجاتها ومواهب العلي العظيم خلّقه ، وحسب استعداد النفوس لتحمل النور وتعشق اكتسابه والعمل بالنصح والإرشاد واستماع ما يليق إليها من هذا الباب والاجتهاد في تمييزه حتى تصل إلى نفس لوامة أو إلى نفس مطمئنة بالإيمان ، لكي تتصل بموارد الرحمن وتتوالى عليها البشارات وتكون من الذين قال فيهم الحق « أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »^(٢) ولأدلك على هذا الباب اقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »^(٣) وصلاة الله على عبده هي رحمته به ولا يتذوق هذه الرحمة إلا بالسير على الطريق المستقيم وهدايته إليه . وصلاة الملائكة ملازمة بالنصح

وهو كالملاذئ وجهها غناها عن البدن الذي تفتقر إليه في تحصيل كمالها في هذه النشأة الثانية فهي جسمانية الحدوث والتصرف روحانية البقاء والتعلّق فلها كينونة في عالم العقل وكنيونة في عالم الطبيعة والحس وكنيوتها هناك أكمل من كنيوتها هنا ولذا تبصر وتسمع وتشم وتذوق وتلمس حال مفارقتها للبدن في النوم بما لها من تلك الحواس الذاتية .

(١) وقال صاحب المطالب القدسية في صحيفة ٧٢ (اعلم أن انسلاخ النفس عن لبوس البشرية وعوائق الطبيعة الجسمانية يقع على وجوه شتى وفي حال دون حال وأكمله ما يقع للشخص من حفظ ناموس الطبيعة ورسوم الشريعة فتجده وهو في هذا المشهد يأكل ويشرب ويبيع ويشترى ويصلي ويصوم ويذكر ويشيح ويعامل الناس بأنواع المعاملات على وجه أتم وأكمل جامعاً بين المشهدين قائماً بأحكام الموطنين كأن روحه تشهد ما هناك وتحفظ ما هناك كالنائم تسبح روحه في عالم الخيال وتصعد إلى المبادئ العالية وترى ما ترى ومع ذلك لها اتصال بالبدن يحفظ عليه حياته ويستبق آثاره إلا أن هذه تفضل نفس النائم بحفظ الحركة والشعور على وجه لا تتم فيه ، وهذا النوع من الانسلاخ يقع للأنبيا والسكّال من الأولياء وهم أحبّح التمكن ، ودونه مراتب متفاوتة وأنواع شتى لا يعرفها إلا الواجدون .

وبالجملة فالانسلاخ عن البشرية يرجع إلى تجرد النفس ونزوعها إلى مبدئها الأول وعالمها الروحاني . يخلع صورة ولبس صورة أخرى ، فهو نوع من تطورات النفوس في حركاتها الصاعدة وتمثل في عالم الظهور بأمثال متباعدة عكس نشأتها الطبيعية وأطوارها البدنية ، ومن طالع كتب الصوفية وتأمل فيها ووقف على كثير من غرائبها ولا أظنك بعد هذا تعود إلى إنكار كرامات الأولياء أو ترتاب في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) .

(٢) آية ٨٢ الأنعام . (٣) آية ٤٣ الأحزاب .

والإرشاد وردّ الأباطيل والترّهات بالحجة الواضحة يلقونها إليه كما مر . وقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » (١) .

٢ — الباب الثانى وهو الباب الشيطانى ، وسميناه بهذا الاسم لأنه باب الشر :
(١) ما يلقيه الشيطان فى مركز التلقى ويصل بوساطته إلى الروح من الخبث والتجارب والحجج الباطلة والتبئيس والمهموم .

(ب) ما يوسوس به الجن والأرواح القوية فى الشر من الشرور وتتلقاه الأرواح فى صورتها الأصلية من صنائع السوء وهمسات الصدور . وهذا الإلقاء لتمييز الروح بحواسها الظاهرة لأنه من عمل الأرواح فى صورتها الأصلية غير المدركة بالظاهر إلا قليلا من هؤلاء الشواذ الذين لا يغفلون عن ذكر الله ومراقبته ، لذلك يحذرنا الله من هذا الوارد بقوله سبحانه وتعالى : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » (٢) وورد عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ ، وَإِنْ نَسِيَ التَّقَمَّ قَلْبَهُ » .

هذه هى موارد الروح التى يصدر عنها الإنسان فى أعماله وأقواله وأفكاره ويتأثر بها العقل البشرى . وبما أن العقل أعظم هبة وهبها الله للإنسان وفضله بها على سائر الحيوان وجعله الله نورا صبه فى الروح وفيضا من فيضه السامى ، كان على الإنسان أن يقدر هذه الهبة ويغذيها بما يقويها باكتساب الصالح وترك ما هو فاسد حتى لا تحبوشعلة نوره .

العقل

ولنتكلم كلمة عن العقل ؛ فالعقل الأول هو العقل الوهبي الفطرى ، وبما يكتسبه من العمل يسمى العقل الاكتسابى وهو بحاسته الباطنة هو العقل المعنوى الحر ، وباستعماله الحواس الظاهرة يسمى العقل الحسى ؛ وسنتكلم كلمة عابرة توضح لنا هذا التقسيم .

١ — العقل الحسى لا يقبل الاعتراف إلا بما هو منظور وبالكميات والعدد: هذا ملموس ومنظور ومحسوس، وهذا أكبر وأكثر، وكل معنى لا يؤيد بالحسوس فهو مرفوض عند هذا العقل لأنه يتقيد بالحواس الظاهرة وتتوقف معارفه عليها والروح التى تكبت نورها وتصرف همها على هذه الحواس الظاهرة . ولا تزال تبحث فيما يصل إليها من التخيلات والمعانى بهذه الحواس فقط حتى ترد إليها الأدلة الحسية تحدث فيها المعانى وأسباب السمو وتفقد المرونة العقلية . وكثيرا ما يقع الناس تحت طائلة هذا العقل عند انحرافهم عن الطريق السوى فيفقد العقل نوره وفيضه من الأسرار العلوية .

٢ — العقل المعنوى لا يقبل كل ما يلقى الحسى حتى يطمئن إلى الحكم من حيث المعنى والمنطق والإحساس الباطن الذى يلهمه الحكم بالذوق فى حالتى القبض والبسط . وهذا العقل لا يميل إلى الالتذاذ بالماديات إلا فيما يقربه إلى الأعمال الخالدة والمعانى الجليلة ولا تنطفئ شعلته إلا بارتكاب المعاصى والرضا بالزور والتدليس فيما يفاض عليه للأغراض الدينية وحب الظهور والزهو والغرور .

وكل من العقلين متمم للآخر ككفتى الميزان حتى لا تنطفئ الروح فى إنكار الحسوس وتتعطل معارفها من عالم المادة، وحتى لا تنطفئ عليها الحسوسات فتفقد معارفها من المعنويات؛ وحاجة الإنسان لاستعمال كلا العقلين كحاجة الروح للجسد والجسد للروح .

نتيجة

من هذا يتحقق الإنسان العاقل أنه لا يتمكن من نيل السعادة إلا إذا وهبه الله روحا صادقة الإلهام، وهبه فيضا مستمرا يشعل فيه مصباح الهداية إلى الطريق المستقيم، وفتح روحه لتلقى النور من عالم الملائكة، وأغلق سمعه عن عالم الشياطين، واستعان بالله فى كل أوقاته يذكره فى كل نفس يتردد حتى تصبغ نفسه بصبغة الحق، ويستمر صوت ضميره عذبا جليا كثير فيض النور الذى يدفعه إلى أسمى الفضائل وأنبل الأعمال وأرقى الهمم، فلا يصدر إلا عن برٍّ ورحمة وإحسان، ويبقى سليما من اللوثات التى تفقده صفاء العقل وموارد الإلهام، وتؤدى به إلى خفوت جذوته، أو إطفاء شعلته، أو ضلاله بعد هدايته .

المواهب والاكتساب والفيض الإلهي

المواهب : إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، جلّت حكمته العليا أن تدركها العقول والأفكار ، أو تتناول إليها الأفئدة والأبصار ، إذ كلما تدرج البشر إلى فهم حكمة من الحكم وتذوقها العقول كشف لهم عن حكمة أعلى ، فإن أدركتها عقولهم بهرتها ، فإذا ما سكنت تكشفت لها حكم أسمى وازدادت ترقيا ، ولا نهاية لهذا الترقى في فهم الحكم ، سبحانه الله العلي الحكيم « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » (١) .

وقد اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخلق ليتمتع بمعرفة خالقه فخلق عالم الأمر وعالم الخلق « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (٢) . وعالم الأمر هو عالم خلق الله له نور العقل ومنحه إرادة مستمدة من إرادته أودعهما سريرة الأرواح ، ثم خلق عالم المثال وخلق له عالم المادة يعمل فيه فتم أمره سبحانه وتعالى على جميع الصور والمظاهر « هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٣) .

وقد تم بناء العالم على ما أراد لا يتخلف ولن يتخلف ، قال الله سبحانه وتعالى : « قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءٍ لِلنَّاسِ لِيَسْأَلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » (٤) .

(١) آية ٢٦٩ البقرة . (٢) آية ٥٤ الأعراف . (٣) آية ٢٤ الحشر .

(٤) آية ٩ - ١٢ فصلت .

وقد قسم الله الحظوظ والأرزاق ، وأعطى وزاد في الإعطاء ، وحرّم من شاء فيما شاء ، سبحانه وتعالى « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »^(١) . خلق روحا تفضل جميع الأرواح ثم أخرى دونها ، وتتفاوت هكذا حتى أدناها ، وهكذا يتفاوت الناس في العقول وفي الأجسام وفي الجمال وفي القبح وفي كل العطايا والمنح ، ويتفاوت الخلق كله أنواعا وفصائل جماعات وأفرادا .

ومن الحكم التي تتراءى للعقول السليمة ؛ أنه لو تساوى الخلق في العقول والجِرم والمنح لصار الكون جامدا بل لنفدت المعاني التي تعيش بها العقول وتتغذى منها الأبواب ، إذ النظر إلى المتجانس يكلّ منه البصر ويميل منه العقل بل تسأم الحياة في جوده الروح ، وبضدها تميز الأشياء ، والكهرباء لا تسرى إلا من اتحاد السالب بالموجب ، والمعرفة لا تتم إلا من النفي والإثبات ، فإذا عرفت الله حقا أثبت ألوهيته وسبحت بحمده وغرقت في بحار كماله التي لا تنتهاى ووحدته لأنه الواحد القائم بنفسه ، والتجأت إليه وحده ، ونزهت بصيرتك أن تنظر لغيره حتى لا تخبوا في عالم مخلوق لا يضر ولا ينفع ولا قيام له إلا بخالقه كما قال أحد المتصوفة :

الله قل وذو الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

وكما قال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

لذلك قال أهل الحقيقة : انطوت العلوم والمعارف جميعها تحت قول لا إله إلا الله ، ولولا تباين العطاء ما أحسّ أحد فضل الله عليه ولا تلذّذ بما فضله به على غيره ، ولا طمع في فضل أكبر منه ، بل لا تقطع تطلع الخلق إلى الخالق وقلّ التجاؤم وإنابتهم إليه وهو جلّ

(١) آية ٢٣ الأنبياء .

شأنه، العلى الحكيم ، وهل يعرف الغنى من لم ير الفقر؟ وهل يحمد الصحة من لم يذق طعم المرض؟ .

لذلك فضل الله بعض أفراد النوع البشرى على غيرهم فى أصل الخلقة والتكوين فهذا أعطاه عقلاً أكبر من عقل غيره وهذا روحاً أقوى من روح غيره وهذا نوراً أكبر من نور غيره وهكذا ؛ ولما بدا تقسيم الأرزاق الجسمانية وما تحتاج إليه من أقوات ومساكن ومنافع ، قسمها قسمة ثانية لاتتحكم فيها القسمة الأولى فقد يمنح منها صاحب العقل الفائض رزقاً يسيراً والروح الكبرى جسماً نحيلاً ؛ وهناك قسمة ثالثة لا ترتبط بسابق القسمة وهى تقدير الآجال إلى أوقاتها ، هذه أقسام مقسومة لجميع الخلق مؤمنهم وجاحدhem لا اعتبار فيها للإيمان أو الجحود ، لأن الإيمان نوع من هذه الأرزاق المقسومة ، لاتتخلف منحة من هذه المنح بسبب الجحود أو الكفران أو الفجور أو الفساد ، فهى ميراث من الله إما أن يحفظه العبد ويزيده أو يضيعه أثناء الاكتساب « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » (١) . ولا يقضى على أحد حتى يستوفى رزقه وأيام تكليفه ، ويؤدى رسالته وينجح أو يسقط فى الامتحان ؛ وكما أن امتحان المهندسين فى علوم الهندسة والأطباء فى علوم الطب والحقوقيين فى التشريع وهكذا فإن الله خصص الخلق كل فى اختصاصه ؛ لذلك ترى أوراق الامتحان التى وزعت عليهم مختلفة الأسئلة والمعوّل على حسن الإجابة لاعلى نوع الامتحان ، ومعظم الناس يعينهم نوع الامتحان حتى لو سقطوا فيه وهذا هو الغباء بعينه ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْْنِيهِ » . وقد يكون نوع الامتحان فى الصبر أوفى الأمانة والعفة أو فى حفظ الحدود أوفى غير ذلك عند الابتلاء بما يجعل المحافظة على واحدة منها صعباً شديداً على النفس .

وقد تكون ورقة الأسئلة مكتوبة فى الفقر والتعنف عن اللذات والحرمان من كثير الخيرات ، والجواب الذى يوجب النجاح هو الرضا والصبر على الحلال مهما ضاق ، وقد

يكون السؤال في الغنى والاقتصاد فيه وبذله لأحسن وجوهه وحسن التصرف فيما جعل الله العبد مستخلفاً فيه وحسن الإجابة في الصبر على فتنة المال وعدم الغرور به وأداء حقه مع شكر النعمة والتواضع، وأكثر أهل هذا الاختصاص يرسبون في هذا الامتحان القاسي. قال الله سبحانه وتعالى «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ». وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَذَرُّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدَّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» (١).

وقد تكون الأسئلة في حرمان نعمة من النعم مع زيادة المنة في نعم أخرى كحرمان الأولاد مع الغنى وغيره، أو كثرة الأولاد مع قلة المال وسوء حالهم وزيادة عقوباتهم وحسن الإجابة في الرضا بالتقدير وخلو البال من الانشغال بالنقص؛ وقد تكون في احتمال الأوضاع المتغيرة كالمشقة في طلب الرزق مع وجود أهل الراحة في كثرة من الخيرات والإجابة في إحسان العمل وأن يعلم العبد أنه في الحقيقة مستخدم في مملكة الله ويعرف أن الأجر أجران: أجر في الدنيا بالأسباب الظاهرة من أيدي الناس وهو غير عادل؛ وأجر الآخرة الأجر العادل؛ وكذلك احتمال رئاسة الأدنى للأعلى كيوسف الصديق عند عزيز مصر، وشتان بين الاثنين حتى إذا ما ذهبوا إلى الخافضة الرافعة رجع كل ذي أصل إلى أصله، قال الله تعالى: «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ». وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» (٢). وقد تكون الأسئلة في الصحة والمرض وحسن الإجابة في شكر الصحة واستنفادها في العمل الصالح وترك المعاصي وفي الصبر على المرض وهكذا.

وبما أن الله جعل أرزاق النساء من أيدي آبائهن وبعولتهن جعل امتحانهن في طاعتهم وفيما يليق إلى آبائهن وبعولتهن من امتحان فإن صبرن على الطاعة وعلى لأواء المعيشة وحفظ

فروحهن وتصرفهن في أموالهم وتربية أولادهم بما يرضى الله « فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ » (١) وإذا أعانوهن على النجاح وتعاونن معهم على البر كتب لهن أجرهن مرتين وفرن في امتحانهن فوزا مبينا .

الصفة سابع : والنجاح لا يكون في هذا الامتحان إلا بالرضا عن الأسئلة والاجتهاد في الإجابة مع العبودية وترك الاختيار ومجانبة الهوى والتزمت ؛ عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرَكُهُ اسْتِخَارَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ سُخْطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى » أخرجه الترمذى .

لذلك وجب على المرء الصبر الفائق مع الجِد والمثابرة واليقظة إلى حين انتهاء وقت الامتحان جعلنا الله من الناجحين في هذا الامتحان ورفعنا بمنه وجوده أعلى الدرجات قال الله سبحانه وتعالى « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٢)

من هذا الذى قدمنا كله نعلم أن العطاء نوعان وهبى واكتسابى . فالوهبى سابق فى أصل الخليقة قبل ظهور الأعمال الاكتسابية ؛ فالعبرية مثلا هى ذرة من النور منبثة من بدء الخلق فى لآلاء جوهرية عقل الروح ، وهى موزعة على الأمم فى جميع العالم على مر الأزمنة لا تخلو منها أمة ولا يخلو منها زمان لأنها تنير لغيرها السبيل فيما خلقت له فى أى نوع من أنواع العمل والفنون ، فقد تظهر آثارها مرة فى فنون الطبيعة والكونيات ، ومرة

في المعاني والتخييلات ولا يشترط في هذه الايمان . وأخرى في الايمان والتقوى وهداية الخلق إلى جبار السموات والأرض ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النَّاسُ تَبِعُوا لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّانِ مُسْلِمُهُمْ تَبِعُوا مُسْلِمِهِمْ ، وَكَافَرُهُمْ تَبِعُوا كَافَرِهِمْ ، النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتَهُوا ، وَتَجِدُونَ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ أَشَدَّ النَّاسِ كَرَاهَةً لِهَذَا الشَّانِ حَتَّى يَقَعَ فِيهِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما : أى أن قرىشا فضلها الله على الناس في بدء الخلق وفي المنح الأولى وأن من كفره الناس من أعطوا عقلا عظيما ، فإما أن يستعملوه في عناد الكفر أو في الانقياد إلى صحيح الايمان فانتهفوا وأفادوا غيرهم ، لذلك تتفاوت الأرواح قوة وعطاء وتتفاوت أيضا قوة من اكتسابها عند ظهورها في هذا العالم ومباشرة شئونه ، ولا يزال الله يعطى منحا للعباد فيما يسألونه من فيضه اللانهائى السارى في لطائف الأرواح وعناصر المادة ما يحير العقول ويدهش الألباب ويعطى أرباب الخير على قدر اجتهداهم ليزدادوا خيرا وإيمانا مع إيمانهم ، وأرباب الشر فيما يطلبون فتنة وعقابا إذ يتركهم للشيطان الذى أطاعوه ليزين لهم سوء أعمالهم ، قال الله سبحانه وتعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كَلَّا هُوَ لَآءٌ وَهُوَ لَآءٌ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » (١) .

فالله سبحانه وتعالى يعطى السائل مما يسأل ، فإن كان من أهل الايمان المتوكلين عليه أعطاه من الخير وكف عنه الشر ، وإن كان من الجاحدين الطامعين في الدنيا أعطاه ما هو بسبيله من غاية وطلب كل على وجهته من مطالب الدنيا أو مطالب الآخرة ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » (٢) فإن كان طالب علم فتح الله عليه في علمه ، وإن كان مخترعا كشف له ، وإن كان طالب فن فتح عليه

في فنه ، وإن كان طالب مال عجل له ما شاء لمن أراد . وإن كان طالب جاه وزعامة لغير وجهه تركه لأعوان الإثم يزبنون له سوء عمله إلى يوم قدره وقضاه ، في حكمة أرادها وقضاها إذ يخرج الخير من الشر والحي من الميت ، حتى إذا جاء ميقات القصاص العاجل أو الآجل أخذهُ أخذ عزيز مقتدر في ذروة غروره على غرة منه ، قال الله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ^(١) وقال تعالى : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ^(٢) .

وقاعدة النجاح وباب إجابة الطلب عند الله المثابرة والصبر والإحسان في العمل ليكون السائل جاداً في طلبه مشفوعاً بأدلة الصدق فيه ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » ^(٣) في أى عمل تولاه العبد ولا يكون الإخفاق إلا عند التامل والياس أو تنازع الرغبات فتفرق بالطالب السبل ، وقد ثبت أن المتخصصين في أعمالهم أكثر الناس فتحة ونجاحا ، وأهل الأهواء الذين يتنقلون من عمل لآخر ولا يستقرون لا يحسنون عملاً ولا حافر لهم ، وهمتهم فاترة من عدم صبرهم حتى يستجيب الله لهم ويفتح لهم أبواب النجاح :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
وكم جاء الصبر بأعظم النتائج ، وقد سمي الله نفسه بالصبور : أى الذى لا يعجل ولا ينسى ولا بد للصبور أن يكون حكيماً ، فأهل الصبر أهل الحكمة ؛ وقال الله سبحانه وتعالى : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ^(٤) لأن الله مع من يتصف بصفاته ويتخلق بأخلاقه ؛ وقال سبحانه وتعالى : « إِنَّمَا يُوقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ^(٥) وكم تعجل قوم في آخر المضمار فخرجوا من أعمالهم قبل لحظات من وصول يريد المكافأة ، وكم من الذين صبروا سكب عليهم العطاء فكبت قلوب الشامتين .

(٣) آية ٣٠ الكهف .

(٢) آية ٨ فاطر .

(١) آية ١٨٨ آل عمران .

(٥) آية ١٠ الزمر .

(٤) آية ٤٦ الأنفال .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيفِ وفي كلِّ خيرٍ، احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » أخرجه مسلم .

والصبر إما على الأعمال الدنيوية فيصيبون فيها الأجر العاجل فيما يطلبون ، ومنه نرى نجاح الكفار وأهل الجحود فضلا عن أهل الإيمان لصبرهم على أعمالهم وعدم فتور همهم وقوة جلادهم وعظيم جهادهم ، فكم رأينا علماءهم لا يصيبون نجاحا ولا يكافأون أجرا يناسب أقدارهم ولكنهم لا يفترون ، وكم تغثروا في ظلمات البحث والدرس فلم يعترهم الملل والسأم ، بل ظلوا دائبين في غير يأس حتى يفاجئهم الله بالفتح فيلهمون أسباب الكشف والاختراع كسب الصدف جزاء وفاقا ، لصبرهم وتفانيهم في أعمالهم التي كرسوا أعمارهم لها ، والله في ذلك حكمة جليلة إذ نجاحهم في أعمالهم سعادة لآخرين ، فجعلهم خدما لغيرهم من حيث لا يشعرون وعجل لهم أجرهم فيما يشتهون ، وحرّمهم أجره الأكبر في دار الكرامة الذي خصه بقوم صبروا ابتغاء وجهه الأعلى ممن آمنوا واحتملوا الأذى في سبيله وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وقاموا بأعمال الخير والبر وهداية الخلق إلى الصراط المستقيم ، كما ظلوا حراسا أمناء على بناء الفضيلة وصرح الأخلاق السامية ، فنالوا بذلك أعظم الأجر والثوبة في العاجل والآجل ورفعهم أعظم الدرجات قال تعالى : « وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَقْضِيًّا » (١)

الفيض الإلهي : والفيض الإلهي فيض عام وفيض خاص . أما العام فهو أنهار تجري من أمر الله وتفيض لإمداد الخليقة بالحركة ، والحياة تجري في مدارك الأرواح وهبات العقول وفي حياة الأجسام والحيوان والجماد وتسيل بغزارة وقوة ، فهو حياة العالم وسرّ بقاءه وكيونته وإبداع سننه ، ونظامه يدل على حياة موجدته وقيامه بشئونه ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ

مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » (١) وفيض خاص وهو الفيض الذى يجريه الله على العقول النيرة والألباب
 القابلة للفيض من النور الإلهى الذى تحيا به الأرواح وتتفكر فى آيات الصنع الجميل فتوحدها
 البارى جل شأنه فتحيى حياة السمو والارتقاء بقدر استعدادها لتلقى هذا النور ومدى توفيقها
 فى طلبه والاهتداء إليه ؛ قال سبحانه وتعالى : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
 كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ
 شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ،
 نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ . فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .
 رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
 تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
 وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٢) .

ومن هذا الفيض ترتوى أرواح أهل الحقيقة فتظهر عليهم بركاته وتلمع فى عقولهم
 ومداركهم أسراره ويتميزون عن غيرهم من الناس بأنواع المنح والعطايا وأسباب الكرامة
 والتفضيل ، فأجسام الناس لا تتميز عن بعضها كثيرا ولكن قوة أرواحهم ومدى إيمانهم
 تتفاضل حتى يبلغ الواحد منهم درجة تفضل الآلاف من بنى جنسه ، لذا قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم « لَوْ وُزِنَ إِيْمَانُ الْأُمَّةِ بِإِيْمَانِ أَبِي بَكْرٍ لَرَجَحَ إِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ »
 « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

وتقوى فى أرواح هؤلاء حواسها الباطنة حتى تدرك بنور البصيرة ما لا يدركه غيرهم
 فيكون لهم كشف عن الأسرار التى أخفاها الله عن غيرهم وقوة فى السمع والبصر وفراسة
 وإلهام فياض مما تسمعه الأرواح وتسمو به الخواطر ويسعف المنطق ، وستحكم عن هذه

المواهب إلا أنى سأنتقل هنا ما كتبته والدى (السيد عبد السلام الحلوانى) رحمه الله ورضى عنه فى كتابه السيرة الخليلية المطبوع فى سنة ١٣٣٩ هجرية قال : الكشف والسمع والبصر ؛ فالكشف نور فى القلب يدرك به الولى عين الشئ بقوة البصيرة فيطلع الله على ما يشاء أن يطلع عليه بحسب حاله ، وهو على ثلاثة أقسام : أولها قوة الخاطر وسرعة الفهم وتخيل الأشياء وتكرر ذلك مع صدق الخاطر فى كل مرة فيصير فى قوة الكشف وهو طواع الكشف . وثانيها تمثل الأشياء الغيبية ومواقعها فى القلب فتدرك بالتحقيق عند وقوعها ويتكرر ذلك . وثالثها قوة الإدراك بقوة البصيرة فيقول باطلاع محقق يطلع الله سبحانه وتعالى عليه متى شاء .

« والسمع والبصر : قوتان من قوة الكشف ودرجتان عظيمتان يهبهما الله سبحانه وتعالى للولى ، قال لى شيخى : إن الله سبحانه وتعالى يعطى الولى درجتى السمع والبصر فيرى الولى من هو فى أقصى الأرض ويسمع من يناديه كذلك .

« ولقد كان لى واقعة حال معه رضى الله عنه فى هذه المسألة فأنى فى بدء أمرى قبل المعاهدة سمعت منه ذلك وما كنت أدرى أن الولى يسمع ويبصر ، بل كنت أفهم أن ذلك عطاء يوحيه الله سبحانه وتعالى فى قلب من يريد من أوليائه فقلت له كيف ذلك؟ فقال يسمع الكلام فى القلب قبل أن يتقلقل ويبصره كأنه محسوس فأندهشت فى نفسى ونظرت إلى سيدى فى حال محادثته بحالة الاستغراب فنظر إلى نظرة شديدة رأيته فيها كالأسد الضارى بعينين براقتين لا أكاد أنظر إليه وكدت أهلك من هذه النظرة ولم أجد لى مجالاً للقيام فسكت وسكت أنا مذعناً ، فهذا روى ولم يمكنى بعدها النظر إليه كما كنت أنظر إليه من قبل .

« أما تحقق الكشف والسمع والبصر فقد ورد بتأكيده الشرع الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأَمَمِ نَاسٌ مُّحَدِّثُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ وَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمرُ بْنُ الْخَطَّابِ » رواه أبو هريرة رضى الله عنه كما أخرجه البخارى ومسلم ، وقد ثبت عن سيدنا عمر رضى الله عنه فوق ذلك الكشف والسمع والبصر وإسماعه للغير ؛ فقد كان بالمدينة وجيشه (بناهاوند) وبينهما مسافة شهرين فرأى

العدو كما منا وراء الجبل ينظر مرور الجيش فنأدى سيدنا سارية وكان أمير الجيش وقال له :
يا سارية الجبل وهو على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فسمع سيدنا سارية هذا النداء سماع المحقق
وعلم أنه أمير المؤمنين ، فسار إلى الجبل وهناك رأى الأعداء فانتصر عليهم ولولا ذلك هلك
الجيش . وقد ساق جملة من الأدلة والأخبار فمن شاء المزيد فليطلع عليها ، وقال رضى الله عنه :
الفراصة : هي نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في القلب بسبب إخلاصه في محبته وسلوكه
مقام الوصول فيهتدى إلى الحق ويميز به الظلمات من النور فيدرك بعقله مسارح الأرواح
وتقلب القلوب مهما خفيت ، ولذلك حث السادة الصوفية على ضرورة حفظ القلب مع
السالكين خوف النظر بطريق استدلال الأرواح بنور الفراصة لخواطر القلوب فيحصل
تغير في التقابل فتتغير القلوب ويتكدر صفوها والله تعالى مع المتقين « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » ^(١) وقال سبحانه وتعالى في حديث قدسى « أَنَا مَعَ الْمُنْكَسِرَةِ
قُلُوبُهُمْ » وفي الأثر « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » وفي الأثر أيضا « اتَّقُوا
غَيْظَ الْقُلُوبِ » ثم إن الفراصة تتولد من السير في مقامات السلوك فيتقلب القلب في المجاهدات
ومعرفة خطايا النفس فيشهد مثل أحواله في غيره والمؤمن مرآة أخيه فيتفرسها .

والفراصة أيضا تهجم على القلب من نار الوجد والمحبة لله تعالى حتى تصير إلهاماً ،
والفراصة أيضا ربما تكون من قوة الروح المتسلطة على العقل فتدرك بطريق التمييز وقد يكون
في عامة الناس وليست هذه الأخيرة هي المقصودة من مواهب الأولياء ، ومنها :
الإلهام ^(٢) : وهو عبارة عن وحى يوحيه الله تعالى في القلب بنور المعرفة فيهتدى إلى

(١) آية ١٢٨ النحل .

(٢) قال العالم الجليل صاحب الفضيلة الشيخ محمد حسين مخلوف العدوى رضى الله عنه في كتابه [المطالب
القدسية] ص ٦٦ بعد مقدمة ما نصه (وبالجملة فتفاوت النفوس في ذلك وبلوغ بعضها حد الخارق في الأعمال
والمدارك تابع لاستعدادها الخاص وما يفاض عليها من واهب الصور وليست بإفاضة المواهب على النفوس
محدودة ولا إشرافات أنوارها على بعض أفراد نوع الانسان مرصودة بل لا تزال يحض الفيض شاملة
لسائر النفوس وإن اختلف بالقسم الوافر منها أصحاب الغزائم الصادقة وأهل حضرة القدوس ، ومنهم
المحدثون كما ورد أن من أمتي المحدثين والمكلمين ومنهم عمر رضى الله عنه ، والمحدث الملهم وهو الذى يلقى
في نفسه الشيء فيخبر به حدسا وفراصة ، وهو نوع يخص به الله من يشاء من عباده كأنهم حدثوا بشيء
فقالوه ومن هذا شأنه تكفيه إشارة الدلالة وأى دلالة :

يكفى اللبيب إشارة مرهونة وسواء يدعى بالنداء العالى

الصواب ويثمر علماً لدنيا من علم الله تعالى ، والعلم الدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين الروح وبين الله سبحانه وتعالى بل يكون كالضوء من النور يفرغه الله سبحانه وتعالى على قلب صاف فارغ من الأغيار ومن هوى النفس ومن حب الدنيا ومن الأمراض التى تمجج العبد عن ربه فتنزل على قلب لطيف تشغله فيكون واسطة العبد بربه فلا ينطق إلا حقاً ولا يقول إلا ما يريد الله سبحانه وتعالى ، وقد قال شيخنا رضى الله عنه : لا يأتى من الذكر غير الحق لأن القلب الصافى المشغول بالله يذكر الحق ولا يقول إلا حقاً ، قال تعالى : « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » (١) إلى أن قال : قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ما ملخصه : والوحى قد انقطع بانتطاع النبوة لأن باب الرسالة قد أغلق بعد تصحيح الحجة وإكمال الدين لهم على يد سيد المرسلين صلى الله وسلم عليه حيث قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (٢) وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة بإرسال الرسل ، ولكن ضرورة النفوس وحاجاتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير جعل الله باب الإلهام مفتوحاً ومدد نور النبوة لا ينقطع رحمة منه سبحانه وتعالى بالأمة حتى لا تستغرق النفوس فى الوسواس وتنهمك فى الشهوات وليظهر يبايع الحكمة فى الروح وتأثير المؤثر عليها ولأجل النظر فى إبداع الصنع والتفكر فى مخلوقات الله سبحانه وتعالى ، ولو نظر الإنسان فى نفسه وأن قلبه مسيطر على حواسه وجوارحه يحركها كيف أراد لعلم أن الله سبحانه وتعالى فى خلقه شئونا يحركها كيف أراد وأنه هو المعطى وهو المدبر وهو اللطيف الخبير « اه . وإنى أعتقد أن الإلهام له أنواع شتى فى جميع الخليقة يعطى لكل حسب اجتهاده وطلبه من الله سبحانه وتعالى ، كما أنه يزداد وينقص ولا يثبت على حالة واحدة تبعاً لصفاء الروح وقوة الإلهام ، فإن كان الوجد قويا والملك الرحمانى حاضرا اقتحم نور الإلهام حظيرة الفؤاد فطرد منها خراطير النفس وهواها وزلزل الشيطان نخس بعيداً ، فإن خف الوارد اختلط بالأحاديث الأخرى وخرج مزيجاً وهو ما نراه ضعيفاً من صور الإلهام . أما إلهام أهل الصفاء السكلى من رجال الحقيقة فى حالة التجلى الأكبر فهو من إمداد الحق فى نور الحقيقة ، وما دما قد وصلنا إلى هذه الحقيقة من أحوال الأرواح فى صفائها وترقيها ... فسنسوق هنا شعراً من كلام الملهمين .

فيض من الإلهام^(١)

مناجاة

أَسْعَى خَلَّاقِي وَأَقْصِدُ وَجْهَهُ
وَعَنِ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ لَنْ أَتَخَلَّفَا
يَا مَالِكَا رُوحِي وَمَانِحَهَا الْهُدَى
أَنْظِرْ إِلَيَّ فَأَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ عَفَا
إِنْ قِيلَ مَنْ؟ — قُلْتُ أَمْرُو فِي رَبِّهِ
سَاعٍ وَهَذَا فِي انْتِسَابِي قَدْ كَفَى
لَا وَالَّذِي غَمَّرَ الْعِبَادَ بِفَضْلِهِ
إِنِّي بِغَيْرِ اللَّهِ لَنْ أَشْرَفَا

(١) هذا الشعر الإلهامي لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكامل التقي الصالح الشيخ (على عقل) إمام مسجد المواساة بالاسكندرية ، وهو أحد إخواني في طريق الحق ، ولد ببساط مركز طلخا من أعمال مديرية الغربية سنة ١٨٩٤ م . من عائلة عريقة بها ، وأصابه مرض كف منه بصره صغيرا وأدخل كتاب القرية لحفظ القرآن ثم رحل إلى مصر فتعلم القراءات ثم قفل زاجعا إلى بلده . ولما كان في سن السابعة عشرة من عمره رأى والدى في زيارة أهل بلده ، فأنجذب إليه ، ثم أخذ عنه العهد ودأب على الطاعة بجد واجتهاد خارق للعادة ففتح عليه ، ولما بلغ هذا الشأن أخذه والدى وسلمه لشيخه الجليل قطب عصره بالتحقيق ، من رفعت له أعلام الولاية في أهل الحقيقة سيدي وشيخي (الحاج محمد أبي خليل) بالزقازيق ، فلزمه في سياحاته التي كان يزور فيها تلاميذه وكان يحضر الليالي التي كان يحياها الإخوان احتفالا بمقدم الشيخ رضى الله عنه وينشد على مجالس الذكر أمام جميع الناس على اختلاف تعليمهم ومراتبهم الدنيوية والأخروية ارتجالا سريعا فيض الخاطر وفور الوقت مما حير عقول الفصحاء والبلغاء والعلماء ، فقد كان الواحد منهم يطلب منه تخميس أو تشطير أى بيت في وسط الجمع الحافل فيشطره أو يخمسه ، ويقول عليه قصيدة عصماء أمام المجتمع فورا لا يتلعثم ، وقد يتلثم القارئ أو الحافظ ولكنه ينصب كالغيث فإذا ما تواجد زاد الفيض على قلبه وجنانه قليلا ما يستطيع السمع لحاقه ، وقد كان بعض الحاضرين تأخذه هذه المعاني فيطرب قلبه لها ، وقد روى الفيلسوف الحكيم المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى وأمثاله من أجلة العلماء والمستشارين وهم يتهللون طربا من عذوبة ما يليقه من المعاني وحلاوة الفيض ، واستمر فضيلته ملازما لشيخنا إلى سنة ١٩٢٠ حيث انتقل شيخنا إلى دار الكرامة ثم لازم بعد ذلك أستاذه المغفور له والدى بالصحبة الصادقة والأدب الجم والوفاء النادر ، وظل ملازما له إلى أن انتقل والدى رضى الله عنه إلى دار الكرامة في سنة ١٩٤٤ . ولا زال رضى الله عنه يحفظ الود معنا ومع الإخوان ويوالى الجميع بفضلله أطال الله في عمره ؛ ومن يوم أن عرفته لم أره ينام من العصر إلى الفجر ، ولا يضع جنبه الأرض للراحة مهما كانت الأحوال ، ولو كان على سفر ، ولم يطوى في السهر والسفر أياما بلياليها ، وتراه وهو على هذه الحال من المواهب الإلهية متواضعا جم الأدب ذليلا في نفسه ، وله من باريه صوت جميل ويقرأ قرآنا عظيما في عذوبة وكمال أداء ، ولكنه لا يبيعه بيع القراء متعففا زاهدا في الدنيا ، لم يجمع شيئا من المال ، يجب أن يكون فقيرا مستورا ، مع أن الوافدين لزيارته من جميع الأقاليم ومن جميع الطبقات يكفونونه مالا ووقتا ولكنه مبارك في جميع أحواله =

احفظ مقام الناس واترك عرضهم

ما كلَّ مَنْ دخل الطريق أخوهدى أو كلَّ مَنْ صَبَّ المدامة ساقى
 كمَّ عالمٍ فى نفسه مَرَضُ العُلا لمَّ ينتفع بـمكارم الأخلاق
 الصدق والإخلاص أسباب الهدى يا مدعى التقوى بلا استحقاق
 أخفظ مقام الناس واترك عرضهم حتى تنال مَوَاهِب الخلاق
 أنا لى من القرآن خَيْرُ مُعَلِّمٍ وَمِنْ الحديث مَنَابِى وَمَذَاقِ

نحييكمو يا آل بيت محمد

لكم فى فؤادى قُوَّةٌ لا يحدها بيانٌ ولم يَحْصُرْ عبارتها الشَّعْرُ
 وللروح منكم مَسْرَحٌ لا تحوطه سماءٌ ولم يَبْلُغْ لوامعها البدر
 وللقلب رَوْضٌ فى الحبَّة ناسر على السكون أكلماً يُصَانُ بها الزَّهر
 فَإِنَّ أَتَنَفَسَ بالغرام فَإِنَّمَا على نسيماتِ الأُنسِ قد غرَّد الطير

== صفة أهل الدين الحق ، وأهل الكرامة عند الله ، زاده الله فتحا وقربا وعطاء ، وجعنا على الهدى دواما حتى نصل مع إخواننا جميعا إلى دار الكرامة سامين « لا يمينا فيها نصب ولا يمينا فيها لغوب » .
 ولكن لا يؤسفنى شيء أكثر من أسفى على ضياع ما أشده فضيلته دون إثبات ، فهو ثروة العصر الحاضر فى الأدب الصوفى التى لا يتناول إليها كثير من العصور ، وقد فطن إلى ذلك أخيراً الأستاذ حسن بك كامل المطاوى أحد إخواننا فكان يجلس مستمعا إليه ثم يسرع فى كتابة ما يمكن إثباته من أناشيده لأنه فى إنشاده كالنهر المنهمر ، ولا بد للذى يريد تسجيل ما يقول من الاستعانة بأكثر من واحد ممن يستعملون الاختزال فكل ما أمكنه أن يثبته قليل مما كمل لديه من أبيات بعض القصائد الطوال لأنه إذا وفق لكتابة مصرع بيت قد يفوته المصراع الثانى ، وأخيرا ساعده الأخ المحترم أحمد أفندى كامل عبود حسن ونجمله المذهب محمد كمال الدين أفندى من أعيان كفر طهرمس جيزة والأستاذ بكرى أفندى حامد الموظف بالبريد وراجعهم حضرة الأخ الأستاذ ذو الفقار مهران وشقيق الأستاذ محمد زكى عبد السلام الخلوانى وكتبوا سماعا منه ما استطاعوا إثباته من قصائده التى أثبت شيئا منها فى هذا الباب على سبيل المثال ، ولانى أرجو من الله أن نوفق لطبع كل ما جمعه ، فقد بلغ فى وقت قصير حجم ديوان كبير ، جزاؤم الله عن إخوانهم وعن المسلمين خير الجزاء وبارك فيهم جميعا .

وإنَّ الهَوَى يَحْلُو لروحى انْتِشَاقُهُ إذا بَتَّ يَحْلُو لى مع السَّحَرِ السُّحَرُ
نَحْيِيكُمْ يا آلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ تَحِيَّاتٍ مُشْتَقٍ يَضِيقُ به الصَّبْرُ
فَأَتَمُّ مَنِ الدُّنْيَا وَزَهْرَةُ أَهْلِهَا وَأَتَمُّ رِضَا الأُخْرَى وَأَمْرُكَ الأَمْرُ
أَحْنُ إِلَيْكُمْ وَالْحَنَانُ يَهْزِنِ كَطِيرِ سَمَا فى الجَوِّ بِلَهِّ القَطَرِ
أَحْنُ إِلَيْكُمْ وَاللِّقَاءُ سَعَادَةٌ وَيَوْمَ لِقَائِكُمْ عِنْدَنَا العِيدُ والنَّصْرُ

أرواحنا متناسقات

الحِلْمُ زِينَةُ مَنْ تَدَابَّبَ والصَّبْرُ قُوَّةٌ مَنْ تَهَدَّبَ
وَالْعَفْوُ سَيْفُ القَادِرِينَ يُصِيبُ مَنْ فى الحَقِّ أَذْنَبَ
وَالصَّدَقُ مِيزَانُ الرِّجَالِ وَإِنَّهُ الذَّهَبُ المُشْدَّبُ
وَالْحُبُّ مَرْتَبَةُ الحَيَاءِ فَمَا تَعَشَّقَ مَنْ تَشَبَّ
إِنَّ الحُبَّ فى الحَيَاءِ مع الوَقَارِ بِهَا نَهَدَّبَ
فاحْفَظْ عَلَيْكَ وَقَارَ قَلْبِكَ إِنَّهُ الذُّخْرُ المُحِبُّ
وَانْهَضْ عَلَى عِلْمٍ وَسِرٍّ بِالصَّدَقِ حَتَّى لَا تُكْذَّبَ
الحُبُّ إِنْ زَارَ القُلُوبَ فَإِنَّهُ نَارٌ تَلْهَبُ
الحُبُّ حُلُوُّ ذَوْقِهِ وَسَبِيلُهُ مَرٌّ وَأَصْعَبُ
فَاعْشُقْ بِصَّدَقٍ وَاجْتَهِدْ إِنْ رُمْتَ بِالتَّقْوَى تَقَرَّبَ
هَذَا لِسَانُ الرُّوحِ يَنْطِقُ بِالْهُدَى قَصْدًا وَمَأْرَبَ
وَالنُّورِ فى الأَرْوَاحِ مِثْلَ الكَهْرْبَاءِ لِمَنْ تُصَوَّبُ
يُدْنِي البَعِيدَ وَيَجْعَلُ الذَّنْبَ نَجْمَ المُحَاقِّ مِنْكَ أَقْرَبَ
أرواحنا متناسقات وهى للرحمن تُنْسَبُ
قَالُوا بِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فِيمَا تَقَرَّرَ مِنْسَبُ

فأجبتهم أنا نسبتي عبدٌ على الأبواب أُحْسَبُ
 لا تحسبوني إن أقل (أنا) قد أضلُّ هوى وأُحْجَبُ
 أنا عارف قدرى ومن عرف الحقيقة ما تجبُّ
 ولقد شهدت من اليقين موارد الإيمان تكتب
 قلبي يناجي ربَّه وعلى موارد تادب
 لم أنسه أو أننني عنه وروحي فيه تجذب
 لي لذة في ذلِّ قلبي وهو عنه ما تقلب
 إني على أعتابكم لم أرض غير الحب مشرب
 وأدلتني أني ضعيف والضعيف عليك يُحْسَبُ
 ما كنت في الشعراء بالمعروف فيمن قد تصبب
 أرضي الخيال ولست أر ضي غيِّه غرضاً ومطلب
 أنشدته للسامعين هدى من الإيمان تُسَكَّبُ
 لا أعتني بزخارف الأقوال أو ما كان أكذب
 بل كلَّ قولٍ في مواهبه الزكيَّة وهي أصوب
 لست الذي جهل المبالغة التي بالشعر أنسب
 نطقت بلاغتاً بأزنا في سنا الرحمن نرغب
 فذكره يسمو خيال الشعر فينا وهو أعذب
 إني امرؤ درس الأمور ولم يفتنه ما تصوب
 كتبوا عليّ وكتبوا في قلتي لست أحبُّ أكتب
 حرَّيتي رِقُّ لكم فهي المقام وذاك أقرب
 أنا صابرٌ إلا على بعدى فما للصبر مرَّكب
 أرضي العذاب مع الوصول فلا نعيم لمن تهرَّب
 قولوا قبلناكم فهذا في الحياة الخلد يُكْتَبُ

العين تبكى

لِلنَفْسِ مِنْ مَعْنَى الْيَقِينِ هَيَامٌ مِنْهُ يَكُونُ الصَّدَقُ وَالْإِلْهَامُ
وَالْقَلْبُ إِنْ عَرَفَ الْمُهَيَّمِينَ مَوْقِنًا بِجَلَالِهِ لَمْ تُغْرِهِ الْأَحْلَامُ
وَالرُّوحُ إِنْ هِيَ شَاهَدَتْ خَلْقَهَا تَمَّ الْيَقِينَ لَهَا وَالْإِسْتِسْلَامُ
وَالْعَبْدُ إِنْ تَرَكَ الْوَرَى مِنْ قَلْبِهِ لَمْ تَسْتَطِعْ تَغْيِيرَهُ الْأَيَّامُ
وَالنَّفْسُ مَا دَامَتْ تَحَنُّنٌ إِلَى الْلِقَاءِ لَمْ تُثْنِهَا عَنْ قَصْدِهَا الْأَوْهَامُ
أَرْوَاحُنَا مَعْرُوفَةٌ مِنْ يَوْمِهَا مِثَاقُهَا الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ
وَالْعَيْنُ تَبْكِي خَيْفَةً مِنْ بَعْدِهَا وَالْقَلْبُ مِنْ خَوْفِ الْبِعَادِ ضَرَامُ
فَلَنْ صَمْتُ فُؤُومٍ وَلَنْ نَطَقَتْ فَعَارِفٌ وَلَى الشُّهُودِ مَقَامُ
إِنَّ الْمَعَانِيَ لِلنَّفُوسِ مَرَاهِمٌ يَدْرِ دَوَاهَا الصَّائِمُ الْقَوَامُ

أرضى به

الْقَلْبُ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ مَشْهَدُهُ وَفِي بَحَارِ التَّجَلَّى طَابَ مُورَدُهُ
أَلُوذٌ بِاللَّهِ لَا أَبْغَى بِهِ بَدَلًا وَمَنْ يَلِدْ بِجَلَالِ اللَّهِ يُسْعِدُهُ
وَإِنْ لِي بِحَبِيبِي وَصَلَةٌ وَهْدَى وَصَادِقُ الْقَابِ لَا يَنْفَكُ يَشْهَدُهُ
أَرْضَى بِهِ وَهُوَ يَرْضِينِي وَيَغْمِرُنِي بِفَضْلِهِ وَبِهَذَا الْعِلْمِ أَعْبَدُهُ
خَلَصْتُ نَفْسِي لَهُ مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ إِنْ عَشْتُ أَوْمْتُ أَعْضَائِي تَوَحَّدُهُ
وَكَيْفَ أَرْضَى بَغَيْرِ اللَّهِ مَتَجَهَا وَالْكَلِّ وَالْجُزْءِ وَالْأَحْشَاءِ تَحْمَدُهُ

نحكي بالعلم

قَدْ شَرَبْنَا مِنْ حَبَّةٍ فَسَكَرْنَا وَعَرَفْنَا مِنْ أَيْنَ نَأْتِي الْجَوَارَا
وَدَخَلْنَا حَيَّ الْكَرَامِ لَنَرَوْهُ بَيِّقِينَ الْهَدَى وَكُنَّا حَيَارَى

فترانا من حيث نشرب في الكأ س سُكاري ولم نكن بسُكاري
نحن نحكي بالعلم في كل نادٍ قد جعلنا التقى علينا إزارا
فقلوب مثل الكواكب فينا تظهر النور فهو لا يتواري

ذليل على الأبواب

هواك لروحي خير ما أتوقعُ وإني على الأعتاب لا أترزع
وكم دفعتني في الحياة كوارث ولكن بفضل الله ما كنت أدفعُ
بلوتُ زمانى واختبرت رجاله فلم أر غير الله في الخطب ينفع
تركت جميع الخلق لله وحده وعدت له فردا وبالفرد أجمعُ
إذا رجعوا يوما إلى الأصل لم يكن بقلبي سوى اسم الله أصل ومرجع
وإن رتبوا في المال رتبة جاهل فلي ذكر خلاقي متاع ومرتع
ومهما سما حبي فإني مقصر وليس سوى التقصير في القلب أوجع
ضعيف أتيت الله أستمطر الرضا فعُدت وروحي في السموات تلعب
ذليل على الأبواب باك وخاشع ولكن لغير الله ما أنا أخشع
وزنت حياني لا تساوى نقيرها ولكن فضل الله أركى وأوسع
فما سرني صبح ولا ساءني دُجى إذا لم أزل في حضرة الله أرفعُ
ألم تر أن العبد لو يسأل السوى أضاع هداه العمر بل هو أضيع
فكيف بنا لا نجل الله وردنا وأرواحنا في حبه تتجمع

نفثات الغرام

لم يفتني من المحبة معنى إنما كنتُ بالحقيقة معنى
وحبيبي أراه سِرّاً وجهراً هو في الفرد والجماعة معنا^(١)

(١) بفتح العين وسكنت للشعر .

لم أذقْ خَمْرَةً تُثِيرُ ولكن كل جسمي ذوق إذا هو غني
نفثات الغرام تُشعل قلبي من جلال فيه أحياء وأقني
إن أكن في الوردى فقيرا فإني أنا أغني بمن أحب وأقني
نحن نرتاد كل صرح فنرقى بمرأى اليقين حسا ومعنى
وندير الهوى على كل وادٍ بجمال الحبيب حيث سعدنا
عودوني الهوى وقالوا تحمّلْ ذق ولو كنت بالتصبر تنفني
فتحملته وما ضقت ذرعا كيف والحب للمحبين أهله

ساعة تمرّ

إن قلبي لمن أحبّ مقام وبه دائما يطيب المقام
وهواه شأني ومرتع روحي وحماه هو المنى والمرام
أنا في حبه أسودُ حياتي والرضا باسمه على وسام
وعلامات حبه أن أراه وإذا مارأيته لا أنام
شرعنا أن من يحب ويهوى فننام الدجى عليه حرام
أيها العاشق المهيأ للقيا تصبر فالصبر فيه السلام
فحياة العباد لم نلق فيها لدوام هل كان من قبل داموا
إنها ساعة تمرّ وتمضي والبقا يوم أن يكون الزحام
إنما ذمنا الحياة لما فيها من المئين لم يسدّها سلام
لا تسبوا الدنيا على كل حال هي جسر يمرّ منه الكرام
إن زرعتم خيرا بها ونجحتم قد حصدتم خيرا هناك يُقام
اتركوها وشأنها وتعالوا تنهادن فلا يكون خصام
واذكروا أن للنبي علينا أكرم الفضل فهو نعم الإمام
منع الشرك بالكتاب الذي في نوره حكمة لنا واحتكام

حبذا نوره وأنعم بذا النور
يا كراما لجأتُ ضعفاً إليكم
نحن يا آل أحمدٍ قد نهلنا
نحن منكم بكم عليكم إليكم
انظروا لي بعين رفق ولطف
واكتبوني ملك اليمين رقيقاً
يا بن بنت النبي قد جئتُ محياً
فاذا ما عطفْتَ فضلاً علينا
وإذا ما مددتْ كفلك جوداً
وإذا ما رَضيتْ عنا جميعاً

رفقيه قد طاب لي الإِنعام
راجياً أن يكون لي إكرام
وردكم وهو للنفوس زمام
ولديكم وفي يديكم قيام
ما على مَنْ نظرتُمُو آثام
ما على مَنْ ملكتمو إيلام
لَكَمْ مَشَوْقاً تَسْؤِقِي الأحلام
سَعَدَتْ عِنْدَ عطفك الأفهام
نهلتْ من عطائك الأقوام
عمنا العزَّ والمُنَى والهِيام

وأنشدوا له قول الشاعر :

المصطفى ما زال يعلو قدره
فأنشد :

المصطفى ما زال يعلو قدره
طهر فؤادك من شوائب غيّه
يا سيدي ولقد غدوتُ مناجياً
كم من صغير جاء حيّك تائباً
والله ما طراً العناء وساءني
فاذا نهلتُ نهلتُ من نور الهدى
وإذا غفوتُ غفوتُ صبيّاً مغرماً
وإذا خشيت من العدو وكيدِهِ
عودتنا منك الجميل فهب لنا

فسما الزمان أوائلًا وأواخراً
حتّى تقابله فؤاداً طاهراً
عمرى وبِتْ مع الجلال مسامراً
أصحى يسود من الرجال أكابراً
إلا وأذكركه أنصبيح ظافراً
وإذا سكرتُ سكرتُ علماً زاهراً
وإذا أفقتُ رأيتَهُ لي ناظراً
كان النبي هو الملاذ الناصراً
منك الوصول ولا ترد الزائراً

روحى من النجوى تفيض سرائرا
وتزف باسمكم السلام العاطرا
أسمى يساجل في الملوك قياصرا
قدره فأصبح بالمدلة قاهرا
فروى المعارف ناثرا أو شاعرا
أرجو بمدحك أن أسود مظاهرا
أجد الغرام على مد منابر
قلى يظنونى بحبك فاترا
كالريح قد أزجى السحاب الماطرا
حكما تقلبها القلوب مزاهرا
إلا رسول الله سرا ظاهرا
ووقفت نفسى للنبي مثابرا
حال يدوم إلى القيامة حاضرا
فى رسمكم قلبى على الشعرى سرى
كنت المومل لى وكنت الظافرا
يضى على من اليقين سرائرا
فى حبه حتى نسبت الطاهرا
لم يبق فيه صغارا وكبارا
ألفيته بين البرية ظاهرا
وإذا كسبت فقد كسبت جواهرها
حتى أعود على المحبة شاكرا
حتى وصلت فاست أسلك حائرا
يسمو ويزكو بالنفوس ضامرا
حتى غدا فى الكون مسكا عاطرا

أنا إن أكن جسما بعيدا إنما
أرسلتها بفهم النسيم شهيدة
فلكم فقير عز باسمك جاهه
ولكم ذليل ناله من جاهكم
ولكم عيى قد نظرت لروحه
قولى هو الحق الصريح فلم أكن
لم أنس حبك ماحيت وإن أمت
إن كنت صبا أكنم الوجدان فى
أنا هائم ومن المحبة هائج
فأصب فى الإحساس من مهبج الورى
يا هذه الأيام إنى ليس لى
أنا كل شىء فى الحياة تركته
والوقف لا يشرى وليس يباع فى
أنا باسمكم وإلى اسمكم ولوسمكم
لم أنس أيام الطفولة حيثما
ما زال حبك باقيا فى مهبجى
ولقد غسلت بواطنى وظواهرى
نور النبى إذا تمكّن من فتى
نور النبى إذا تمكّن من فتى
فاذا رزقت محبة بفضله
قل لى عليك صلاتنا وسلامنا
أرضيتنى كرما وصاحبى الرضا
ما زال فضلك فى البرية سائرا
ولكم أراه فى العوالم صاعدا

وأنشد على قول لبيد بن ربيعة :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
أرى الرّوضَ مزداً قد اخضرّ عوده
أرى القصر مبنياً ويشمخ عالياً
وكم ملكٍ تهتزّ منه فرائض
وإنّ حياةً تنتهى بفنائها
وإنّ الذى يدعو إليها وينتمى
فمنّ ينتهى بالموت ليس له عملاً
وإنّك لو فكرت فى الموت ساعةً
أنقرحُ فيها وهى للموت مُرتقى
فما العزّ أَرْضانى ولا الحزن ساءنى
أسأله نفسى فلم أر غيره
ولولا الرضا ما كنتُ والله قائماً
أنا الصبُّ صبّ الدمع فى حبّ ربّه
ألا فى سبيل الحبّ لم أرضَ غيره
أصونُ ودادى أن يدنسه الهوى
حوالى فضل الله من كلّ جانب
حوالى إيناس من الله وحده
حوالى نور المصطفى وأنا به
حوالى نجم العلم يسكنُ جبهتى
حوالى إشراق من الشرع ثابت

وكلّ فؤاد لم يؤخّده عاطل
ولكنه فى آخر العهد ذابل
ولكنه إن أعقب الدهر زائل
ومن لحمه دود المقابر آكل
علامَ إذن فيها البقاء نحاول
ألا إنه بين البرية هازل
محاسنه عند المات رذائل
ترى عنده أنّ الحياة مهازل
ونحزنُ فيها والجميع رَواحل
إذا أنا بالبارى المهيمن واصل
لروحي غذاء إن دهنتى الغوائل
على العيش فى الدنيا وقلبي خامل
ومشكاته الإيمان والعفو نائل
وما أنا إلا حيثما الشرع ناهل
وأحفظ عهدى العمر ما أنا غافل
عزيز غزير جاره اليوم واصل
وما لعبتُ يوماً بعقلى الشواغل
أموتُ وأحيا إنه لى مناهل
أسألمُ أيامى وما أنا جاهل
وشمس التجلى ما عليها حوائل

فَقُولُوا لِمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الْعَيْشَ خَلْفَهُ رُوَيْدَكَ إِنَّ الْكَلَّ بِالْمَوْتِ رَاحِلٌ
رُوَيْدَكَ مَا بَاقٍ عَلَى الْعَيْشِ نَاعِمٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَامِحَالَةٍ زَائِلٌ

الناس لا يدرون

طَابَ النَّهْيُ وَازْدَانَتْ الْآثَارُ وَحَلَا الْغَرَامُ وَفَاضَتْ الْأَسْرَارُ
إِنْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنُ فِي دَارِ أَمْرٍ حَلَّ الْهَدَاءُ بِهَا وَنِعَمَ الدَّارُ
وَاللَّيْلُ بَيْنَ سَوَادِهِ وَسُكُونِهِ بِالذِّكْرِ تَكْشِيفُ سِتْرِهِ الْأَنْوَارُ
لَا تَسَامُوا مِنْ حُبِّهِ لَا تَسَامُوا مِنْ ذِكْرِهِ فَهَذَا الْعَطَاءُ يُدَارُ
قَوْمِي أَطْمَئِنُّوا فِي الْحَيَاةِ بِرَبِّكُمْ فَبِذِكْرِهِ تَنْتَعِمُ الْأَبْرَارُ
إِنْ تَنْصَرُوا الرَّحْمَنُ يَنْصَرِكُمْ وَمَا خَابَتْ رِجَالُهُمْ لَهُ أَنْصَارُ
وَالْأَرْضُ إِنْ تُرَوَّى بِمَاءٍ صَالِحٍ نَبَتَتْ بِهِ فِي الرُّوْضَةِ الْأَشْجَارُ
وَالزَّرْعُ إِنْ تَعَهَّدَهُ حِينَ صِلَاحِهِ أَكْمَلَهُ عِبَقَتْ بِهَا الْأَزْهَارُ
وَالْقَلْبُ رَوْضٌ وَالْيَقِينُ ثَمَارُهُ فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِهِ تَطْيِبُ ثَمَارُ
دُنْيَاكَ مَرْتَبَةُ الْغُرُورِ فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ وَلَا تَلْعَبْ بِكَ الْأَشْرَارُ
كَمْ مِنْ جَهُولٍ ظَنَّهُ فِي جَنَّةٍ وَعَلَى جَوَانِحِهِ تَدُورُ النَّارُ
عَمَلٌ بِلَا عِلْمٍ رَجَاءٌ ضَائِعٌ وَالْعِلْمُ لَا تَعْمَلُ بِهِ لَكَ عَارُ
عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ زَهْوٌ عُطِّلَتْ كَالرُّوْضِ قَدْ جَفَّتْ بِهِ الْأَثْمَارُ
هَذَا لَهُذَا لَازِمٌ هَذَا بِهِذَا قَائِمٌ فَلْتَسْعِدِ الْأَخْيَارُ
وَابْنُ الطَّرِيقِ بَغِيرَ عِلْمٍ غَافِلٌ إِنَّ الطَّرِيقَةَ كُلَّهَا أَسْرَارُ
قَدْ ضَلَّ مَنْ تَرَكَ السِّلَاحَ وَرَاءَهُ إِنْ السِّلَاحُ بِهِ الْجِهَادُ يُدَارُ
فَإِذَا خَلُوتَ مِنَ السِّلَاحِ فَأَنْتَ مِنْ نَهْبِ الْعَدُوِّ وَمَا تَضُمَّكَ دَارُ
أَصْبِرْ تَفَرَّ وَادْكُرْ تَحْزُرْ وَاعْرِفْ تَلْذُ وَاسْلَمْ بَقْلَبِكَ إِنَّهُ غَفَّارُ

فإذا سألتَ حَبَاكَ من آلائه ربَّ العباد المنعمُ الستار
واحذر تقل (أنا) قبل موتك إنه مَنْ قالها في عُرْفنا كِفَار
ودع العباد وشأنهم لِإِلَهِهم إذ ما عليك من الوري أوزار
الناس لا يدرون خاتمة المطا ف فَرُبَّ ذِي شَعَثٍ له إيثار
ليس التصوف بالظواهر إنما هو للبواطن حُلَّةٌ وشِعَار
كم ضاحك لكنه في محنةٍ كم خائف لكنه مختار
من أدركوها عشقوا ومن ذاقوا أرتووا إنَّ الحجة كلها أسرار

وشرابي حبَّ حضرته

أنا صبُّ ثابت القدم مُستَهام القلب من قِدَم
يحتليني الحب في سهري ونجوم الليل من خَدَمِي
أملئ في الله يقبلني فسوى الرحمن لم أُرَمِ
لم يُثِرْنِي الناس في كَلِمٍ إنما الله مدى كلمي
إنَّ أَرَادُونِي لمدح فتى لم تفه بالمدح بنت فمي
وإذا ما رمت أذكره فاض مني سائل العرم
لَسْتُ هَجَاءً لَأَي فتى إنني عن كل ذاك عَمِي
وشرابي حبَّ حضرته فهو مأمولى ومغتنمى
عزتي بالله واصلتي وقوى الإيمان مُعْتَصِمِي
إنَّ قلبي في محبته قلب صبٍّ غير مُنْقَصِمِ
عصمة الروح أعرفها هُوَ عِنْدِي أَصْدَقُ الْعِصَمِ
أنا من حبي لحضرته لم أَفِقْ من لذة النغم
أنا من شوقي لحضرته تارك للناس كلهم

ليس يغنيني سواه هوى وهواه منتهى همى
 لم أزل في حى حضرته مرتعا للعلم والحكم
 وفؤادى من هدايته يرتوى من مورد الكرم
 إنما روى بحكمته نغيت من حوضه الشيم
 ولقد شاهدت رحمته وهى تهدينى هدى الشيم
 وبقلبي من محبته همّة من أعظم المهم
 أيها الباكي وكل فتى ذاق طعم الحب لم ينم
 من يدق ذوق ويدركه ويرى ما بى فلا يلم
 حاجنى وجدى وبى حرق لم تكن من شدة الضرم
 بل هى الأنوار يقذفها فسرت فى محبتي ودمى

وإني فتى لم يدخل الغير قلبه

فؤادى إلى نور النبي يسير وذنبى فى غفو الإله يسير
 وإني فتى لم يدخل الغير قلبه ولكنى فى العاشقين غيور
 أمتع روى بالكريم وحبّه ولا شك أنى للإله أسير
 ولم ألتفت إلا إليه وذكره وهذا فؤادى فى الغرام يسير
 فلا تحسبوني قد تركت محبتي فقلبي فى نجوى اليقين يدور
 وإن أدكر ذنبى وعظم بليتي وما ضاع من عمرى أكاد أمور
 ومن لم يعظم ربه فى مسيره فليس له فى السالكين نصير
 ومن لم يعلم روحه حب ربه فليس له بين القلوب مصير
 فلا تجعلوا الدنيا مرادا ومطلباً فما كل من خاض الطريق يسير

وسارع للتعق

هي الدنيا يسيرها القضاء وليس لأمرنا فيها اقتضاء
ولو أن الأمور كما أردنا وحقك أسكنت منا السماء
إذا مارمت للمولى تجرد عن الدنيا يتم لك الصفاء
ألا لا تدعى ما لست تدري فكم علم يضيئه ادعاء
وسارع للتعق أبداً بجدد فإن الجد يعقبه الرخاء
فما الدنيا تدوم على محب ولا عيش يلزمه هناء
فكم فيها ترى رجلاً ثرياً وعند الموت ليس له ثراء
غذاء الجسم من ماء وخبز وأما النفس فالنور الغذاء
إذا حكم الإله بأي شيء جرت أحكامه وله القضاء

طلب إليه أن يقول على البيت الآتي :

الله قل وذو الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

الله قل وذو الوجود وما حوى متأدباً في ساحة الإجلال
سلم لتسلم من حياتك إنه من أسلم التقوى سما بظلال
واجعل لنفسك من قضا الله الرضا حتى تكون موفق الأعمال
فتشت كل الخلق عن علم فلم أر لي سوى رب السما من وإلى
فتركت كل العالمين وجهته وجعلت ذكرى ذاته منوالى
حسب الحب من المحبة أنه يهدى بها للخالق الفعال
إن كنت تحسب أن في المال الغنى أنا قد جعلت رضا المهيمن مالى
أنا إن أكن أجنى الذنوب فإنما روى ارتمت في بحره الغسال

مَدُّ الْيَدَيْنِ إِلَيْكَ أَفْضَلُ شَرْعَةً
أَنَا عِنْدَ ظَنِّي فِيكَ أَنْكَ مُكْرَمِي
فَاجْعَلْ هَذَاكَ شَرِيعَتِي وَذَرِيعَتِي
يَا رَبِّ قَلْبِي قَدْ غَسَلْتُ مِنَ الْوَرَى
هَيَّجَتْنِي بِالْحُبِّ ثُمَّ مَلَأْتَنِي
رُوحُ الْهُدَى رَوْحِي وَرِيحَانُ الرِّضَا
بِالْحُبِّ كُنْتُ وَلَا أزال فَإِنْ أُمْتُ
إِنْ مَرَّ بِي عَصْفُ الزَّمَانِ وَقَصَفُهُ
أُحِبُّهُ وَأَخَافُ سَطْوَةَ غَيْرِهِ
رَوْضُ الْحُبِّ قَدْ شَهِدْتُ جَلَالَهُ
وَالْقَوْلُ لَا يُغْنِي بِلَا قَلْبٍ فَإِنْ
بِأَنْفُسٍ إِنِّي لَا أُمَالِي غَيْرِهِ
اللَّهُ قَرَّبَنِي إِلَيْهِ بِذَاتِهِ
إِنَّ الَّذِي فَهَمَ الْحُبَّ قَلْبُهُ
إِنَّ الَّذِي فَهَمَ الْحُبَّ قَلْبُهُ
سَلَّمَ لِرَبِّكَ أَمْرَهُ وَاتْرَكَ لَهُ
وَذَرَّ الْعِبَادَ وَشَأْنَهُمْ وَفَعَالَهُمْ

وَلَعَيَّرَ وَجْهَكَ لَا يَصِحُّ سُؤَالِي
مَعَ ذِلَّتِي وَجِلَاجَتِي وَجِدَالِي
وَاجْعَلْ شَهُودَكَ لِي مَسْرَةً حَالِي
إِذْ لَيْسَ غَيْرُكَ مَا ذَكَرْتُ بِيَالِي
بِالنُّورِ وَالتَّقْوَى وَفِيضِ كَمَالِي
رَاحِي وَقَلْبِي صَادِقُ التَّسْأَلِ
لَمْ تَأْتِرْزِ رَوْحِي بِشَوْبِ زَوَالِ
وَاللَّهُ لَسْتُ بِمَا شَهِدْتُ أُبَالِي
هَذَا وَحَقِّكَ لَا تَعْيِيهِ خِصَالِي
وَجْهَالُهُ فَنَبْتُ فِي أَحْوَالِي
تَنْطِقُ فَكُنْ بِالنَّاطِقِ الْمِفْضَالِ
قُوِي إِلَى حَوْضِ الْكَرِيمِ تَعَالَى
لَمْ يَرْضَ لِي فِي الْحُبِّ أَىَّ تَعَالَى
فِي الْقَدْرِ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ عَالِ
لَمْ يَتَّجِهْ يَوْمًا لَالَ زَوَالِ
أَقْدَارُهُ وَاحْذَرُ مِنَ الْأَقْوَالِ
إِنْ كُنْتُ مَرْتَادًا بُلُوغَ كَمَالِ

إن الطريق هي الذكر الكثير

الناس إن تبعوا الدنيا بما عرفوا
وإن هم جعلوا الشرع الشريف لهم
لا تجعلوا غيبتكم في أنفسكم أربا
إن الطريق هي الذكر الكثير فلقد

من غير تقوى تراهم في الضلال عموا
روحا تراهم بنور الشرع قد فهموا
فالنفس خصم ومن شيطانها حكم
بالذكر هذا هو التقوى هو القدم

وأنشد على قول الشاعر :

مررت على المروءة وهى تبكى فقلت علام تنتحب الفتاة
فقلت كيف لا أبكى وأهلى جميعا دون خلق الله ماتوا

مَرَرْتُ عَلَى الْمَرْوَةِ وَهِيَ تَبْكِي فَقَدْ قَلَّتْ مِنَ الدُّنْيَا الْهُدَاةُ
مَدَامَعُهَا عَلَى الدُّنْيَا حَرِيقُ لَقَدْ دِيسَتْ وَأَهْمَلَهَا الرُّوَاةُ
وَحَيَّ لِلْمَرْوَةِ لَيْسَ بَيْنِي يُعَدُّ مِنَ الْأُولَى مِنْ قَبْلِ مَاتُوا
إِذَا فَقَدْ الْمَرْوَةُ أَيْ قَوْمُ فَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَيَاةُ
وَإِنَّ مَرْوَةً مِنْ غَيْرِ دِينِ ضَلَالٌ لَا تَقُولُ بِهِ الثَّقَاتُ
وَأَيُّ مَرْوَةٍ وَالنُّبْلُ يَبْكِي لَفَقَدَ الدِّينَ لَيْسَ لَهُ سِمَاتُ
تَرَكْنَا حُدَّ مَوْلَانَا وَرَاءَ تَنَازَعْنَا بِذَلِكَ التَّانِزَاتِ
وَقَلَدْنَا سَوَانَا عَنْ ضَلَالِ وَقَدْ لَعِبْتَ بِأَكْثَرِنَا الْغَوَاةِ
أَنْبَنَى الدُّورَ مِنْ أَجْلِ الْمَلَاهِي وَهَاتِيكَ الْمَسَاجِدَ خَارِبَاتِ
وَكَمْ يَلْقَى الْفَسَادُ بِنَا احْتِرَامَا وَأَهْلَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا مَوَاتِ
إِذَا وَعَظَ الْوَرَى الْوَعَاظُ يَوْمَا فَتَسْخَرُ بِالْكَلَامِ النَّاشِآتِ
مَجَلَاتِ تَتِيرُ لَنَا فُسَادَا غَوَانُ فِي الصَّحَائِفِ عَارِيَاتِ
يَسِرُ بِهَا الشَّبَابُ وَيَقْتَنِيهَا وَلَا يُشْرَى الْوُضُوءُ وَلَا الصَّلَاةُ
إِذَا مَا شَاهَدُوا لِكِتَابِ دِينِ بَضَاعَتُهُمْ لَدَيْهِ كَاسِدَاتِ
وَأَوْرَاقِ الْمَلَاهِي فِي انْتِشَارِ بَيُوتِ بِالْمَلَاهِي عَامِرَاتِ
وَكَمْ رَمْضَانَ نَحْيِيهِ بِأَثَمِ لِيَالِيهِ بَلْهُو سَاهِرَاتِ
نَحْجُ الْبَيْتَ رَوَادَا وَلَكِنْ قُلُوبٌ بَعْدَ ذَلِكَ مَخْرِبَاتِ
وَكَمْ ذَا نَدَعَى نَعْطَى زَكَاةَ وَلَيْسَ لَنَا مَعَ الْمَوْلَى زَكَاةُ
نَبِيعَ وَنَشْتَرِي لَكِنْ حَرَامَا وَأَبْوَابُ الْحَالِ مَعْطَلَاتِ

وكم يفسو الربا فينا جهارا
محاكنا قد امتلأت نساء
وأخلاق تمزق كل يوم
وكم داع إلى التقوى افتخارا
وقد كثر الكلام على البرايا
طباع الناس أمست كالأفاعي
وأهل الحق قد كبتوا وأوذوا
لذاك أرى المروءة في انتخاب
(فقالت كيف لا أبكي وأهلى)
وأسمى حينهم ميتا ومهما
وإن أنصحهم خلّوا سبيلي
أقول لهم حدود الله فيكم
وإن قلت احكموا بالدين يوما
هُوَاة الإثم في بلدى رعاة
وأهل المال في جهل تساموا
إذا زمن فقدنا الدين فيه
أفنش لا أرى أهلى أمانى

وتعجبنا الفتاوى الفاسدات
وهل ترضى بكثرتها القضاة
ثياب بالضلّال مرقعات
وليس له من التقوى صلوات
وضل العقل إذ قل الثبات
فأضعفها ملامس لاذعات
وأهل الزيغ في صلف دعاة
(فقلت علام تنتحب الفتاة)
عدمهمو فكلهمو شتات
أَجْمَعُهُمْ فهم قوم رفات
أأنصح مَنْ تولّته الوفاة
يقال تأخّر — قبحت صفات
يُقَالُ ضللتهمو أين القضاة
وأهل الزيغ بالبلوى سعاة
وأهل العلم ليس لهم حياة
فأيام السعادة ذاهبات
(جميعا دون خلق الله ماتوا)

اعتصم بالكتاب

أنا في الحب لا أزال حيا
أسأل الله وعده ولقاه
كيف أنسى ذات الحبيب وقلبي

مُسْتَمِدًّا للشرع ما دُمْتُ حيا
إنه كان وَعْدُهُ مأتيا
يعبد الله بكرة وعشيا

نَفْسُ إِنْ جِئْتَ حَيَّةً فَاسْتَرِيحِي لَتَنَالِي بِهِ الْمَقَامَ الْعَلِيَّ
وَاصْبِرِي وَاحْذِرِي وَسِيرِي تَقَرَّرِي وَاعْشَقِي تَدْرِكِي الْأَمَانَ الْقَوِيَّ
أَذْكُرُ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُ سَبِيلًا ذَاكِرُ اللَّهِ عَادَ مِنْهُ وَلِيًّا
وَاعْتَصِمُ بِالْكِتَابِ فِي كُلِّ شَيْءٍ قَدْ وَجَدْنَا الْكِتَابَ حَبْلًا قَوِيًّا
وَتَجَرَّدُ عَنْ كُلِّ شَرٍّ سِوَاهُ فَإِذَا مَتَّ بِالْحُبَّةِ تُحْيَا

اقصد الله

يَا مَرِيدَا لِلنَّفْسِ مَعْنَى عِلَاهَا احْفَظِ النَّفْسَ بِالتَّقَى مِنْ أَذَاهَا
وَاقْصِدِ اللَّهَ وَحْدَهُ وَتَوَاضَعْ إِنَّ فَضْلَ الْإِلَهِ لَا يَتَنَاهَى
وَسَلِ اللَّهَ مَا تَشَاءُ بِعِزِّهِ وَاجْعَلِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ الْجَاهَا
أَحْزَمِ النَّاسَ مَنْ إِذَا نَالَ رِزْقًا عَاشَ بِالذَّلِّ وَهُوَ لَا يَتَبَاهَى
قَدْ صَدَقْنَا الرَّحْمَنَ سِرًّا وَجَهْرًا وَنَفِينَا الْأُمَثَالَ وَالْأَشْبَاهَا
وَأَدَّخَرْنَا رِضَاهَ يَوْمِ لِقَاةِ لَمْ نُحَرِّكْ إِلَّا بِذَلِكَ الشِّفَاهَا
وَأَتَيْنَا لِدَارِهِ بِقُلُوبِ ذَاتِ سَقَمٍ نَرْجُو بِذَلِكَ الشِّفَاهَا
لَا تَلُومُوا عَلَى الْحُبَّةِ عَبْدًا عَاشَ بِالْقَلْبِ عَاشِقًا أَوْهَا

عجزي عن الإدراك إدراكى به

حَبِّ الْمُهَيْمَنِ بِالْيَقِينِ زَوَانِي وَإِلَى الْجَلَالِ شَهُودِهِ أَرْجَانِي
أَصْبَحْتُ لَا أُلَوِي عَنَانِي لِلْوَرَى مَا دَمْتُ بِالْبَارِي رَفَعْتُ بَيَانِي
عَجَزِي عَنِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكِ بِهِ جَلَّ الْمَقَامَ فَمَا يُبَيِّنُ لِسَانِي
فَبِحُبَّةٍ وَبِسِرِّهِ وَبَنُورِهِ رُوحَ الْيَقِينِ أَظْلَمَنِي وَكَسَانِي
يَأْيَاهَا الْقَلْبُ الْمُهَيَّأَ بِالرِّضَا صُغْتُ مِنْ هَوَاهُ أَعَذَبَ الْأَلْحَانِ

من بجره تجد الجواهر أطلقت
 من يطلب الرحمن جلّ جلاله
 إن حدّثوا عنى فإنى مغرم
 أصبو بروحى فى حماه وأنتمى
 لم أخلط الأحكام بالأحوال فى
 إن كان حب الله ذنبى عندهم
 قد وشحتك بأجل التيجان
 لم يخش بعدّ لعادل أو شانى
 متمسك بالواحد الديان
 فالعشق تاجى واليقين بيانى
 طلب الوصول فشرعه أهدانى
 هذا لعمرى بالمقام كفى

واديننا المحبة والذكر

لأهل التجلّى فى محبتهم سرّ
 لنا درجات المؤمنين وسيرنا
 ولى قوّة العشاق لو أن سكبتها
 ولو أن وجدى أدرك الطود بعضه
 ولو أن وجدى أدرك الطير بعضه
 أريقوا دى فالحب ليس بهين
 أخذت الهوى محض اختيارى ورغبتى
 وقفت على نجوى الإله جوانحى
 وأخلّيت قلبى من مناجاة غيره
 جعلت حياتى ذلّة وتواضعا
 وإنى إذا حدّثت قومى فإنما
 ولم أك من أهل الخيال وإنما
 ونست الذى فى كل وادٍ مردداً
 فما أنا بالمدّاح زيدا لماله
 ومن نفثات القوم قد لمع البدر
 على سنّة المختار طاب بها الأجر
 على الصخر من عليها نطق الصخر
 لأصبح من نور الهدى ترّبه تبر
 لأفصح بالإعجاز فى شدوه الطير
 وإنى امرؤ فى الوجد ما أنا مضطر
 وإن اختيار الحب عندى هو الخير
 لذلك قلبى منزل كله ذكر
 فأصبح طودا لا يزلله الغير
 ومثلى فى أقواله كمن الدّر
 أحدهم علما يقال له شعر
 علوم الهدى من حكمتى فيضها بحر
 ولكن واديننا المحبة والذكر
 ولا أنا بالهجاء إن منيع البر

ولكن لي في حضرة الله نشوة
 شرحت لهم شرح الحيين عن هدى
 أسارع مشتاقا وأسكت هائما
 ففي يقظتي شوق وفي غفوتي هوى
 أسارع معتزا بربي وذكره
 ومن يعتصم بالله يسلم من الورى
 ومن يعتصم بالله يحفظ فؤاده
 ذكاؤك محسوب عليك فخله
 يطوف بها قلبي إذا ارتفع الستر
 وعند أولى الأبواب لم يعرف الغير
 وأنطق إجلالا وما عاقني سير
 وفي مشيتي علم وفي وقفتي سر
 ومن يعتصم بالله لم يبله الضر
 ومن يتخلص من سواه له الخير
 ومن يتجه لله تم له الأمر
 لربك تلقاه إذا حارب الدهر

وأنشد على قول الشاعر :

كل شيء به ظهرت علينا فاختفين يا نور في ظلماتك

كل شيء به ظهرت علينا فشر بنا الكؤوس من آياتك
 ورأينا من الجلال شهودا فغسلنا الفؤاد من لمحاتك
 أنا قد أستر الغرام عن الغير ولكن الدمع للستر هاتك
 فتجمل يا قلب بالحلم والحكمة واصبر تقيك من عثراتك
 وإذا ما لجأت لله سرا فاحذر البطء خشية من فوانك
 إشوني يا غرام واحرق ضلوعي أنا صبأ اشتاق من جمراتك
 قد تأدبت في المحبة والوجـد فروحى والله من لحظاتك
 وإذا ما تم الشهود علينا انغمسنا والله في نفحاتك
 وإذا ما أدبرت كنا فنا فاختفين يا نور في ظلماتك

نحن في عالم اليقين رجال

حكمت قوة الغرام علينا ففمنينا ومن يدق فهو يفي
 ولزمنا من المحبة علما قد شرحناه بينا فاسترحنا

إِنَّمَا الْحَبُّ رَغْبَةً فَاتَّبَاعُ قَفْنَاءُ مِنْ الْبَقَا فِيهِ مَعْنَى
 نَحْنُ فِي عَالَمِ الْيَقِينِ رِجَالٌ قَدْ غَسَلْنَا نَفُوسَنَا ثُمَّ غَبْنَا
 وَشَرَابُ الرِّجَالِ عِلْمٌ وَحِلْمٌ إِنَّمَا نَحْنُ فَوْقَ ذَاكَ شَرِبْنَا
 فَتَحَ الْبَابَ ثُمَّ قَالَ لِحُوهِ فَوَلَّجْنَا وَبَعْدَهَا قَدْ وَصَلْنَا
 أَجْدَ النَّزْلِ أَقْرَبَ الْبَابِ إِلَى اللَّهِ لِهَذَا عَنْ الْعِبَادِ افْتَرَقْنَا
 أَيُّهَا الْمُسْتَجِيرُ بِاللَّهِ طَهَّرْ قَلْبَكَ الْعَمْرُ مِنْ سِوَى اللَّهِ تَغْنَى
 إِنَّ قَلْبًا يَعْيشُ بِالنَّزْلِ لِلنَّاسِ سَ يَعْيشُ الْحَيَاةَ مِنْهُمْ مُعْنَى

ومن بعض إنشاده :

كُلُّ شَيْءٍ هَيِّنٌ مُطْلَبُهُ فَارِجُ وَجْهِ اللَّهِ وَاصْدُقْ فِي السَّهْرِ
 وَتَعَلَّقْ بِسِتَارِ الْحَبِّ فِي حِمِّهِ وَالْزِمْ حِمَاهُ وَاصْطَبِرْ
 قُلْ إِذَا اللَّيْلُ صَفَا فِي جَنَحِهِ غَنِّ يَا طَيْرُ وَطُلْ بِي يَا سَحَرُ
 أَنَا مِنْ حَبْكُمُ فِي لَهْفٍ إِنْ سَحَرَ الْوَجْدُ لِي أَهْنَا سَمِرُ
 سَكِرَتْ نَفْسِي مِنْ صَبَوْتِهَا لَمْ أَذُقْ طَوْلَ الصَّبَا أَيْ سَكِرَ
 وَشَرَابُ الْحَبِّ لَا يُطْرِبُنِي بَيْنَ أَنْعَامٍ قِيَانٍ وَقَرُ
 إِنَّمَا الْحَبُّ لِرُوحِي ذِكْرُهُ فَقَوَادِي عِنْدَ ذِكْرِهِ يُسَرُّ
 أَنْتَ مَحْيَايَ وَقَلْبِي وَلَهُ أَنْتَ رُوحِي يَوْمٌ — كَلَّا لَا وَزَرَ
 يَا أَوَّلَى الْوَجْدِ وَعِنْدِي شَغَفٌ لَمْ يُمَتْنِي لَا وَلَا جِسْمِي قَبْرُ
 بَلْ إِذَا الرَّمْسُ طَوَّأَنِي سَاقِي صَادِحًا فِي السَّكُونِ أُسْرَى كَالْقَمَرِ

اصدقوا تؤجروا

قِيلَ لِي خُذْ لِلْقَلْبِ نِعَمَ الْجَاهِ قُلْتُ رَبِّي فِي حَبِّهِ أَجْلَاهُ (١)
 قِيلَ فَاخِرُ بَأَى أَصْلَ تَرَاهُ قُلْتُ نَفْرَى بِأَنْفَى أَهْوَاهُ

(١) أَلْجَاءُ بِالْهَمْزِ وَتَرَكَهُ لِمُضَرَّةِ الشَّعْرِ .

حَسَبُ النَّاسِ فِي الْجُدُودِ وَلَكِنْ حَسَبُ الْمُؤْمِنِ الْحُبُّ لِلَّهِ
 إِنْ مِنْ وَجْهِ السَّرِيرَةِ لِلَّهِ شَفَى اللَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ دَاهُ (١)
 مِنْ يَنَادِي الْكَرِيمَ عَجْزًا وَذَلًا قَدْ أَجَابَ الْكَرِيمُ فَضْلًا نَدَاهُ (٢)
 إِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّ إِلَاهَهُ كَرِيمٌ أَتْرَاهُ يَرُدُّ مِنْ نَادَاهُ
 اصْدُقُوا تَوْجَرُوا أَثَابَكُمْ اللَّهُ إِذَا الصَّدَقُ عَزَهُ وَرِضَاهُ
 لَوْ بِأَعْمَالِنَا نَكَفًا ضَعُنَا إِنَّمَا عَفْوُهُ وَحَسَنُ عَطَاهُ
 إِنْ رَجَوْنَا فَالْجَاءَ مِنَ الْعَبْدِ جَمِيلٌ إِذَا دَعَا مَوْلَاهُ
 رَبُّ رَفَقًا بَيْنَ أَثَاكَ ضَعِيفًا حَامِلًا ثَقْلَهُ كَثِيرًا أَذَاهُ
 إِنْ رَبِّي بِمَا تَقَرَّرُ أَوْلَى لَا يَرُدُّ الضَّعِيفُ إِنْ نَاجَاهُ
 أَنَا بَاكَ وَلَسْتُ يَوْمًا بِشَاكَ كَيْفَ أَشْكُو وَالْقَلْبُ حَلَّ حَمَاهُ

وَأُنْشِدُ فِي مَدْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

سَاجِدٌ تَحْتَ عَرْشِ رَبِّكَ تَرُقُّ شَأْنُكَ الْجَدُّ وَالْعَلَا وَالرَّقَى
 أَنَا إِنْ قُلْتُ عَاشِقٌ وَحُبُّ فَقَوَادِي مِنَ النَّبِيِّ حَيِّ
 وَلِسَانِي لَا يَسْتَطِيعُ مَدِيحًا وَجَنَانِي عَنْهُ الْمَقَامُ خَفِيٌّ
 كَمْ ذَلِيلٌ رَمَقَتْهُ بِجَلَالِ عَادَ وَهُوَ الْقَوِيُّ وَهُوَ الزَّكِيُّ
 وَفَقِيرٌ مَنَحَتْهُ بِشَهُودِ رُدُّ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَهُوَ غَنِيٌّ
 وَشَقِيٌّ دَعَاكَ دَعْوَةً صَدَقَ عَادَ بَعْدَ الشَّقَاءِ وَهُوَ وَلِيٌّ

أَفَرَّغْ دَمُوعَكَ

يَا أَيُّهَا الْمَغْرَمُ السَّارَى لِسَيِّدِهِ رُوحُ الْحَبِيبِينَ تَحْقِيقٌ وَتَجْرِيدٌ
 وَلَا يَلِيْقُ سِوَى الذِّكْرِ وَنَشْوَتَهَا وَلَا يَجُوزُ عَلَى الْعِشَاقِ تَشْدِيدٌ

(١) أصلها داءه وحذفت الهمزة للشعر .

(٢) الأصل نداهه حذفت أيضا للشعر ومثلها رضاه وعطاه في الآيات بعده .

إن الذي أشرقت في الله وجهته فإنه بعباء الله مجدود
أفرغ دموعك حبا في جلالته عسى ينالك باسم الله تأييد
سارع إلى الله معتزا برحمته فالكل عبد ورب الكل معبود
وكل شيء له معنى تتمجده وليس لي غير معنى الذكر تمجيد
قالوا اتخذ لك جاها قلت واعجبي أغير ربِّي إيمان وتوحيد
أطوف بالحي صببا في مكارمه ياربَّ صَبِّ رواه البر والجد
وإنما أنا فان في محبته لكنني في كتاب الحب موجود
أموت وحدى بقلبي وهو يُرجعني والرجع بعد الفنا علم وتوحيد
مالذ لي غير شدوي في مواهبه وإنما أنا مشهود وموعود

النوم والأحلام

النوم : هو حالة استرخاء القوى البدنية عند التعب للراحة ، لأن الجسد لا يستطيع العمل مع الروح عملا متواصلا إلا في حالات شاذة ، أو لأفراد وهبهم الله قوة وأعصابا أقوى من أعصاب غيرهم يستطيعون بها العمل لأوقات تزيد عما يستطيعه سائر الناس ، ولكن لا بد لهم من غفوة تستريح فيها أعصابهم ولو لحظة ، وفي حالة النوم ^(١) تتعطل حواس الجسد ويتعطل معه الشعور الحسى في هذا العالم تعطيلًا وسطًا ، لذلك تجرد الروح نفسها مقيدة في العالم الظاهر وتبقى بين عالم الغيب وعالم الشهادة لا تستقر على حال ، وقد تبقى محيطة بالجسد حرصا عليه لتعلقها الشديد به خصوصا أثناء المرض والخوف . أما إذا كانت زوحا كاملة السموة قوية بما اكتسبته من الأعمال الصالحة حتى صار لها إشعاع في عالم الغيب وكان الجسد صحيحا معافا أمكنها إذا أذن لها الله سبحانه وتعالى أن تسبح في عالم الجبروت متمكنة لها إرادة وإلا فلا .

والمهم في موضوعنا هذا أن نبحث حالة الروح أثناء النوم وهل تستمد قوة الإرادة

(١) نقل الجلال السيوطي رضى الله عنه عن سيدنا ابن عباس في قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) الآية . قال : في جوف الإنسان نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فيتوفى الله النفس في منامه ويدع الروح تتقلب وتعيش ، فإن أراد الله أن يقبضه قبض الروح فأت ، وإن أخره رد النفس إلى مكانها من جوفه ، وقال مقاتل : للإنسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فبهما يتقلب ويتنفس ، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين ، فإذا أراد الله أن يميتها أخرجه تلك النفس التي خرجت . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : في كل جسد روحان أحدهما روح اليقظة التي أجرى الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان الإنسان متيقظا فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان ورأت تلك الروح المنامات والأخرى روح الحياة التي أجرى الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان حيا فإذا فارقته ماتت فإذا رجعت إليه حي ، وهاتان الروحان في بطن الإنسان ولا يعرف مقرهما إلا من أطلعه الله على ذلك فهما كجنينين في بطن امرأة واحدة ، ولعله في هذا يخبر عن الروح الحيوانية في صنوبر القلب التي تتصل بها الروح لمباشرة أحواله الجسد فيراجع باب الروح ، ويسمى علماء اليوم حالة الروح عند النوم وميلانها بالطرح الروحي ويقولون (إن الإنسان إذا نام خرجت روحه التي يعقل بها الأشياء أو هجعت عن تدبيره ولها شعاع متصل به يعبر عنه بالسيل الكهربائي فيرى الرؤيا بتلك الروح وتبقى الحياة وما يتبعها من الآلات والقوى ، وإذا مات فارقته النفس مفارقة كلية وتلاشت روحه الحيوانية) وعلى كل حال فكلهم لا يعول عليه لأنه كلام على غير بصيرة ولو مزجوه بما يشبه الحقيقة .

أم تسكن ؟ لأن على هذا يتوقف معرفة إمكانها السبح في العوالم الأخرى وإلى أى مدى تسير ، ولكن قبل أن نخوض في هذا نقف برهة عند الحكم التى نستلهمها من آية النوم . قال الله سبحانه وتعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » (١) وأحسب أنى أتفق مع كثير غيرى فى استلهم بعض هذه الحكم .

أولا : نرى الإنسان يخضع لقانون النوم قهرا عنه إذ لا بد أن ينام ليريح جسده وأعصابه مدة من الزمن قررها الأطباء حسب السن ليستيقظ الجسد يقظا ليعاود عمله بنشاط فى هذا العالم المادى ، وهذا هو العجز الذى يوجب عليه العمل طبقا لقانون الحياة ، قال الله سبحانه وتعالى « وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا . وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا » (٢) .

ثانيا : يرى الإنسان نفسه مقهورا على النوم فإذا ما نام يسلم نفسه بالرغم منه لخالقه « اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » (٣) ولا يملك الصحو إلا إذا أعاده الله وأيقظه ، كما أنه لا يستريح فى نومه إلا إذا وهبه الله الطمأنينة والراحة ، فيفهم أنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فى ظاهر الأمر وباطنه أثناء نومه فيرجع الخلق بقلبه إلى خالقه اضطرابا فيسلم نفسه جثة لا تتحرك إلا بإذنه سواء أجرى الله هذا الإذن إليه مباشرة أو بعثه على يد من يشاء من خلقه ؛ وفى هذا أكبر موعظة للإنسان ليتذكر هجرة الموت وأنه لا يملك لنفسه حياة ولا موتا ولا نشورا فيحاسب نفسه قبل النوم فلا يسلم نفسه موزورا بلا استغفار ولا اعتذار عن ماضيه ، فإن كان عاقلا وجب عليه طلب العفو ممن سيكون فى حوزته وضيافته ؛ وعن أبى موسى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » رواه مسلم .

ثالثا : أنه وهو نائم لا تسكن روحه فهى فى خيال مستمر ، وقد تسبح فى جهات لم يعلمها من قبل ولم ينو الذهاب إليها ومع قوم بعضهم لم يكن له بهم سابق معرفة مع أن الجسد فى مكانه وهذا يدل على أن الموت لا ينهى حياته فسينتهى الجسد كما نرى فى حالة الموت وتكون روحه فى حياة أخرى .

رابعاً : يرى الإنسان بعض المرائى فيستدكرها بمجرد تيقظه وأخرى لا يستدكرها إلا بعد وقت طويل عند وقوع حوادثها فتدكره الحوادث مانسى . ومن هذا يستدل على أن روحه ربما كانت في عالم آخر قبل هذا العالم وفي حياة قبل هذه الحياة تعقل أموراً أخرى ثم تنساها أو تنسى فلا تستدكرها إلا في ميعاد خاص ، ومن هذه الملاحظة يجب علينا أن نؤمن أن الله أخذ العهد على الأرواح يوم قال سبحانه وتعالى « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » ؟ ولكن بعض الأرواح نسيت الحكمة أرادها الله وتستدكر ذلك جيداً في يوم الوقت المعلوم ، ومن هذا الوضع استعمل أهل العصر الحديث اسم العقل الباطن .

خامساً : يرى النائم سواء كان من الأبرار أو الفجار جاحداً بالله أو مؤمناً أحلاماً تكاد في بعض الأحيان تحاكي أحوال اليقظة في استيعابها ثم تقع حوادثها بعد حين كما رآها لا تتخلف بل تقع صورة طبق الأصل مما رأى ، فما الذي نستنتجه من ذلك ؟ نرى أنه لا بد من تدبير سابق لهذه الحوادث ونحكم بالضرورة أن لها مدبراً أرادها على هذه الصورة فلا بد من أن نولى وجوهنا إليه ، وما دامت صور الحوادث التي رآناها وقعت بحكمة كما رآناها فهي تنبئنا بقدرته من أخرجها هذا الإخراج الدقيق ، ونجد أنه ما دام قد دبر أمر هذه الحوادث التي اطلعنا عليها صدفة قبل وقوعها من أسرار الغيب فلا بد من أن تكون هناك أسرار أخرى أهم شأننا لم نطلع عليها ، وفطرة حب الاستطلاع تحدونا للكشف عنها ، ثم نفهم من ذلك شيئاً أهم وهو أن هذا العالم لا يسير ارتجالاً بل يسير طبق خطة مرسومة فمن هو واضعها ؟ فنعلم أنه هو الله العلي الحكيم الذي بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء وكيل « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (١) .

ومن هنا يدعن العالم للقضاء والقدر ويجد دليل الإيمان بالله واضحاً وهذه حجة الله على خلقه أجمعين مهما جحدوا ، ومن هذه الأسرار التي يطالع الله بها النائم من حيث لا يدري نفهم أنه يجوز له أن يرسل رسلاً أو يوحى لأحد من خلقه بما يشاء ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكْذِبْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ

وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ» أخرجه البخارى ومسلم تيسير ٢٠٧
سادسا : يرى الأبرار فى حالة نومهم كلما زاد يقينهم بالله وغسلوا أرواحهم من أدران
الحياة الدنيا أسراراً قدسية واتصالا بالعالم الآخر ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ومثابرة على أعمال
الصلاح والفلاح بما يرفقه الله إليهم من البشارات والإسعاد فى مراتبهم، قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم «لَمْ يَبْقَ بَعْدِي مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»
أخرجه البخارى متصلا ومالك عن عطاء مرسل وزاد «يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى لَهُ» تيسير ٢٠٧
سابعا : قد يجد النائم بعض الأحلام المزعجة فلا يقدر على الفكاك منها ، وقد يلاحقه
كابوس من سوء الهضم أثناء النوم فلا يستطيع الخلاص منه إلا بفضل من الله ، فالحكيم
يرى أن الروح سجنّت فى هذا العذاب من حيث لا يعلم به من حواليه من أحبابه ، كما أنه
لو استغاث بهم ما أغاثوه ، هذه الحالة تكفى المرء العاقل أن يرجع إلى الله ويلتفت إلى الدار
الآخرة ، وتدلنا على تفسير لعذاب القبر أعاذنا الله منه ، إذ يحصل العذاب للميت من حيث
لا يراه الأحياء .

ولا نستطيع أن نستقصى الحكم من حالة النوم والأحلام ففيها متسع فسيح للبحث
والدرس «وَكَايُنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ
اللَّهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (١) .

أحوال الروح أثناء النوم : تقدم القول أن النوم هو حالة استرخاء لأعضاء البدن
وأعصابه ليسترخ من مجهود مضن حتى يعاوده النشاط مرة أخرى وهكذا يوما بعد يوم، ذلك
لأن المخ الإنسانى الذى يقوم بالشعور فى هذا العالم لا يستطيع مسيرة الروح فى أعمالها مع
حاجتها الفائقة لأن يستمر عاملا معها فى هذا العالم ، وهذا هوشعور الإنسان الطبيعى ولا يجب
الإنسان أن ينام كثيرا إلا إذا كان خبيث النفس كسلان ، وحرص الإنسان على النوم

ما هو إلا حرص على هذه الحياة إذ يرى عافية البدن في النوم ، والروح تدبر ذلك ليتمكنها الظهور في هذا العالم المادى لتنفيذ إرادتها بالعمل فيه ، لأنها تفيد شرفها في العالم الآخر بالجهاد في هذا العالم ؛ ولما كان كل رغبة الروح العمل فهي تفهر أثناء نوم البدن وتحاول استعمال حواس الجسد مع حواسها ، لكن المنع يكون في سبات عميق أو متوسط ، والجسد إما في تعب أو راحة يرشح من ماء الاسترخاء ، والروح مقيدة به لا تنفك عن الحرص عليه مغلوطة الإرادة أثناء النوم في حالة غيبوبة بين الموت والحياة تتوسط بين عالم الغيب والشهادة وتبقى في حيرة ، فإذا ما تنبّهت إلى شيء من عالم المثال وأرادت أن تلقيه للمخ لا يستطيع أن يعطيها دقائق الاستقبال ، بل يضطرب غالبا ولا تبقى فيه إلا صور مهوشة خصوصا في حالة النوم العميق أو في حالة مرض الجسد ، ولا يتلقى المخ دقائق الروح إلا في حالة الراحة التامة والنوم المتوسط (بين اليقظة والنوم)^(١) وهي أحسن الحالات التي يمكن للروح أن تشرف أثناءها في العالمين إشرافا خفيفا ، لأنه في هذه الحالة يمكن التقابل المنظم إلى حد ما بين الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، فإذا ما أفاق النائم أمكنه أن يعي شيئا من مرآيته ، أما إذا أصيب الجسد بمرض أو حادث فإنه يشتد اضطراب الروح وتعلق تعلقا شديدا بمكانها منه وترسل دقائق الخطر بما تلقيه للمخ من صور الحوادث التي تراها ، ولكنه وهو في استرخائه لا يمكن أن يطاوعها ولا ينتبه وعيه إلا بمجهود شاق ولا تخرج حاسة التخيل فيه الصور المقابلة لما تلقيه الروح ، إنما قد تقع قريبة منها والعكس بالعكس ، إذ ينبه الجسد الروح في حالة انشغالها عنه بما يحيط به من الخطر ، وفي هذه الحالات يقوم الإنسان من نومه فزعا وقد رأى حلما مزعجا ولكنه كان من عدم تقابل حواس الروح بحواس الجسد أثناء العمل السريع المفاجئ للخطر الواقع على الجسد أكثر من أنه انزعاج للروح من إندار علمته من العالم الآخر ولذلك

(١) قال العلامة هنري برجسون في كتاب الطاقة الروحية ص ٩١ بعد ما قدم آراءه عن الأحلام مانصه : تلك هي الملاحظات التي أردت أن أعرضها لكم في موضوع الأحلام وما هي بالملاحظات التامة وليست تشمل من الأحلام إلا التي نعرفها وتذكرها وتصل بالنوم الخفيف ، أما حين ننام نوما عميقا فلعلنا نحلم أحلاما من نوع آخر إلا أنه لا يبقى منها شيء إذ نصحو) :

يتحتم على معبري الأحلام أن يدرسوا حالة النَّائم وما يقع له أثناء نومه من حوادث المرض والخوف قبل تفسير الأحلام المنفرة .

إرادة الروح وقت النوم : مما تقدم نعلم أن الروح في حالة النوم تكون في شبه إغناء ، فلا هي تعمل عملها تاما في عالم الحس الظاهر ، ولا هي قادرة على ترك الجسد وطرق العالم الآخر - عالم الغيب - كرجل يركب في سيارة وقفت به في الخلاء قريبا من بعض المدائن ومعه مريض لا يعلم مرضه وقد نفذ منه الوقود فأرسل في طلبه وبقي حيران قلبه مشغول لمرض صاحبه ويسير هنا وهناك لبضع خطوات ثم يَقْفُلُ راجعا خوفا على مريضه وسيارته يتطلع إلى القادمين من المدينة متخوفا من الطارق الذي لا يعلمه مذهول النفس لا يستطيع العمل ، والروح في هذه الحالة تفقد الاختيار وتتوقف إرادتها^(١) فيما تريده من عمل أو استقراء ، لذلك لا يقع على النَّائم تكليف شرعى لفقدان الإرادة في اكتساب العمل وقت النوم إلا في الموهوبين من أهل الحضرة العلية من الأولياء والمقربين الذين حكمهم الله في أجسامهم وعلموا من العالم الآخر ما جعلهم يحتقرون هذا العالم وما فيه ، وهم في هذه الحالة لا يحرصون على البقاء في هذا العالم ، بل يتألمون للبقاء فيه لما يعترتهم من الهيام بعالمهم إذا كشف لهم عنه ، وبعضهم يعطيه الله قدرة تمكنهم من الانتقال من مكان إلى أى مكان في العالم بمجرد تصورهم هذا المكان في الخيلة إلا إن برز الفرد منهم من عالم الخيال إلى عالم حقيقة المثال فيعلم ما يريد ويلقى في روع الآخرين ما يريد وهو في مكانه لم ينتقل منه إن كان في يقظة أو في منام ، والبعض يُعْطَى قوة العمل والمشاهدة فوق قوة العلم والإلقاء في الروع .

واختلف أهل الشريعة مع أهل الحقيقة في تكليف النَّائم ، فأهل الشريعة على أنه لا إرادة للنائم فهو غير مسيطر على شعوره ولا على مرأيه ولا اكتساب له فيهما ، لذا جاء

(١) جاء في كتاب الطاقة الروحية للعلامة هنرى برجسون ص ٨٨ (لأن اليقظة والإرادة شيء واحد بعينه) وقال (إن الوظائف التي تشغل بها اليقظة والحلم هي نفسها في الحالين ، ولكنها متوترة في اليقظة مرتخية في الحلم ، إن الحياة النفسية كلها ماضية لإلحاح التثبيت والتركيز فنحن حين ننام نظل ندرك ونظل نتذكر ونظل نحكم ، وقد تكون الإدراكات والذكريات والمخاطبات غزيرة لدى النَّائم ، لأن الغزارة في ميدان الفكر لا تعني الجهد وإنما يكون الجهد حيث تكون المطابقة الدقيقة .)

في الأثر «رُفِعَ التَّكْلِيفُ عَنْ ثَلَاثٍ: النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَالصَّيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَالْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيْقَ» وأما أهل الحقيقة فقالوا إنه قد تفيد روحه من الخير والشر وهو نائم إذ أن إرادته وقت النوم متعلقة بميوها التي اكتسبتها وقت الصحو، وقد تكتسب همة تغلب بها على الجسد وقت النوم فتستوحى من عالم الملك أو عالم الشيطان شيئاً يفيدها في رغباتها ثم تقوم فتسعى فيه سعياً جدياً يكسبها نيلاً منه وقت اليقظة، أو تنام على عمل صالح ونية صالحة وطهارة وتوجه إلى علام الغيوب كل هذا من أعمال اليقظة التي تكسبها قوة أثناء النوم فتتلقى وعياً جديداً للخير فتنفذه في اليقظة فتؤجر والعكس بالعكس .

الرجاء الروهي وقت النوم^(١) : ولكن مع الحال التي قدمناها من أن الروح لا قوة لها وقت النوم على طروق عالمها أو اليقظة الشاملة التي تدفع إرادتها للعمل، فإنها لا تعدم طارقاً يطلبها من عالم الغيب العلوي أو من العالم غير المنظور وقت اليقظة :

(١) قال العالم العامل والولي الكامل سيدى عبد الغنى النابلسى قطب عصره في كتابه الجليل [تعطير الأنام في تفسير الأحلام] ما نصه (وقد قال بإبطال الرؤيا قوم من الملحدين يقولون إن النائم يرى في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء رأى الأحداث والسواد والاهوال والأفزع، وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصاييح والدم والمصفرات، وإن غلب عليه البلقم رأى البياض والمياه والأنهار والأمواج، وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير، وهذا الذى قالوه نوع من أنواع الرؤيا، وليست الرؤيا منحصرة فيه فإننا نعلم قطعاً أن منها ما يكون من غالب الطبائع كما ذكرنا، ومنها ما يكون من الشيطان ومنها ما يكون من حديث النفس وهذه أصح الأنواع الثلاثة وهى الأضغاث، وإنما سميت أضغاثاً لاختلاطها فشبهت بأضغاث النبات وهى الحزمة مما يأخذ الإنسان من الأرض فيها الصغير وفيها الكبير والأحمر والأخضر واليابس والرطب، ولذا قال الله تعالى « وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث » وقال بعضهم الرؤيا ثلاث : رؤيا بشرى من الله سبحانه وتعالى وهى الرؤيا الصالحة التي وردت في الحديث، ورؤيا تحذير من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه فرؤيا تحذير الشيطان هى العاطلة التي لا اعتبار لها، وفي الحديث الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم أناه رجل فقال يا رسول الله رأيت كأن رأسي قطع وأنا أتبعه فقال لا تتحدث بتلاعب الشيطان بك في المنام » .

وأما الرؤيا التي من همة النفس فمثل أن يرى الإنسان نفسه مع من يحب قلبه أو يخاف من شيء فيراه أو يكون جائعاً فيرى أنه يأكل أو تمتلئاً فيرى أنه يتقايأ أو ينام في الشمس ويرى أنه في نار يحترق أو في أعضائه وجع ويرى أنه يعذب . والرؤيا الباطلة سبعة أقسام : الأول حديث

النفس والهلم والتمنى والأضغاث . والثانى : الحلم الذى يوجب الغسل لا تفسير له . والثالث : تحذير من الشيطان وتخويف وتهويل ولا تضره . والرابع : ما يريه سحرة الجن والإنس فيتكلفون منها مثل ما يتكلفه الشيطان . والخامس : الباطلة التى يريها الشيطان ولا تعد من الرؤيا . والسادس : رؤيا تريها الطبائع إذا اختلفت وتكدرت . والسابع : الوجد وهو أن يرى الرؤيا صاحبها فى زمن هو فيه وقد مضت منه عشرون سنة ، وأصح الرؤيا البشرى ، وإذا كان السكون والدعة واللباس الفاخر والأغذية الشهية الشافية صحت الرؤيا وقلت الأضغاث . والرؤيا الحق خمسة أقسام : الأول الرؤيا الصادقة الظاهرة وهى جزء من النبوة لقوله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى الحديبية رأى فى المنام أنه دخل هو وأصحابه رضى الله عنهم مكة آمنين غير خائفين يطوفون بالبيت وينحرون ويحلقون رءوسهم ويقصرون ، فبشر صلى الله عليه وسلم فى المنام بشارة من الله تعالى من غير صنع ملك الرؤيا ولا تفسير لها مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام فى المنام فى ذبح ولده كما حكى الله تعالى عنه بقوله « يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك » وقال بعضهم : طوبى لمن رأى الرؤيا صريحاً لأن صريح الرؤيا لا يريه إلا البارئ تعالى دون واسطة ملك الرؤيا . والثانى الرؤيا الصالحة بشرى من الله تعالى كما أن المكروهة زاجرة يزجرها الله بها ، قال صلى الله عليه وسلم « خير ما يرى أحدكم فى المنام أن يرى ربه أو نبيه أو يرى أبويه المسلمين . قالوا يا رسول الله هل يرى أحد ربه ؟ قال السلطان والسلطان هو الله تعالى » . والثالث ما يريه ملك الرؤيا واسمه صديقون على حسب ما علمه الله تعالى من نسخة أم الكتاب وألهمه من ضرب أمثال الحكمة لكل شئ من الأشياء مثلاً معلوماً . والرابع الرؤيا المرموزة وهى من الأرواح ، ومثالها أن إنساناً رأى فى منامه ملكاً من الملائكة قال له إن امرأتك تريد أن تسقيك السم على يد صديقك فلان فعرض له من ذلك أن صديقه هذا زنى بامرأته وإنما دلت رؤياه على أن الزنا مستور كما أن السم مستور . والخامس الرؤيا التى تصح بالشاهد ويعلم الشاهد عليها فيجعل الشر خيراً والخير شراً ، كمن يرى أنه يضرب الطنبور فى المسجد فإنه يتوب إلى الله تعالى من الفحشاء والمنكر ويفشو ذكره ، وكمن رأى أنه يقرأ القرآن فى الحمام أو يرقص فإنه يشتهر فى أمر فاحش أو ينفود لأن الحمام موضع كشف العورات ولا تدخله الملائكة كما أن الشيطان لا يدخل المسجد ، ورؤيا الحائض والحنب تصح لأن الكفار والمجوس لا يرون الغسل وقد عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك وهو كافر ، ورؤيا الصبيان تصح لأن يوسف عليه السلام كان ابن سبع سنين فرأى رؤيا فصحت ، وقال دانيال عليه السلام اسم الملك الموكل بالرؤيا صديقون ومن شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام فهو الذى يضرب الأمثال للادميين فيريهم بضياء الله تعالى من علم غيبه فى اللوح المحفوظ ما هو كائن من خير أو شر ولا يشتهه عليه شئ .

١ — وهو إما أن يكون رحمانيا ، فيرسل الله إليها ملكا يخبرها عن أمر أراد الله إطلاعها عليه فيصور لها من الحوادث المقبلة ما شاء الله ، إما بصورة رمزية أو بصورة من حقيقة ما يحدث لحكم جلت عن التعبير جل الله العلي الحكيم ، انظر إلى هذه الحكم في هذه الآية « إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » (١) أو يكون الملك مرسلا بيشارة

من ذلك ، ومثل هذا الملك كمثل الشمس إذا وقع نورها على شيء أبصرت ذلك الشيء به ، كذلك يعرفك هذا الملك بضياء الله تعالى معرفة كل شيء ويهديك ويعلمك ما يصيبك في دنياك وآخرتك من خير أو شر ويبشرك بخير قدمته أو تنذرك بمعصية قد ارتكبتها أو تريد ارتكابها ، فإذا أراك رؤيا منذرة فإنها تخرج في وقت تراها لئلا تكون مغموما ، وإذا أراك رؤيا حسنة فإنها تخرج بعد ذلك بأيام لتكون في نعمة وسرور ، وأصدق الرؤيا ما كان بالأسحار ، وأصدق الرؤيا رؤيا النهار . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : أصدق الرؤيا القيولة ؛ وقال المعبرون من المسلمين الرؤيا يراها الإنسان بالروح ويفهمها بالعقل ، ومستقر الروح تقطط دم في وسط القلب ، ومستقر القلب في رسوم الدماغ والروح معلق بالنفس ، فإذا نام الإنسان امتد روحه مثل السراج أو الشمس فيرى بنور الله تعالى وضيائه ما يريه ملك الرؤيا وذهابه ورجوعه إلى النفس مثل الشمس إذا غطاها السحاب وانكشف عنها فإذا عادت الحواس باستيقاظها إلى أفعالها ذكر الروح ما أراه ملك الرؤيا وخيل له . قال بعضهم : إن الحس الروحاني أشرف من الحس الجسماني لأن الروحاني دال على ما هو كائن والجسماني دال على ما هو موجود .

واعلم أن الإنسان قد يرى الشيء لنفسه ، وقد يراه لنفسه وهو لغيره من أهله وأقاربه أو شقيقه أو والده أو شبيهه وسميه أو صاحب صنعته أو بلدته أو زوجته أو مملوكه كأبي جهل ابن هشام رأى في المنام أنه دخل في دين الإسلام وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك لابنه . وأن أم الفضل أتت النبي صلى الله عليه وسلم وقالت يا رسول الله رأيت أمرا فظيعا فقال عليه السلام خيرا رأيت فقالت يا رسول الله رأيت بضعة من جسدك قد قطعت ووضعت في حجرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتة ستلد فاطمة غلاما وتأخذه في حجرى فأنت فاطمة رضي الله عنها من ابن عمها بالحسن رضي الله عنهم وأخذته أم الفضل في حجرها . ومن أراد أن تصدق رؤياه فليحدث الصدق ويحذر الكذب والغيبة والنميمة ، فإن كان صاحب الرؤيا كذابا ويكره الكذب من غيره صدقت رؤياه ، وإن كذب ولم يكره الكذب من غيره لم تصدق رؤياه . ويستحب للرجل أن ينام على الوضوء لتكون رؤياه سالحة ، والرجل إذا كان غير عفيف يرى الرؤيا ولا يذكر شيئا منها لضعف نيته وكثرة ذنوبه ومعاصيه وغيبته وبمجمته .

أو إنذار فإذا ما أفقت تصدق ذلك أو تكذبه حسب ميولها وهواها إلا أن يسطع مع الرؤيا نور من الحق يصرفها عن هواها وعلامته توفيق العبد لجانب الصلاح والخير في مستقبل أيامه فور الرؤيا ، أو تزورها روح خيرة من الإنس أو الجن الصالح سواء كانت الزيارة من أرواح الأحياء أو الأموات فيحصل ببركتها للروح علم ونفع ونور . أخرج أبو داود والترمذي رضي الله عنهما عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ وَهِيَ عَلَى رَجُلٍ طَائِرٌ مَا لَمْ يَتَحَدَّثْ بِهَا . فَإِذَا تَحَدَّثَ بِهَا سَقَطَتْ» وعلامة الرؤيا الصادقة أن يقوم الرائي معافى من نومه يذكرها كما لو كان في اليقظة .

وقد أخبرني أحد الصالحين ممن أثق بهم أن من أراد أن ينام وروحه تقوى على جسدها فلا يجهدها وقت النوم وتترق حتى تدعى لزيارة عالم الروح العلوى وتحفظ من عالم الروح السفلى كالجن والشياطين ويحفظ الله جسدها معافى حتى تعود إليه لأنها تكون في ضيافته بتخصيص الإكرام ، فعليه بذكر لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين في سره ذكرا متواصلا حتى وهو بين الناس في عمله وغدوه ورواحه حتى يغلب عليه منه حال وترتفع في الملامحة ، ويشترط ألا يقصد به إلا وجه الله سبحانه وتعالى .

٢ — وإما أن يكون الطارق شيطانيا فتقابل الروح روح من أرواح العالم السفلى غير المنظور فيلقى في روعها الشيطان لعنه الله ليلعب بها أوليزيدها فسادا وغرورا أو ليثنيها عن فعل الخير ويصرفها عنه أو يطررها طارق من أرواح الجن الفاسقة بأخبار تنفيدها في عمل المنكر والشر إذا خالط قلبها وعلم من ميولها ذلك ، أوليفزعا إن كانت هينة على الله ويستضعفها ، أو ليحاربها إذا كانت من الأرواح القوية التي تعمل في هدم المنكر في عالم الإنس والجن ، وفي هذه الحال يكون كيدهم ضعيفا لأن الله يحفظها وينصر جنده في الظاهر والباطن ، قال الله سبحانه وتعالى «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (١) وروى عن مالك رضي الله عنه أنه بلغه «أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أُرْوَعُ ، فَقَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ ،

وَشَرَّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمْزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونَ» وعن بريدة رضى الله عنه قال: «شَكَأَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمَخْزُومِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا مِنَ الْأَرْقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظَلَّتْ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقَاتَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّتْ، كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ كُلِّهِمْ جَمِيعًا أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ أَوْ أَنْ يَنْفِغِيَ عَلَيَّ، عَزَّ جَارُكَ وَجَلَّ شَأْوُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» أخرجه الترمذى .

وعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات نقولها عند النوم فنحفظ بها من طارق السوء تعبدًا لله وتوكلًا عليه فيما نرويه هنا كما جاء فى كتاب تيسير الوصول :

١ — عن البراء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسَلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ كَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ خَيْرًا » أخرجه الحمسة إلا النسائى ولم يذكر أبو داود « إِنْ أَصْبَحْتَ » .

٢ — وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ لِدُنْيِي وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَا تَزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

٣ — وعن على رضى الله عنه قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ مَضَجِهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَبِكَلِمَاتِكَ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ تَكْشِفُ الْغُرْمَ وَالْمَأْثَمَ، اللَّهُمَّ لَا يَهْزِمُ جُنْدُكَ، وَلَا يُخْلَفُ وَعْدُكَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجِدِّ مِنْكَ الْجِدُّ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ » أخرجهما أبو داود .

٤ — وعن أنس رضى الله عنه قال « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى

إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مَنْ لَا كَافِيَ لَهُ
وَلَا مُؤْوِيَّ « أخرجہ مسلم وأبو داود والترمذی .

تعبير الروحاني : لما كانت الرؤيا المنامية تقع على غير إرادة الحالم كما قدمنا ، وقد
تكون واضحة أو غير واضحة ، وقد تكون من خيالات الجسد ، كما قد تكون من خيالات الروح
أو خليط مهوش منهما ، أو تكون من حديث النفس وأمانيتها ، أو تكون من الباب الرحاني
الملكي مرموزة أو واضحة ، أو من عالم الروح العلوي ، أو من عالم الروح السفلي الذي لانشاهده
في اليقظة وهو حوالينا وقد نشاهده في حالة النوم ، أو من الباب الشيطاني من الشيطان
وأرواح الخبث الشريرة ، فإن تعبيرها يحتاج إلى دراسة وحكمة وروية ، كما أنه من العسير
على معظم الناس تفسيرها تفسيراً صادقاً إلا لمن تفرغ لدراسته من أفذاذ العلماء ؛ وهو علم يتعلق
بعالم الجبروت عالم الغيب لذا لا يصح تعليمه لكل الراغبين فيه إذ لا ينفع في تعلمه إلا كل
من آتاه الله روحاً صادقة الإلهام قوية الفراسة صافية الباطن ، وكان على جانب كبير من
الصلاح والتقوى وحب الخير مجانباً للهوى عالماً بأحوال الناس والاجتماع خبيراً بالنفوس
حكماً صادقاً لا يخشى في الله لومة لائم ، يخاف الله في الناس ويستر عوراتهم ويحفظ أسرارهم
وأسرار نفوسهم ، وهذا العلم من أشرف العلوم إذ علمه الله لأنبياؤه ورسله ومن عليهم به .
قال الله سبحانه وتعالى ليوسف عليه الصلاة والسلام « وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ
قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » ^(١) وقال الله سبحانه وتعالى على لسان
يوسف عليه الصلاة والسلام « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَأَلْجَأْتُ
بِالصَّالِحِينَ » ^(٢) وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يعبر الرؤيا للصحابه
رضي الله عنهم وكان يطالب منهم أن يقصوها عليه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

« كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَيْهِ وَكَنتُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ مَلَكَينِ أَخَذَانِي وَأَتَيْنِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ وَإِذَا هُمَا قَرْنَانِ كَقَرْنِي الْبِئْرِ ، فَإِذَا فِيهَا أَنْاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَبَعَثْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا ، فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي لِمَ تُرْعُ فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَصْتُهَا حَفْصَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ قَالَ سَأَلْتُ : فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا »

أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما .

ولذا اعتبر هذا العلم من العلوم الشرعية وتخصص له قوم كثيرون ذكرهم الشيخ خليل الظاهري في كتابه ، ومن أعلامهم كعبا في التفسير محمد بن سيرين وسيدى جعفر الصادق رضى الله عنهما وجمع زبدة الكتب كلها وفاض عليها بفتح سيدى عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه ، في كتابه [تعطير الأنام وتفسير الأحلام] . وهو كتاب واسع الانتشار في جميع الأقطار العربية جليل مبارك عظيم الفائدة .

ولكنى مع الاستعانة بكلام هؤلاء المعبرين رضى الله عنهم لا أجد ذلك كافيا في تعبير الرؤيا ، لأن هذا العلم خص الله به رجالا في كل عصر ، ذلك لأن لكل زمان أحواله ومدنيته وصوره وتخيالاته طبقا لأحوال أهل العصر وتقدمهم في العلوم والمعارف والفنون واختلاف مداركهم وأهوائهم من عصر إلى عصر فلا بد للرؤيا من معبر . وقد رأيت والدى رحمه الله رحمة واسعة ورضى عنه يعبر الرؤيا فتقع كما عبرها تماما ، وكان يعبرها لقوم بغير ما يعبر مثلها لآخرين ؛ لأن الرؤيا تختلف في التعبير بالنسبة لاختلاف المدارك واختلاف المهن واختلاف الأرواح في الاستقامة وضدها وكيفيات المعيشة وتغاير النيات إلى غير ذلك ، وقد علمنى رحمه الله شيئا من علم التعبير وهو علم ذوق له اعتبارات شتى وليس من موضوع هذا الكتاب . ومن أراد التعبير فليرجع إلى الكتب التى سبق بيانها فانها إن لم تدل تمام الدلالة فانها تقرب التعبير . وأما في حالة رؤيا الإنذار والزجر فلا يجوز للرأى أن يخالف قلبه فهو دليله الذى لا يخطئ في هذا السبيل جنبنا الله كل ما يكره وكل ما نكره بمنه وفضله وكرمه .

العالم غير المنظورة

نرى في أحلامنا أطيافا كثيرة تحمل صوراً شتى : من إنسان وحيوان وجهاد ، وأخرى مما لا نعرف له مثيلاً في عالمنا هذا ، وفي صحنونا نرى أحياناً خيالات لا يمر علينا سريعاً ، فإذا تابعتها بأبصارنا لانكاد نرى شيئاً وقد مرّ أسرع من البرق الخاطف ، وقد نجد حيناً آخر اهتزازاً وصل إلى بعض أعضاء الجسم فحركها ، وقد تكون في بعض الأحيان قوية لا يمكن معها اتهام الحس فنلتفت لمعرفة مصدرها فلا نجد أحداً حولنا ، ثم نجد على حين غرة هاتفاً يهتف في صدورنا فتضيق أو تتسع من غير مبرر حقيقي ، ثم نجد من حوادث المستقبل ما يبرر لنا هذه الهوائف وأنها كانت تحمل إلينا بشارة أو نذارة ، ثم نجد في بعض الليالي الخالصة نورا يلمع سريعاً ثم يختفي ، وفي ساعات أخرى إذا اشتد الضوء نجد ألواناً من النور الأخضر أو الأصفر أو أدخنة تلمع أسرع من سيال الكهرباء ثم تختفي ، وكثيراً ما يحدث أننا إذا طرقتنا مكاناً ما نجد قشعريرة سرت في أجسادنا أو ثقلاً في أقدامنا وأجسادنا ، وقد يزيد إلى أن يحصل لبعض الناس منه إنغماء ، وكثيراً ما نجد أن تفكيرنا انتقل فجأة من التفكير العادي وتحول إلى تفكير جديد ومعرّج بخواطرنا أفراد من الناس لم يخطروا على البال منذ زمن بعيد أو توقعنا حوادث سارة أو مفرجة ودقّت هوائفها في صدورنا دقائق تحرك القلوب ولا نستطيع ردها ونقف أمامها مشدوهين كما يباغتتنا في عالم الحس حادث مفاجئ يغير مجرى حياتنا وإرادتنا ، وإذا ربطنا السبب بالمسببات لا نجد لهذا التحول أساساً من الماضي ، ولا نكاد نرى إنساناً إلا ويحدثنا عن هذه الظواهر التي لا يجد لها تعليلاً ، ومعظم الناس لا يعبرها اهتماماً ويتهمون أنفسهم عندها بضعف الأعصاب أو خداع البصر . هما كانوا في منتهى الصحة وقوة الإبصار وسلامة الإدراك ، مع أننا إذا تتبعنا شعور أنفسنا وأخذنا كل إحساس على حدة وقيدنا مرائتنا وملاحظاتنا ودرسنا هذه الأحاسيس ومسبباتها لوجدنا كثيراً منها خارجاً عن إرادتنا بل ومن صنع عالم آخر غير هذا العالم المرئي لأبصارنا والواقع تحت أسماعنا ، وإن الذين يفكرون بعمق ويلاحظون هذه الظواهر ملاحظة دقيقة لا يمكنهم

أن يقولوا إن هذا من خيل العقل أو من ذات النفس أو من خداع البصر ، بل لابد أن يكون من أفراد آخرين غير الذين نشاهدهم في هذا العالم .

وفي الحقيقة أن ما غاب عنا من العوالم أكثر مما نعلم ، لأننا واقفون عند حدود حسنا الذي تكيفه لنا أبصارنا وأسماعنا ، وقد خلقها الله ذات طاقة محدودة تتناسب مع تكليفنا في حدوده المرسومة ، ولو كان لنا سمع أكبر يطيق سماع ما في الكون من أصوات مستترة وواضحة لسمعنا أكثر ، ولو كانت لنا أبصار أشد لرأينا في الكون ما يبهر عقولنا ؛ يقسم الله سبحانه وتعالى فيقول : « فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ . وَمَا لَا تُبْصَرُونَ » ^(١) و يعدنا برؤية ما غاب عنا بقوة يعطيها للبصر فيقول جل شأنه : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » ^(٢) وهذه أسماعنا لها طاقة محدودة ، ولو أن لها في طبلة الأذن ما في أداة الراديو من قوة على استقبال الأصوات المارة بالموجات الأثرية لسمعت من أقاصى المعمور ، ولكننا لو سمعنا ما في العوالم من أصوات في هذا التكليف المحدود لجننا واختلطت الأصوات علينا ولم تحتل ذلك طبيعة نفوسنا ، ولو استطعنا تجهيز أبصارنا بأداة إبصار أكبر لبانت لنا العوالم الأخرى في موجات ضوئية غير ما اعتدنا عليه ولفزعنا وتغيرت أمورنا وسكرت عقولنا فغبنا عن الصواب ، لذلك كان من حكمة الله أنه رتب لكل عالم ما يناسبه « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ^(٣) .

لذلك لا أرى حجة عقلية تمنع وجود العوالم غير المنظورة ، كما أننا نسمع من بدء الخليقة أن قوما من المكلفين هم الجن يعيشون معنا في هذا العالم ويخالطوننا من حيث لا نراهم ، كما نسمع سمعا متواترا من أنهم يظهرون لبعض الناس ويتكلمون على لسان بعض الذين يمسونهم من الذين يجدون في عقولهم خفة وفي نفوسهم طاعة وقلة إرادة ، وتحدث جميع الأمم على مر التاريخ عن أخبارهم وفي أمة العرب الغابرة كثير من أخبارهم .

والاعتقاد بالعوالم غير المنظورة أمر مسلم به عند عقلاء الخليقة وإن اختلف أهل الأديان في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا فإنهم لم يختلفوا

(١) آية ٣٨ ، ٣٩ الحاقة . (٢) آية ٢٢ ق . (٣) آية ٨٥ الاسراء .

فما أخبر به الرسل من السمعيات عن عالم الملائكة والجن والشياطين التي لا يستطيع الناس معرفتها بالعقل وحده ، لأن الإيمان الذي يباشره العقل هو الاعتراف بوجود الله كما سبق في أدلة هذا الكتاب وأنه يجوز لله أن يرسل رسولا أو ينزل كتابا ، ويتبع ذلك إيمان غير مباشر يتعلق الإيمان به على الإيمان الأول وهو التصديق بالتبليغ وما جاء في الكتاب المنزل على الرسول ، لأن العقل يستطيع أن يبحث أدلة الإيمان الأول لأنه من مقوماته ، ولكن التصديق بالسمعيات لاحيلة للعقل في الاعتقاد بها إلا ربطها بالإيمان بالله وكل ما عليه النظر فيها فيما هو جائز أو مستحيل ، فإذا آمن مؤمن بالله وبرسوله وجب عليه التصديق بالسمعيات جميعها فيما ثبت نقله ، ولا يجوز إنكار شيء منها لأن إنكار البعض نفي للإيمان كله وطعن في صدق التبليغ ، لأن الصدق لا يحتمل الكذب وقدسية الرسول تمنع تصديقه في قواعد الإيمان والإنكار عليه في الأخبار التي يبلغها للناس لذلك نجعل كل اعتمادنا في الكلام عن السمعيات على النقل والآثار الصحيحة .

قال العالم المحقق الولي الرباني قطب عصره سيدى عمر جعفر الشبراوى في الكلام عن العوالم غير المنظورة : عالم هو ماسوى الله تعالى ، وهناك عوالم ظاهرة ، وعوالم باطنة ؛ فالملك هو العالم الظاهر وهو عالم الشهادة ، والملسكوت هو العالم الباطن وهو عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس ، ويقال عالم الأرواح القدسية والأسرار الإنسية .

ثم اعلم أن الله تعالى جعل العوالم أربعة : عالم الملك ، وهو ماشأنه أن يدرك بالحس والوهم ؛ وعالم الملسكوت ، وهو ماشأنه أن يدرك بالعقل والفهم ؛ وعالم الجبروت ، وهو ماشأنه أن يدرك بالحس وما معه وبالعقل وما معه ، ولكن لا في أول حال بل في ثانى حال كتعلق الجسم بالروح وهى به ، وقد يقال الإنسان روح ثم نفس ثم جسم ، فالروح عالم الجبروت والنفس عالم الملسكوت ، والجسم عالم الملك ؛ فالروح الجبروتى مظهر الذات ، والنفس الملسكوتى مظهر الصفات ، والجسم الملسكى مظهر الأفعال . ويقال أيضا : الملك ماظهر ، والملسكوت ما بطن ، والجبروت جامع لهما ، كما أن الإنسان ظاهره ملك وباطنه ملسكوت . وحيث جمع بينهما

كان جبروتا فيدرك بالبصر والبصيرة ؛ والعالم الرابع عالم العزة ، وهو ما امتنع إدراكه من كل وجه فلم يظهره لأحد من خلقه كتعلق إيمانه وصفاته من حيث تعلقها به .

وقال رضى الله عنه ونفعنا بعلمه عن عالم الجبروت : هو العالم المتوسط أعنى عالم البرزخ ، والحشر مأخوذ من الجبر والقهر لأن فيهما يظهر حكم القهر الإلهي ؛ ومنه عالم الخيال المسمى بعالم المثال ، وقيل هو عالم العقول والنفوس المجردة مأخوذ من الإجبار بمعنى الاستعلاء لاستعلاء ذلك العالم عن تركبه من العناصر ، وعند أبي طالب المكي هو عالم العظمة كعالم الأسماء والصفات الإلهية ، وكعالم الآخرة من جبرت الفقر أغنيته ؛ لأنه موطن الغنى الأبدي وفي الحديث « الْجَبْرُوتُ فِي الْقَلْبِ » أى الغنى ، وكعالم أرض السمسمه^(١) المخلوقة من بقية طينة آدم عليه السلام المسماة بأرض الحقيقة ، لأن الأشياء تظهر فيها على حقائقها فكل من عالم الآخرة ؛ والسمسمه من عالم العظمة لظهور عظمة الله سبحانه وتعالى فيها أكثر من ظهورها في غيرها ، والأرض المذكورة مسرح عيون العارفين وفيها يجولون ولا يدخلونها إلا بأرواحهم وربما دخلها بعضهم وهو لا يشعر . وقال رضى الله عنه عن عالم اللاهوت « هو عالم السر الغيبي الذى لو انكشف للعامة لعميت عليهم الأمور والبصائر لعدم استطاعتها عن شهود ذلك السر الذى على أهله مقصور » .

وستتكم عن عالم غير المنظور فى العوالم التى أخبرنا بها القرآن الكريم وسيد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه ، خصوصا وأن هذه العوالم مشتبكة معنا فى أحوالنا وأحاسيسنا وتخالطنا فى دورنا وأمكنة أعمالنا بل وفى غدونا ورواحنا بل لاتفارقنا ، ومنها ما يقرأ كلام أنفسنا وهو يعتدل فى أفئدتنا ، ومنها ما له القدرة على مخاطبة أرواحنا والإيحاء إلينا بدون أن نشعر فى الظاهر بشيء فهى لا تحتاج إلى الأذن الظاهرة فى التوصيل ولا إلى اللسان فى استقراء الإجابة ، وأكثر هذه العوالم مخالطة لنا كعالم الملائكة .

عالم الملائكة : هم عباد خلقهم الله من نور يتشكلون فى أجسام من نور خيرون

(١) تكلم جدنا العلامة المحقق الشيخ أحمد الحلوانى فى مواكب ربيع عن أرض السمسمه كلاما واضحا وذكر أقوال العلماء واستوفى البحث فيها ، فمن أراد زيادة المعرفة فليراجع كتابه .

لا يعملون الشر قط « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (١) غير مكلفين بتكليف يجبرهم إلى فتنة إلا ما حصل لهاروت وماروت استشهادهما لبيان شرف المكلفين إذ حملا الأمانة وخلقت لهما أجسام وركبت فيها طبائع الشهوات فزلا وانغمسا في تيار الشهوات الأرضي فتنة للضالين .

والملائكة لا يتوالدون ، سماهم الله عباداً وهم من أشرف العباد ، لا يتصفون بالذكورة ولا بالأنوثة لأنها ليست من طبائعهم وهم عقل محض موحدون ، طعامهم التسبيح والتمجيد يتلذذون به وهو مادة حياتهم لذلك عاب الله من وصفهم بالأنوثة وسلب عنهم الإيمان ؛ قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً » (٢) وقال الله سبحانه وتعالى : « أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ . فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ . وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » (٣) وسماهم الله عباداً وشرفهم بالإضافة إلى اسمه الرحمن ، قال سبحانه وتعالى « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » (٤) وخلق الله للملائكة قوة روحانية كبرى وخلقهم خلقاً لا تعيه العقول في هذا العالم ، قال الله سبحانه وتعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

(١) آية ٦ التحريم

(٢) آية ٢٧ ، ٢٨ النجم

(٣) آية ١٥٠ — ١٦٦ الصفات

(٤) آية ١٩ الزخرف

شَيْءٌ قَدِيرٌ» (١) وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل عليه السلام في حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستائة جناح كما ورد في صحيح مسلم وغيره . وللملائكة قوة على التشكل والسير بين الناس كهياة الأدميين كل ذلك بأمر الله وإذنه . وقد كان سيدنا جبريل عليه السلام ينزل أحياناً بين يدي رسول الله على هيئة سيدنا دحية الكلبي رضى الله عنه . وكما جاء في قصة الأقرع والأبرص والأعمى في بنى إسرائيل من أن الله بعث ملكاً على صورتهم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصٌ وَأَقْرَعٌ وَأَعْمَى ، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ لَوْ نُحَسِّنُ وَجِلْدَ حَسَنٍ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدَّرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَدْرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا ، فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْإِبِلُ فَأَعْطَاهُ نَاقَةً عَشْرَاءَ ، فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا ، ثُمَّ أَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدَّرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا ، قَالَ : فَأَتَى الْمَالَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْبَقَرُ فَأَعْطِيَ بَقْرَةً حَامِلًا ، وَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا . ثُمَّ أَتَى الْأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَردَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ ، قَالَ فَأَتَى الْمَالَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْغَنَمُ فَأَعْطِيَ شَاةً وَالِدًا ، فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوُلِدَ هَذَا . فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْغَنَمِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مُسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ الْحَقُّوقُ كَثِيرَةٌ ، فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدُرُكَ النَّاسُ ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ، فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ إِنَّ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى

مَا كُنْتَ ، وَأَتَى الْأَفْرَعَ فِي صُورَتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ مُثْلُ ذَلِكَ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى الْأَوَّلِ
فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، ثُمَّ أَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ
فَقَالَ لَهُ : رَجُلٌ مُسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَغَ الْيَوْمَ
إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ ، أَسَأَلْتُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ شَاءَ أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ :
قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ بَصْرِي ، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي فَخَذُّ مَا شِئْتُ وَدَعُّ مَا شِئْتُ ،
فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ لَشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ ، فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ : فَإِنَّمَا ابْتُلَيْتُمْ ، فَقَدْ
رَضِيَ عَنْكَ ، وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

وَمِنْ آيَاتِ تَشْكُلُهُمْ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ
الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » (١) .

وَلَمَّا وَصَلُوا قَرْيَةَ لُوطَ عَلَى بَعْدِ أَرْبَعَةِ فَرَاسَخٍ مِنْ سَكَنِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَقَتْنَزْدَ تَشْكُلُوا
فِي صُورَةِ غُلَامَانِ حَسَنَانِ مُرَدٍّ وَدَخَلُوا عَلَى لُوطَ فَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا لَعَلَّهُ بِسُوءِ أَخْلَاقِ قَوْمِهِ إِقْرَأَ
قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ .
قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ
قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » (٢) .

وَلَقَدْ ظَهَرَ الْمَلَائِكَةُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَرَأَاهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ
يَوْمَ بَدْرٍ لَتَشَبِهَتْ الْقُلُوبَ وَتَوَكَّدَ الْإِيمَانُ فِي إِبَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابْ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .
إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَ بِكُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ^(١) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : « هَذَا جِبْرِيلُ أَخَذَ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ » أخرجه البخارى ، ولا يزال الملائكة يتشكلون وينزلون إلى الأرض يأمر الله نزلا صعدا ^(٢) يخاطبون الخلق مخالطة خاصة على ما أراد الله « وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بَأْمُرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » ^(٣) . وقليل من الخلق الذين يعرفونهم أثناء التشكل ممن أطلعهم الله على الحقائق من أهل الكشف الغيبى من الأولياء ، وهؤلاء قلما يموحون بشيء عن ذلك للخلق لأنهم يحاسبون .

درجات الملائكة : للملائكة درجات متفاوتة ؛ فمنهم المقربون والكروبيون وحملة العرش والكرام الكاتبون ، ومنهم المهيمون فى حب الله صفوفًا صفوفًا راكعون وساجدون غارقون فى التسبيح والتحميد والتجديد والتهليل وهم خلق كثير لا يحصىه إلا الله فى نظام رائع ونور ساطع يظهرون فى يوم الدين ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » ^(٤) وقال سبحانه وتعالى : « وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ لَاتَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » ^(٥) .

(١) آية ٩ - ١٢ الأنفال .

(٢) وعن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال « بينا هو يقرأ القرآن من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكت فقرأ فجالت فسكت فسكت ، ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريبًا منها فانصرف فأخذه ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصاييح . فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال وتدرى ما ذاك ؟ قال لا ، قال تلك الملائكة رنت لصوتك ، ولو قرأت لأصحت ينظر إليها الناس لا تتوارى منهم » أخرجه البخارى ومسلم بمعناه .
(٣) آية ٦٤ مريم . (٤) آية ٢٢ الفجر . (٥) آية ١٧ ، ١٨ الحاقة .

ومن أسمائهم الالامعة إسماعيل عليه السلام وميكايل عليه السلام وعزرائيل عليه السلام وجبريل عليه السلام ورضوان ومالك ، كل له جند وأمر لا يعلمهم إلا الله ، وقد فرض الله محبتهم وعادى من عاداهم قال الله سبحانه وتعالى : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » (١) .

وجبريل عليه الصلاة والسلام هو ملك الوحي الذى ينزل على قلب الرسل ، ومن أسمائه التى شرفه الله بها لعلو قدره روح القدس وروح الحق والروح الأمين والرسول الكريم وذو مرة وذو قوة إلى غير ذلك من ألقاب التشريف والتكريم ، قال الله سبحانه وتعالى فى حقه : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ » (٢) وقال سبحانه وتعالى « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » (٣) وهو حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيب أمته ، ذلك أنه ورد أن الله سبحانه وتعالى لما أرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين عمت هذه الرحمة الملائكة وزادهم الله بها قدرا ، ولما نزل الوحي على سيدنا جبريل لتبليغه إلى رسول الله جاءت آيات البشارة والتشريف فوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاء له أن يكون عوناً للأمة المحمدية عند جوازها على الصراط ، وذكر سيدى عبد العزيز الدباغ أنه يوالى بروحانيته أولياء الأمة المحمدية عند ما يفتح الله عليهم ويهبهم نور الولاية لتطمئن قلوبهم وما من مؤمن صادق الإيمان إلا ويحبه حبا جما ، أمدا الله بروحه وأيد الأمة المحمدية بروح منه لتفوز على جميع الأمم .

١ — ومن أم الملائكة حملة العرش والمسبحون والمستغفرون حول العرش ، قال الله سبحانه وتعالى : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ

(١) آية ٩٨ البقرة . (٢) آية ١٩ — ٢٤ التكاوير . (٣) آية ٨٧ البقرة .

مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ، وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِي السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (١) .

٢ — ومن أقوام الملائكة قوم يطوفون في الأرض يحيون أهل الإيمان فإذا رأوا مخلصا لله في عمل أزروه وأمدوه بالنصيحة وملأوا قلبه نورا يهديه إلى الرشد ؛ قال الله سبحانه وتعالى « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » (٢) فإذا كان طالب علم فرشوا له أجنحتهم أى ملأوا صدره عطرا ذكيا من شذى أرواحهم ليتلذذ من نور العلم ويشرح له صدره ويثابر على طلبه ، وإذا رأوا ذا كرا أو أهل ذكرا نزلوا ساحتهم وذكروا معهم فزال الشيطان عن مكانهم على قدر الصدق في الذكر ، فإن هام الهامون هاموا معهم وامتزجوا بهم امتزاج حب ، وانجذب الصادق منهم إلى الله والتذذ بذكره ونسى حظه من الشهوات المهلكة ونأى عنها حتى يصير رحانيا محالطا للملائكة يتواجد بتواجدهم ويتلقى في عالم الروح من أسرارهم ، وهؤلاء هم أهل الروح الصادقة المهيمون في حب الله ترى للملائكة في ناديتهم لا يخرجون من عندهم إلا ساعة الغفلات ولا يتركونهم إلا إذا عادوا لسماع الشيطان ، وبعض الملائكة يعانق الحب لله الذاكرا معانقة حنان حتى يفيض الدمع من عينيه فيغسل بذلك جميع ذنوبه . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الدِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى تَنَادَوْا : هَامُوا إِلَى حَاجَتِكُمْ فَيَحْفَظُونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ؛ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُحَمِّدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ ، قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي ؟ فَيَقُولُونَ : لَا ، فَيَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا . قَالَ فَيَقُولُ : فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ فَيَقُولُونَ : يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ : لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ :

لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَنِيًّا حَرِّ صَاوَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً : قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟
 فَيَقُولُونَ : يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ . فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ : لَا يَا رَبِّ . فَيَقُولُ
 كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا خَافَةً . قَالَ
 فَيَقُولُ أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ . قَالَ فَيَقُولُ مَلَكٌ مِنْهُمْ : فِيهِمْ فَلَانٌ عَبْدٌ خَطَاءٌ
 لَيْسَ مِنْهُمْ ، إِنَّمَا مَرَّ لِحَاجَةٍ فَجَلَسَ ، فَيَقُولُ : وَلَهُ قَدْ غَفَرْتُ ، هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ
 جَلِيسُهُمْ » أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال :
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ
 طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَى لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ
 لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَّتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى
 الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لِكَلَّةِ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ،
 وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلَكِنْ وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ
 وَافِرٍ » أخرجه أبو داود وهذا لفظه وانترمذى . وعلى العموم فإن الملائكة تحب المستقيم
 وتتصاحبه وتطرد عنه الشيطان وتعاونه فى جهاده ضد نفسه وضد الشيطان ، فإذا ابتلى ابتلاء
 عاونته على احتماله بثبات وصبر وقوة إيمان ، فإذا ما حضره الموت تنزلت عليه بالبشرى
 فازداد شوقا إلى لقاء الله وثبت إيمانه فى آخر معركة الحياة حتى تخرج روحه مؤمنة مطمئنة
 راضية ، قال الله سبحانه وتعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » (١) ويوم القيامة
 وفى الجنة يحبونهم أحسن تحية ويظهرون لهم . قال الله سبحانه وتعالى : « وَسَيَقَ الَّذِينَ
 اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ
 عَلَيْكُمْ طَيِّبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » (٢) وقال جل شأنه : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
 مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » (٣) .

٣— ومن أقوام الملائكة الحفظة والرقباء والكاتبون لا يتركون إنساناً في غدوٍ أو رواح أو نوم أو حو، يعدّون عليه أنفاسه وألفاظه، ويكتبون صحائفه، ويأويل المسرفين منهم، وإنه لمن الخسر والدناءة والقبح عمل الفواحش في حضرة هؤلاء، وأعلى المروءة أن تحافظ على الأدب والكمال مراقبة لله سبحانه وتعالى وإكراماً لهذه الصحبة في مرافقة هؤلاء الملائكة، قال الله سبحانه وتعالى: « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » (١) .

٤— ومن الملائكة الحفظة ورسل الموت تحت راية عزرائيل عليه السلام؛ قال الله سبحانه وتعالى: « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ » (٢) وقال سبحانه وتعالى: « قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » (٣) .

ويعامل هؤلاء الملائكة أهل الإيمان بالتكريم والرفق يطيبون أرواحهم بالروح والريحان؛ قال الله سبحانه وتعالى « فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ » (٤) وأما أهل الكفر والفسق فإن الملائكة تنزل عليهم باللعنة والازدراء والتحقير البالغ حتى إنهم ليضربون الواحد منهم على أليتيه وعلى وجهه مبالغة في التحقير ليعلم أنه كان

(١) آية ١٦ - ٢٢ ق (٢) آية ٦٠، ٦١ الأنعام (٣) آية ١١ السجدة

(٤) آية ٨٨، ٨٩ الواقعة .

مغرورا بما أوتى ، وأن العظمة الكاذبة مآلها الهوان ؛ قال الله سبحانه وتعالى « فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » (١) ويساقون إلى جهنم في ذلة وحقارة « وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٢) « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا بَلَىٰ ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » (٣) .

وموضوع الملائكة يحتاج إلى كتاب مستقل ، ونكتفي بهذا القدر وهو يكفي في بيان عقيدة أهل التوحيد لأن الإيمان بهم ركن من أركان الإيمان ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » (٤) .

عالم الشيطان : الشيطان نوع من الجن خلق من مارج من نار ، قال الله تعالى : « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ » (٥) والمارج هو أصفى النار ، ذلك اللهب الأصفر أو الأخضر الذى يصفو من النار ويعلوها ، تلك قدرة الله العلى الحكيم . واختلف العلماء فى أنه كان من الملائكة ثم ارتد إلى الجن عقوبة له لما عصى ربه ، أو أنه كان من الجن ثم ارتقى إلى صفوف الملائكة بطاعته وعمله فلما اغتر - أعادنا الله من الغرور المهلك - رجع إلى أصله ، وظاهر الآيات كلها يرجح هذا وأن الشيطان وقبيله طائفة من الجن يرأسها إبليس أشد خفاء وقوة من الجن ، ولما كان أتباعه على شاكلته كانوا فى حكم ذريته لأنه أب لهم

(١) آية ٢٧، ٢٨ محمد . (٢) آية ٧١ الزمر . (٣) آية ٤٩ ، ٥٠ غافر .
(٤) آية ٢٨٤ البقرة . (٥) آية ٢٧ الحجر .

في المعصية والتجانس في المبدأ . قال الله سبحانه وتعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا . مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعِدِّينَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا » (١) .

وكان اسم إبليس قبل معصيته عزازيل فلما عصى سمى شيطانا وفعله شطن بمعنى شاط أو بعد ، وشاط أى هلك وطرده من رحمة الله ؛ وإبليس من أبلس أى يؤس من رحمة الله وخذل في العذاب المهين ، ومبلسون أى معذبون وهالكون ، وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال « إِنَّمَا سُمِّيَ إِبْلِيسَ لِأَنَّ اللَّهَ أَبَاسُهُ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ » أى آيسه منه ، والشيطان وقبيله من العوالم غير المنظورة لأنه خنيس يخنس ويختفي ويوسوس للإنسان في صدره « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » (٢) وقد أعطى قوة كبرى (٣) يستطيع معها أن يخاطب جميع الناس في وقت واحد هو وقبيله من حيث لا يراه الناس ، وحذرنا الله منه لاختفائه على هذه الصورة مع شدة عداوته لآدم وبنيه بقوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » (٤) .

(١) آية ٥١ الكهف . (٢) سورة الناس .

(٣) للشيطان اللعين قوة كبرى في إغراء الخلائق وهو رئيس لقبيله وجنده وهم كثرة يفوقون عدد الجن والإنس ، ولا حرج في ذلك فإن ملك الموت موكل بقبض الأرواح وله قدرة على قبض جميع من جاء أجلهم في وقت واحد سواء كانوا في الشرق أو في الغرب ، وقد يقوم إبليس بمهمته بنفسه وبوساطة أعوانه وجنده من الشياطين والأبالسة يدهم بعلمه وتفنته في غواية الناس وتجاريبه على صر الأحياء ، ولكل من بني الإنسان قرين من الشياطين يزب له فعل السوء ويكره به ويحججه إن استطاع إلى الكفر ليؤم معه بعذاب النار قال الله سبحانه وتعالى (فوربك لنحضرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) وقال تعالى (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) ولم يؤمن من الشياطين أحد إلا قرين رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة ونسكرا حتى لا يرافقه كافر . (٤) آية ٢٧ الأعراف .

ولخفاء الشيطان ينكر وجوده كثير من الذين لا يؤمنون لأن حياته كلها فتنة ؛ وقال بعض الذين لا يعلمون إنه رمز للشر وتخويف منه بلا وجود لذاته وهؤلاء يكذبون صريح القرآن ومن أنكر وجوده وظن هذا الظن بغير علم ولا بينة فليحذر غضب الله « إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » ^(١) وذلك أيضا من فتنة اللعين حتى يصل بهم إلى الكفر بالله وآياته .

ولقد بدت عداوة إبليس لآدم عند ما خلقه الله وشرفه بالعلم واختاره خليفة في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له تشريفا له وإذعانا وعبودية لأمر الله سبحانه وتعالى فلم يذعن إبليس لأمر الله وذلك تقدير العزيز العليم ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا كُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ . قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ . وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيَّ كَمَا بَانَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

وَإِنْ لَمْ تَعْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ . يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ « (١) .

وقد بين الله سبب عداوة إبليس لآدم وبنيه بأنها كانت حسداً وحقداً . لأن الله شرفه وعلمه علماً لم تعلمه الملائكة مع كثرة علومهم وشرف جنسهم ولطافة خلقهم وعظيم قدرتهم التي أمدهم الله بها في حقيقة خلقهم في قوله سبحانه وتعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَازْهَمَ الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٢) .

(١) آية ١١ — ٢٦ الأعراف . (٢) من آية ٣١ — ٣٧ البقرة

(٢) ولما كان جدنا العالم الرباني الجامع لمعاني الشريعة والحقيقة الشيخ أحمد الحلواني المتوفى سنة ١٣٠٨ هجرية قد استوفى البحث في موضوع هذه الآية في الفصل الثالث من كتابه [مواكب ربيع في مولد الشفيع] المطبوع في المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٤ هجرية أردنا أن نثبت هنا الباب كله بنصه لزيادة الفائدة قال في صحيفة ٥٨ : وعلم آدم الأسماء كلها بعد طواف الملائكة به في السموات كما اقتضاه كلام الثعلبي وذلك بطريق الإلهام أو سماع الكلام الأقدس أو على لسان ملك لم يكلفه الإنباء وهو جبريل كما قاله القرطبي . قيل : أسماء ذريته . وقيل : أسماء الملائكة . وقيل : أسماء النجوم فأل عهديه على هذه الأقوال . وقيل : أسماء كل شيء من رفيع أو وضعيع فأل استغراقية وهذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الراجح المتبادر من لفظ الأسماء كلها ، ثم المراد

بالأسماء قيل النعوت والصفات والخواص إذ الاسم العلامة وهذه علامات دالة على الماهيات فما زال يعبر عنها بالأسماء، ورد بأنه لم يعهد إطلاق الاسم على مثله حتى يفسر به النظم ولكن تعرف إطلاقه على اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركباً أو اسماً اصطلاحياً أو فعلاً أو حرفاً كذلك جوهر كان معناه أو معنى لأن اللفظ علامة معناه ودليله الذى يسميه من حضيض الجهل إلى ذروة التعقل؛ فالأسماء هى الألفاظ الموضوعية للمعانى مطلقاً وهذا يستلزم الأول إذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعانى فلا التفات إلى ما قيل إنه إنما علم الألفاظ دونها وإن وافقه ظاهر قول البوصيرى :

لك ذات العلوم من عالم الغيب ب ومنها لآدم الأسماء

إذ المراد بذات العلوم التى هى مرجع الضمير فى ومنها نفس ما علمه صلى الله عليه وسلم من الأسماء ومدلولاتها كما فى حديث « عرضت على أمتى البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها ، فقيل : يارسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال صوروا لى فى الطين حتى إنى لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه » رواه الطبرانى والفضياء المقدسى ، وفى خبر « مثلت لى أمتى فى الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها » رواه الديلمى والحاكم . وذكر الفخر وغيره أن آدم عليه السلام علمها بجميع اللغات المختلفة من العربية والسريانية والعبرانية والفارسية والزنجية وغيرها ، وأن ولد آدم كانوا يتكلمون بها فلما مات آدم وتفرقوا فى نواحي العالم تكلمت كل طائفة بلغة معينة فلما طالت المدة نسيت ما عداها . وأخرج ابن أشتة عن كعب الأحبار أن أول من كتب الكتاب العربى والسريانى والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة كتبها فى طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه فأصاب إسماعيل الكتاب العربى . وفى رواية أن آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان وكان أولاده تتلقاها بوصية منه وبعضهم بالقوة القدسية القابلية . وذكر عبد الملك بن حبيب أن اللسان الأول الذى نزل به آدم من الجنة كان عربياً فلما طال العهد حرف وصار سريانياً . قلت : نسبة إلى أرض سوريانة أو سورى كطوبى موضع بالعراق وهو أرض الجزيرة التى كان بها نوح وقومه قبل الغرق ، وقيل نسبة إلى السر لأن الله لما علمها له أسرها عن الملائكة ، قال ابن حبيب وكان السريانى يشاكل العربى إلا أنه محرف ، قال وكان لسان جميع من فى سفينة نوح إلا رجلاً واحداً يقال له جرم فكان لسانه العربية فلما خرجوا من السفينة تزوج إرم بن سام بعض بناته فصارت العربية فى ولده وبقيت السريانية فى ولد أرغشذ بن سام إلى أن تعلموا العربية من بنى إسماعيل هذا كلامه هرولة ، وقال ابن عباس : كانت لغة آدم فى الجنة العربية فلما أكل من الشجرة سلبها الله منه فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية ، أخرجه ابن عساكر ويؤخذ هذا من خبر « أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى » رواه

الطبراني والبيهقي وغيرها لكنه ضعيف وقيل موضوع ، حتى ذكر الغوث الدباغ من طريق كشفه أنه لم يرد وأن لسان أهل الجنة هو السريانية وأن آدم كان يتكلم بها فيها وبعد هبوطه . قلت : لكن الذي أشعر به صنع السيوطي ضعف الحديث لا وضعه ، ولا ينافيه قول الغوث إنه لم يرد فإنه باعتبار الواقع ، وحكم أهل الحديث بالضعف أو غيره باعتبار رجال السند فربما حكموا بضعف الحديث مثلاً والواقع خلافه وعكسه ، على أنه إن كان موضوعاً عند أهل الحديث أيضاً فلم يصلح للتأييد . بقي ماهوعن ابن عباس سالماً من الحكم بوضعه ولا يتدافع معه ما ذكره الغوث أيضاً في خصوص آدم عليه السلام لا يمكن الجمع بأن السريانية كانت غالبية على آدم في الدنيا والعربية كانت غالبية عليه في الجنة فلانفاة والله اعلم بحقيقة ذلك . ثم الضمير المستتر في (ثم عرضهم على الملائكة) لله تعالى والبارز للمسميات المدلول عليها بالأسماء ضمناً وفيه تغليب العقلاء كما في : والله خلق كل دابة من ماء فمنهم وقرىء عرضهم وعرضها على الأصل وفي الحديث أنه تعالى عرضها أمثال الدر وظاهره استواء الأعيان . والمعاني كالفرح والترج في ذلك ، ولا بعد فيه فقد قرر بعض المحققين : أن المعاني في عالم الملكوت متشكلة بحيث ترى وسيأتي في عالم المثال أن فيه لكل مخلوق ولو معنى من المعاني مثلاً فسقط قول بعضهم هذا ظاهر في المسميات التي هي أعيان ؛ وأما التي هي معان فآلهمهم إياها حتى فهموها دون أسمائها ، وقول بعضهم بهذا في الأعيان أيضاً كما سقط استظهار الشهاب متخلصاً من ذلك أن معنى عرضها عليهم إخبارهم بما سيوجده من قولك عرضت أمراً على فلان إذا أخبرته به إلى آخر ما أطال به ، ومن هنا تعرف كيف علم آدم حقائق المسميات ثم كأنه تعالى علمه منها وعرض على الملائكة كذلك أنموذجاً يعرف به الباقي وإلا فالتفصيل لا يحيط به إلا الله تعالى ؛ ثم قال تعالى تعجزوا لهم : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أي في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة وأنى لا أخلق خلقاً إلا أنتم أعلم منه وأفضل فقد روى ابن جرير عن ابن عباس وغيره أنهم قالوا لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم فاعترفوا بالعجز و (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) فجعل يدعو كل شيء باسمه وهو يعربين يديه يقول هذه ناقة حمل بقرة نعمة شاة إلى آخرها ويقول وهو من خلق ربى فكل شيء سمي آدم فهو اسمه إلى يوم القيامة (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون) أي من قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها الخ (وما كنتم تكتمون) أي من استبطانكم أنكم أحقاء بالخلافة وقولكم لن يخلق الله الخ . أو ما تبدون ما أظهرت الملائكة من الطاعة وما كنتم تكتمون ما أسر إبليس من المعصية كما مر . فان قلت : إذا لم تعرف الملائكة الأسماء فكيف عرفوا أنه أصاب فيما ذكره من أن هذه أسماء هذه ؟ قلت : يجوز أنهم عرفوا إصابته من قرينة أمره تعالى له بالإنباء في مقام إظهار فضله . أجاب الفخر بأنه ربما كان لكل صنف منهم لغة وكان كل صنف جاهلاً بلغة غيره ثم حضروا جميعاً وعد عليهم اللغات

بأسرها فعرف كل صنف إصابته في لغته خاصة وهم بأسرهم عاجزون عن معرفة اللغات بأسرها [الفصل الرابع] وأمر تعالى الملائكة المقول لهم (إني جاعل في الأرض خليفة) وقدم الخلاف فيهم بالسجود لآدم وذلك بعد إنبائه بالأسماء لآية (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) إذ سياقها بعد ذكر الإنباء يشعر بذلك مع أن الأمر فيها منجز والفاء تعقيمية وذلك يقتضى ما ذكر أيضا . وقيل عقب خلقه بدليل (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) إذ الأمر غير تنجيزي والفاء تعقيمية ، ورد بأنها جوابية لا تقتضى التعقيب كما في (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا) فانه لا يجب السعى عقبه ، وقيل وقع الأمر بالسجود مرتين مرة عقب خلقه ومرة بعد إنبائه ، ورده النقاش بأنه لم يقل به أحد وادعى آخرون أنه مشهور (فسجدوا) إلا إبليس أبى واستكبر) وأول من سجد منهم قال جعفر الصادق رضى الله عنه جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون أى ثم سائر الملائكة ، ونحوه قول وهب بن منبه: أول من سجد لآدم جبريل فأكرمه الله بانزال الوحي على النبيين خصوصا على سيد المرسلين ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة ، وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أول من سجد إسرافيل ، قال النقاش ولندا جوزى بتولية اللوح المحفوظ أى بأن ينقل منه للملائكة مثالا . وقيل رفع رأسه وقد ظهر القرآن كله مكتوبا على جبهته كرامة له ، وجمع الشبراملسى بأن أول من سجد بالامثال جبريل وبالفعل إسرافيل قال الزرقانى وفيه وقفة . قلت : لاوقفة فهو إحتمال يكفي في الجمع وامتنال الأمر قد يكون قبل الفعل فلا يبعد هنا لا سيما إذا قلنا إن الأمر وقع مرتين . واختلف هل كان السجود قبل دخوله الجنة أو بعده وهل كان في الأرض أو السماء؟ ومقتضى الظاهر من أن الساجد جميع الملائكة أنه كان من ملائكة الأرض فيها ومن ملائكة السموات فيها والله أعلم . وكان يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر كما قاله ابن عباس وكأنه غير يوم الجمعة الذى خلق فيه ، فقد روى أنه خلق آخر ساعة منه وأنه كان مقدار ألف سنة . وفى المشكاة أنهم مكثوا ساجدين مائة سنة وقيل خمسمائة سنة وكان كسجود الصلاة كما قاله الجمهور لأنه المتبادر من عرف الشرع ولآية (فقعوا له ساجدين) إذ الوقوع السقوط ، فما قيل إنهم تذللوا وانحنوا فقط كما يفعل للعطاء حملا للسجود على معناه اللغوى فيه نظر وكان لله تعالى وآدم قبله فمضى اسجدوا لآدم اسجدوا إليه كما يقال صلى للقبلة ، أى إليها هذا ما حكى القرطبي الاتفاق عليه وبحث فيه بأنه لو كان لله لما امتنع إبليس إذ لا فرق بين كون آدم قبله وغيره وبأن كونه قبله لا يدل على تفضيله عليهم بدليل أن الكعبة ليست أفضل من نحو الأنبياء الساجدين إليها مع أن قول إبليس (أرايتك هذا الذى كرمت على) يدل على التفضيل وأن السجود إليه أعظم حالا من الساجد ، ولك أن تقول الذى اقتضى تفضيله تخصيصه بجعله قبله دونهم لمناقبه كعمله وكونه أبا الأنبياء لا كونه قبله فقط (وقال) الحسن الأصح أنه كان تحية وتكرمة له على الخصوص كسلامهم عليه وكذا كان سجود إخوة يوسف له وقد كانت الأمم تفعل ذلك كما يحيى المسلمين بعضهم بالسلام ولذا أراد الجاثليق

أى رئيس النصارى حين دخل على على كرم الله وجهه أن يسجد له، فقال اسجد لله ولا تسجد لى (قلت) وهذا ليس بغريب منه بالنسبة لمنعه أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم الصحابية رضى الله عنها وهو فى بطنها من السجود للصنم كما أرادت أن تسجد له فلذا قيل له كرم الله وجهه فإنه كرم وجهها أن يسجد لغير وجه الله الكريم، وقيل بل لأنه لم يسجد للصنم قط، وقيل بل لأنه لم ير عورة أحد قط، وكان كرم الله وجهه يقول لأن أنشر بمنشار أحب إلى من أن أرى عورة أحد أو أن يرى أحد عورتى. وبالجملة فسجود التحية إمامنع فى شرعنا كما فى حديث «لو أمرت أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها». (واختاف) فى علة السجود لآدم: (ف قيل) كان لكون النور الحمدى فى جبينه وهذا ماعلمه المحققون وقد استفاض جدا حتى قال سيدى على وفا رضى الله عنه :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره فى وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله عبد الجليل مع الخليل وما عند
لكن جمال الله جل فلا يرى إلا بتخصيص من الله الصمد

وقال بعضهم

يا بنى الزهراء لا لقيتم أبد الآباد سوءا من أحد
سرکم لاح بمعنى آدم فلذا كل إليه قد سجد

(وقيل) كان لكونه كان فى أحسن تقويم (وقيل) كان اختياراً لهم وامتحاناً (وقيل)

كان اعتذارا عن نحو قولهم أنجعل فيها إلى آخره (وقيل) كان لظهور فضله عليهم بالعلم وقضاء لحق التعليم، ولايرد أنه لو كان ظهر فضله بالعلم والتعليم لما أبى إبليس ولا استكبر لأن لك أن تقول إنه فعل ذلك جهلا أو عنادا وهذا قولان لأهل السنة فى كفره ومن قال كفر جهلا قال سلب العلم حين كفر ومن قال كفر عنادا قال كفر ومعه علمه وليس يبعد مع الخذلان نعوذ بالله منه (وزبدة) القول فيه أنه كان اجتهد فى العبادة حتى لم يترك من السموات والأرضين موضع شبر إلا سجد فيه حتى سمى طاوس الملائكة فقال إلهى هل بقى موضع لم أسجد فيه ؟ فأمره أن يسجد لآدم فقال أتفضله على وأنا خير منه خلقتى من نار وخلقته من طين والنار خير من الطين وأنور، وجهل أن فى جوهر النار الطيش والتعالى وفى جوهر الطين الوقار والتواضع فقال تعالى أنا أفعل ما أشاء فرأى لنفسه شرفا فولى آدم ظهره أنفة وكبرا واتصب قائما إلى أن سجدت الملائكة المدة المارة فلما رفعوا رؤوسهم ورأوه لم يسجد وهم قد وقفوا للسجود سجدوا ثانيا شكرا وهو قائم يرى معرضا عنهم غير عازم على الاتباع ولا نادم على الامتناع وهذا شأنه بعد، فقد جاء أنه قيل له من قبل الحق على لسان موسى اسجد لقبر آدم أقبل توبتك وأعفر معصيتك فقال بعد ما أظهر الغضب ماسجدت لقلبه وجثته فكيف أسجد لقبره وميته؟ (وجاء) أن الله تعالى يخرج على رأس مائة ألف سنة من النار ويخرج آدم من الجنة ويأمره بالسجود

لآدم فيأبى ثم يردّه إلى النار (ولما) أبى مسخه الله تعالى من الصورة البهية فمكسه كالخنزير وجعل رأسه كـرأس البعير وصدّره كسنام الجمل الكبير ووجهه بينهما كوجه القردة وعينه مشقوقتين في طول وجهه ومنخره مفتوحتين ككوز الحمام وشفته كشفتى الثور وأنيابه كأنياب الخنزير في لحيته سبع شعرات فما أقبح تلك اللحية التي فيها السبعة وطرده من الجنة بل من السماء بل من الأرض إلى الجزائر فلا يدخل الأرض إلا خفية ولعنه إلى يوم الدين لأنه صار من الكافرين لا لمجرد ترك السجود إذ مجرد المعصية بلا مكفر لا يوجب الكفر « فلا نكفر مؤمنا بالوزير » بل لتعاضمه على أمره تعالى واستباحه إياه بنسبته إلى الجور ومخالفة الحكمة إذ يسجده لمن هو دونه في زعمه هذا إلى ما ارتكبه من تحقيره آدم وحقده عليه وحسده له وترك السجود له ودعوى الحيرية التي أشار الحق تعالى إلى أن كل من تبعه فيها طرده من رحمته نعوذ بالله من ذلك ، وبعد فقد قضى عليه من لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ألا أن يكون من الخذولين بل إمامهم فأين المفر ؟ (وانظر) كان بهي الصورة رباعي الأجنحة كثير العلم كثير العبادة طاوس الملائكة واعظمهم سيد الكرويين سيد الروحانيين خازن الجنة إلى غير ذلك فلم يغن ذلك عنه شيئا إن في ذلك لذكرى (وفي الأثر) لما مكر إبليس بكى جبريل وميكائيل فقال الله لهما وما بيكيكما ؟ قالا ربنا ما أمنا من مكرك فقال تعالى هكذا كونا لاتأمنا مكرى . (قيل) كان إبليس يحسد في كل موضع سجدة مكتوبا: طرد إبليس لعن إبليس خزي إبليس فيتعجب ويقول من هذا إبليس المطرود ولم يدر أن الشقاء سابق عليه ، نعوذ بالله تعالى من ذلك (وروى) أنه رأى على حلقة باب الجنة مكتوبا إن لى عبدا من جملة المقربين أمره فلم يمتثل أمرى بل يقصرويعصى فأطرده عن باني وألغنه وأجعل طاعته وعبادته هباء منثورا ، فقال إبليس يارب أذن لي أن ألغنه فأذن له فلغنه ألف سنة وهو لا يعرف أنه الملعون (وفي رواية) أن إسرأفيل عليه السلام نظر في اللوح المحفوظ فرأى مثل ذلك فبكى حتى رحمته الملائكة . فاجتمعوا وسألوه عن بكائه فقال اطلعت على سر من أسرار ربي وقص عليهم القصة فبكى الملائكة بأجمعهم وصاحوا لا تدبر لنا سوى أن نذهب إلى عزازيل فإنه محجوب الدعوة ومن جملة المقربين فنسأله أن يدعو الله تعالى فيستجيب دعاءه ، فجاءوا إليه فأخبروه فرفع يديه وقال يارب آمّنهم من القطيعة فدعا لهم ونسى نفسه فاستجاب دعاءه في حقهم ورقه برقة الشقاء (وقال كعب الأحبار) كان اسمه في سماء الدنيا العابد . وفي الثانية الزاهد . وفي الثالثة العارف . وفي الرابعة الولي . وفي الخامسة التقي . وفي السادسة الخازن . وفي السابعة عزازيل . وفي اللوح المحفوظ إبليس وهو غافل عن عاقبة أمره (ولفظ إبليس) أعجمي على الصحيح لا عربي من الإبلان أى الإبعاد ، وأما اسمه العربي فقيل الحكيم وقيل قتره والمشهور أنه الحارث وهو معنى اسمه عزازيل وهو عبراني ، وقيل سرياني ويكنى أبا كردوس كعصفور وأبا قتره وأبامرة بانه الذي

يزين اللواطة للناس، وأبأ العمر لطول عمره فإنه لما لعن استمهل إلى يوم البعث وهو وقت النفخة الثانية التي يحيا عندها كل ميت وغرضه بذلك أن يجد فسحة في إغواء الآدميين ليفسد هم كما فسد بسببهم وأن لا يموت لانتقطاع الموت بالنفخة الأولى التي يموت عندها كل من يموت فأمهل لكن لا إلى البعث وقت النفخة الثانية بل إلى الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى وبينها وبين الثانية أربعون سنة فهي مدة موته (وعن) وهب ان الوقت المعلوم هو يوم بدر قتلته الملائكة فيه (وفي) رواية أنه بعد نزول عيسى وفراغه من صلاته فيقتله ويرى المسلمين دمه في حربته (وقيل) إنه وقت خروج الدابة فإذا خرجت وطئته فقتلته والمشهور الأول، ولم يكن إمهاله كرامة له بل زيادة في شقاوته وعذابه (إنما نلّى لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين) وابتلاء للخلق به (لايسئل عما يفعل) (وفي) الملل والنحل للشهرستاني أن إبليس قال للملائكة إني أسلم أن لي إلهًا هو خالق وخالق الخلق لكن لي على حكمته أسئلة سبعة (الأول) ما الحكمة في الخلق لا سيما كان عالمًا بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه إلا الآلام؟ (الثاني) ثم ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود إليه منه ضر ولا نفع وكل ما يعود على المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ (الثالث) هب أنه كلّفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلّفني بالسجود لآدم؟ (الرابع) ثم ما عصيته في ترك السجود لآدم فلم لعني وأوجب عقابي مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولي فيه أعظم الضرر؟ (الخامس) ثم لما فعل ذلك فلم مكنتني من الدخول إلى الجنة ووسوست له؟ (السادس) ثم لما فعلت ذلك فلم سلطني على أولاده ومكنتني من إغوائهم وإضلالهم؟ (السابع) ثم لما استمهله المدة الطويلة فلم أمهلني — ومعلوم أن العالم لو كان خاليًا من الشر لكان ذلك خيرًا؟ (فأوحى) الله تعالى إليه من سرادقات الجلال والكبرياء يا إبليس إنك ما عرفتنى ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض على في شيء من أفعالي فإني لا أسئل عما أفعل (قال) الفخر لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقييحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصًا وكان الكل لازما ما لم نجب بجوابه تعالى انتهى (وروى) أن إبليس سأل الشافعي رضي الله عنه ما قولك فيمن خلقني كما اختار واستعملني فما اختار وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار أعدل في ذلك أم جار؟ فنظر في كلامه ثم قال يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسئل عما يفعل وهم يسألون، فاضمحل إلى أن صار لا شيء ثم قال والله يا شافعي لقد أخرجت بمسئلتني هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية إلى ديوان الزندقة (وعن) مجد الدين بن سعد الكوفي رضي الله عنه أن إبليس لقي موسى عليه السلام على جبل الطور أواخر عمره، فقال له موسى بشئ ما صنعت بنفسك بامتناعك من السجود لآدم عليه السلام فلم فعلت ذلك؟ فقال لأنني كنت ادعيت محبته تعالى فلما توجه السجود لغيره امتنعت ورأيت العقوبة في الدنيا والآخرة أحب إلى من كذبي في دعواي بالسجود والخضوع لغير من ادعيت محبته وكذلك أنت يا موسى لما ادعيت محبته

تعالى امتحنك وقال انظر إلى الجبل فلما نظرت إليه ناقشك في دعواك المحبة له إذ الحب لا يلتفت لغير محبوه ولو أنك كنت غمضت عينيك عن النظر إلى الجبل وعلمت أن ذلك مكيدة لكنت رأيت ربك فإنه حقيق أن لا يراه إلا من عمى عمى سواء انتهى (قال) العلامة الأمير وقد كذب أولاً فإنه ما امتنع من السجود إلا كبراً وثانياً بعد أن قيل لموسى لن تراني كيف يصح فهمه وثالثاً فإن موسى لا يخالف ربه انتهى. (واختلف) هل كان من الملائكة؟ (قال الجمهور) نعم وصححه الغورى بأنه لم ينقل أمر غيرهم بالسجود مع أن الأصل في الاستثناء الاتصال، والفخر بأنه لو لم يتناوله قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) لاستحال أن يكون تركه السجود إباء وعصياناً لا يقال يجوز أن يكون عصيانه لكونه خالف أمراً آخر غير اسجدوا لم يحك في القرآن بدليل ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك، لأننا نقول إنه لما ذكر أنه أبى عقب قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا) أشعر بأن هذا الإباء إنما حصل بسبب مخالفة هذا الأمر لا بسبب مخالفة أمر آخر (فإن قلت) فما تصنع في آية (إلا إبليس كان من الجن)؟ (قلت) يجوز كما قيل أن يكون من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً أو من الملائكة الذين يسمون الجن لأنهم كانوا خزنة الجنة كما مر وهؤلاء قال ابن عباس إهم يتوالدون، وقال ابن مسعود إنهم خلقوا من مارج نار السموم الذى يقال له لسان النار وهو يعال منها إذا التهب بلا دخان فلا يرد أن إبليس له ذرية كما في آية (أفستخذونه وذريته) والملائكة لا ذرية لهم ولا أنه مخلوق من النار والملائكة مخلوقون من غيرها كالنور والريح والماء والثلج (فإن قلت) قوله كان من الجن يشعر بتعليل تركه السجود بكونه جنياً ولا يمكن تعليل ذلك بكونه خازناً للجنة (قلت) يجوز أن يكون محل التعليل قوله ففسق الخ وأما قوله كان من الجن أى من الملائكة خزان الجنة فإنما هو موطن له أشير به إلى أنه لا ينبغي الركون إلى حسن البداية فإن الأعمال بالحوائيم (فإن قلت) الملائكة معصومون من المعصية (قلت) الاتفاق إنما وقع على عصمة الرسل منهم وفي غيرهم خلاف فذهب ابن عباس في طائفة إلى عدم عصمة هذه الطائفة التي منها إبليس وإن كان الغالب فيهم العصمة على أن عصمة الملائكة مشروطة بدوامهم على صفة الملكية أما بعد سلبها فيمكن أن يخالفوا كهاروت وماروت (وذهبت) المعتزلة في طائفة إلى أنه ما كان من الملائكة طرفة عين وإنما هو من الجن (قيل) سبته الملائكة منهم إلى السماء لما حاربهم وهذا يابأه ما مر من أن إبليس كان رئيس أولئك الملائكة الذين حاربوا الجن وهؤلاء قد استدلو بظاهر الآية ثم ذكروا في الاستثناء وجوهاً (الأول) أنه كان مخالطاً للملائكة مغموراً بالألوف منهم فغلبوا عليه فلاستثناء متصل بهذا الاعتبار (ورده) الفخر بأن المخالطة لا توجب تكليفه بما كلفوا به حتى يكون عاصياً بالمخالطة ولذا قالوا في أصول الفقه إن خطاب الذكور لا يتناول الاناث وبالعكس مع شدة المخالطة بينهما وأيضا شدة المخالطة بينه وبينهم لم تمنع اقتصار اللعن عليه فكيف تمنع اقتصار ذلك التكليف عليهم، على أن

التغليب خلاف الأصل وإنما يصار إليه عند الضرورة على أنه إنما يجوز إجراء حكم الكثير على القليل إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير ملتفت إليه في الكلام أما إذا كان معظم الحديث لا يكون إلا فيه لم يجوز إجراء حكم غيره عليه (الثاني) أن المأمور بالسجود للملائكة والجن معا كما ذكره البيضاوي احتمالا أو جميع العالم الموجودين إذ ذاك كما حكاه ابن عقيل في تفسيره قولا، وخص الملائكة بالخطاب لشرفهم فاستغنى بذكرهم عن ذكر غيرهم لأنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد فالأصغر أولى فكأنه قيل فسجد المأمورون كلهم إلا إبليس فلا استثناء متصل أيضا بهذا الاعتبار والفرق بين التغليب في هذا وبينه في الوجه السابق أنه في هذا على الجن أو العالم الشامل لإبليس وفي السابق على إبليس فقط وفيه ماهر (الثالث) أن الاستثناء منقطع مثله في (لغوا ولا تأثموا إلا قليلا سلاما سلاما) (ورده الفخر) بأن تخصيص العموم في القرآن أكثر من حمل الاستثناء على المنقطع قال فكان قولنا أولى انتهى (لكن) رجح السيوطي الثاني بأنه الذي دلت عليه الآثار، ومن الغريب ما قيل إنه خلق منفردا من النار لا من الملائكة ولا من الجن فالأقوال ثلاثة (ثم) المشهور الذي ذهب إليه الأكثرون أنه أبو الجن وقيل هو أبو الشياطين وليسوا من الجن فالغالب على الجن عنصر الهواء وعلى الشياطين عنصر النار لكن التحقيق أنهم عصاة الجن وفي الحديث «لما أراد الله أن يخلق لإبليس نسلا وزوجة ألقى عليه الغضب فطار من شيطانية (بمعجمة فشالة بزنة عطية) فخلق منها امرأته» قيل واسمها طرطبة بضم الطاءين وسكون الراء وتشديد الموحدة وظاهره أن ذريته منها (وقال) النقاش بل هي حاضنتهم ومقتضاه أن ذريته من غيرها (وفي) رواية أنه خلق له في نخذه اليمنى ذكرا وفي نخذه اليسرى فرجا فهو ينسكح هذا بهذا فيخرج له كل يوم عشر بيضات يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة فهذه الرواية تؤيد ذلك (لكن) في عقد المرجان أنها رواية شاذة قال وكذا رواية أنه يدخل ذكره في دبره فيخرج منه الولد وفي هذه الرواية أنه أول من لاط لما هبط من الجنة فردا لا زوجة له فلاط بنفسه (وقال) محمد بن إسحاق بلغني أن إبليس تزوج الحية التي دخل في فمها حين كان آدم بعد ما أخرج من الجنة قال فمنها ذريته (وقيل) ليس إبليس أبا الجن لأنهم كانوا قبله وإنما هو أول من عصى وصحبه الشعرا في اليواقيت وتبعه الشرقاوي في شرح الورد وعلى هذا فقيل أبوه يسمى الجان وقيل يسمى شوميا (فن) ابن عباس لما خلق الله شوميا أبا الجن وهو الذي خلق من مارج من نار قال تبارك وتعالى تمن . قال أتمنى أن نرى ولا نرى وأن نغيب في الثرى وأن يصير كهلنا شابا قال فأعطى ذلك فهم يرون ولا يرون وإذا ماتوا غيبوا في الثرى ولا يموت كهلهم حتى يعود شابا (قال) في عقد المرجان وعلى هذا يمكن حمل قول من يقول بأن إبليس أبو الجن على أبوة الرياسة فإن إبليس كان رئيس خزنة الجنة المسمين بالجن المخلوقين من نار السموم المخلوق منها شوميا أبو الجن انتهى (لكن) قال مجاهد قال إبليس

وقد أكد الله للإنسان عداوة الشيطان بقوله تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ » ^(١) وقوله تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » ^(٢) وحذر الله من اتباعه بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ^(٣) وقال تعالى : « وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا » ^(٤) وقال تعالى : « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا » ^(٥) ولا يزال الشيطان وجنده بما جبلوا عليه من العداوة لآدم وبنيه يزينون لهم الفحشاء والمنكر والكفر والفسوق والعصيان ليوذوا بعذاب النار كما باء بغضب الله وعنادا لربه ، أى انظر هذا الذى فضلت على وذريته لا يستحقون هذه النعمة التى أوليتهم إياها ومقتنى من أجلهم « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » ^(٦) . فلعنة الله على إبليس وقبحه كم زين للناس المنكر وأمرهم بالفحشاء وأثقل صدورهم بالهموم وكلفهم ما لا يعنيههم ، وقد قال أبو نواس فى كبر إبليس وقبحه :

جعل لنا أربع نرى ولا نرى ونخرج من الثرى ويعود شيوخنا شبابا فهذا مع ذاك يفيد أن شوميا هو إبليس فلا يكون بين القول بأن أباهم شوميا والقول بأنه إبليس تغاير وما أولاه لعنة الله بالشؤم المشؤم من هذا اللفظ وصرح كونهم إذا ماتوا غيبوا فى الثرى أن التغييب هو الدفن فيه لا القوص والنفوذ مع أن كلام مجاهد كالصرح فى هذا وهو الذى على أسنة العامة (وقد أذكرنى عود شيخهم شابا ما ذكره السحيمى على عبد السلام فى صفة الحضرة عليه السلام من أنه يصير شابا بعد كل مائة وعشرين سنة هذا مع أنه من الإنس على الصحيح لا من الملائكة كما قيل بل فى السحيمى أيضا أن الصحيح أنه ابن آدم لصلبه وهو مروى عن ابن عباس لكنه ضعيف منقطع كما قاله الحافظ والأصح أنه ابن ملكان بفتح الميم وسكون اللام ابن فالغ بن شالح بن أرخشذ بن سام بن نوح ؛ والحضر لقبه ويكنى أبا العباس وأما اسمه العلم فالأصح أنه بليابفتح الموحدة ، وسكون اللام فتحية فألف ومعناه بالعربية أحمد ، وقد ذكر بعض العارفين أن من عرف اسمه ولقبه وكنيته واسم أبيه مات على الإيمان والله أعلم .

- | | | |
|---------------------|---------------------|----------------------|
| (١) آية ٥ يوسف . | (٢) آية ٦ فاطر . | (٣) آية ٢١ النور . |
| (٤) آية ٨٣ النساء . | (٥) آية ٣٨ النساء . | (٦) آية ١٧ الأعراف . |

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي كِبَرِهِ وَخُبْتُ مَا أَضْمَرَ فِي نِيَّتِهِ
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ وَصَارَ قَوَادًا لِنُزُورِهِ

وقال زين الدين عمر بن الوردي في تزيين إبليس وفحشه :

نمت وإبليس أتى بحيلة منتدبه فقال ما قولك في حشيشة منتدبه
فقلت لا قال ولا خمرة كرم مذهبه فقلت لا قال ولا مليحة مطبیه
فقلت لا قال ولا أغيد بالبدر اشتبه فقلت لا قال ولا آلة لهو مطربه
فقلت لا قال فقم ما أنت إلا حطبه

ولقد أمعن إبليس اللعين في غواية الناس وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في الجسد لا يقف عند حد ، وقد مرن على ذلك من أول الخليفة وعلم كيف يغوى ، واسع الحيلة في عمله لم يترك عالما ولا ذكيا ليبيا ، ولا وليا ولا نبيا ولا مرسلا إلا تخابث له ، وهو يظهر ويتشكل إذا أعجزه ابن آدم بكثرة الذكر ومراقبة الله سبحانه وتعالى في السر والعلن ، لأنه عند ذلك لا يستطيع الوسوسة في صدره فيتشكل لأن ذلك أدعى للالتباس والحيلة ؛ ولم يتورع أن يظهر للأنبياء والرسل ، وسلط عليهم ليمين الله للملا فضلهم وقوة رشدهم وأن لاسطان له عليهم ولا على الذين يؤمنون بالله « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » (١) .

روى مسلم في صحيحه : « قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فَسَمِعَهُ صَاحِبُهُ يَقُولُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ . ثُمَّ قَالَ : أَلْعَنَكَ بِلْعَنَةِ اللَّهِ وَبَسَطَ يَدَهُ ثَلَاثًا كَأَنَّهُ يَنْتَاوُلُ شَيْئًا . فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ ؛ قَالَ صَاحِبُهُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ مِنْ قَبْلُ وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ . قَالَ إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِ فَقُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَاتُ أَلْعَنَكَ بِلْعَنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ ، وَوَاللَّهِ لَوْ لَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وَلَدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « وَكَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ
 زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ جَعَلَ يَحْشُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَى عِيَالٍ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ ، قَالَ
 فَخَلَّيْتُ عَنْهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ
 الْبَارِحَةَ ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحَّمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ
 أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 فَارْصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْشُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ ، قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَى عِيَالٍ لَا أَعُودُ فَرَحَّمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ ،
 فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ فَقُلْتُ
 يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةً وَعِيَالًا فَرَحَّمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ
 وَسَيَعُودُ ، فَارْصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ فَجَاءَ يَحْشُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ فَقَالَ دَعْنِي فَإِنِّي
 أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، قُلْتُ مَا هِيَ ؟ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ
 آيَةَ الْكُرْسِيِّ : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ
 عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ
 فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ
 زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . فَقَالَ مَا هِيَ ؟ قُلْتُ
 قَالَ لِي : إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ
 « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » وَقَالَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى
 تُصْبِحَ وَلَنْ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ
 كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ مُخَاطَبُ مُنْذُ ثَلَاثٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قُلْتُ لَا . قَالَ ذَا شَيْطَانٍ »
 أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ .

ولما ركب نوح عليه السلام السفينة رأى فيها شيخا لم يعرفه ، فقال له ما أدخلك ؟ قال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك ، قال نوح اخرج يا عدو الله ، فقال له خمس أهلك بها الناس وسأحدثك منها بثلاث ولا أحدثك بالثنتين ، فأوحى الله إلى نوح : لا حاجة بك إلى الثلاث مره يحدثك بالثنتين فإن بهما أهلك الناس هما الحسد وبالحسد لعن وجعل شيطانا رجيا . والحرص ، أبيع لأدم الجنة كلها فحرص على الشجرة فأصاب منه حاجته .

ولقى إبليس موسى عليه السلام فقال : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلبك تكلما ، وأنا من خلق الله أذنبت وأريد التوبة فاشفع لى عند ربك عز وجل أن يتوب علىّ فدعا موسى ربه ، فقيل يا موسى قد قضيت حاجتك ، فلقى موسى عليه السلام إبليس فقال قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك ، فاستكبر وغضب وقال لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ، ثم قال إبليس يا موسى إن لك حقا بما شفعت إلى ربك فاذا كرنى عند ثلاث : اذ كرنى حين تغضب فإن وحي فى قلبك وعينى فى عينيك وأجرى منك مجرى الدم ، واذ كرنى حين تلقى الزحف ، فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجته وأهله حتى يولى ؛ وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها . وكان موسى عليه السلام جالسا فى بعض مجالسه ، فأقبل إبليس عليه برنس له يتلون فيه ألوانا ؛ فلما دنا منه خلع البرنس ووضعه ثم أتاه فقال : السلام عليك يا موسى ، قال له موسى من أنت ؟ قال إبليس : قال فلا حياك الله ماجاء بك ؟ قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك عند الله ومكانتك منه ، قال ماذا الذى رأيت عليك ؟ قال به أختطف قلوب بنى آدم ، قال فماذا إذا صنعه الإنسان استحوزت عليه ؟ قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه ، قال إبليس وأحذرك ثلاثا : لا تلخ بامرأة لا تلخ لك فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تلخ له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها ، ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به فإنه ما عاهد الله أحد عهدا إلا وكنت صاحبه حتى أحول بينه وبين الوفاء به ؛ ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء بها ،

ثم ولى إبليس بعد ذلك وهو يقول : يا ويلاه ! يا ويلاه ! قد علم موسى ما يحذر به بنى آدم .

وقد تبدى إبليس ليحيى بن زكريا عليه السلام فقال : إني أريد أن أنصحك ، قال كذبت أنت لا تنصحنى ولكن صف لى بنى آدم ، قال هم عندنا على ثلاثة أصناف : الصنف الأول هم أشد الأصناف علينا نقبل عليه حتى نفتنه ونتمكن منه ثم يتفرغ للاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركناه منه ، ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نياس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن من ذلك الصنف فى عناء . والصنف الثانى فى أيدينا بمنزلة الكرة فى أيدي صبيانكم نلتفتهم كيف شئنا وقد كفونا أنفسهم . والصنف الثالث معصومون مثلك لا تقدر منهم على شيء ، فقال يحيى عليه السلام : هل قدرت منى على شيء ؟ قال لا إلا مرة واحدة فإنك قدمت على طعام فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت منه أكثر مما تريد ، فمنت تلك الليلة ولم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها ، فقال يحيى لاجرم لاشبعت من طعام أبدا ، قال الشيطان لا جرم لا نصحت آدميا بعدك . وقال شريح عن أبى عثمان كان عيسى عليه السلام يصلى على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال إنك الذى تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر ؟ قال نعم ، قال الق بنفسك من الجبل وقل قدر على ، قال : يا لعين الله يختبر العباد وليس للعباد أن يختبروا الله عز وجل . ومما روته الأنجيل : أن الشيطان قابل عيسى عليه السلام وطلب منه أن يسجد له مدعيا أنه يملكه خزائن الأرض ، فقال له اذهب عنى يا لعين ، فانه مكتوب لله وحده تسجد وإياه وحده تعبد . ولا أدري كيف تكتب الأنجيل تجربة الشيطان مع عيسى عليه السلام مع أنهم يؤلهونه ؟ فهل يجوز للإله أن يقبل هذه التجربة من مخلوق ؟ وإذا كانت التجربة مع الناسوت فلا بد أن يكون الناسوت منفصلا عن اللاهوت ساعة التجربة على الأقل ، وهنا لا يصح أن تكون الثلاثة أقانيم حقيقة واحدة وإله واحد «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١) وهذا إضلال الشيطان للخلق على مدى العصور . حفظنا الله منه ونجانا من حيله وشباكه .

«التي ينصبها للايقاع بالخلق» وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ» (١).

عالم الجن : عالم الجن خلق كثير ، وأم متباينة ، تتفاوت في لطافة أجسامها وخفتها وقدرتها ، أصل عنصرها النار ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ » (٢) وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، فالجن يستر نفسه عن أعين بني آدم . وقال أبو عبيدة : السموم الريح الحارة النافذة في المسام تكون بالنهار وقد تكون بالليل . والجن كالريح بل أدق وألطف ، ولذلك يقول العامة فلان (مِستَرِيحٌ) أى دخل جسده ريح من الجن .

وكان العرب ينزلون الجن في مراتب ، فإذا ذكروا الجنى سالما قالوا جنى ، فإذا أرادوا من سكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمار ، وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح ، فإن خبت أحدهم وتعرم فهو شيطان ، فإذا زاد على ذلك فهو مارد ، فإن زاد على ذلك في القوة فهو عفريت والجمع عفاريت . قال الله تعالى « قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ » (٣) وهم في الجملة جن وخوافي قال الشاعر :

* ولا يحس سوى الخافى بها أثر *

وكل متجنّ فهو جنى وجان وجنين ، وكذلك الولد قيل له جنين لكونه في البطن واستجنانه (أى استخفاؤه) وقالوا للميت الذى فى القبر جنين قال عمرو بن كلثوم :

ولا شمطاء لم تدع المنايا لها من تسعة إلا جنينا

وخلق الجن قبل خلق آدم وذريته ؛ منهم من يتوالدون ، ومنهم طوائف لا تتوالد ، وإبليس وجنده طائفة من طوائف الجن ألطف أجساما وأسرع مسيرا وطيرانا ، وكفرت بالله طائفة إبليس وفريق من أممهم ، والجن مكلفون لا خلاف فى ذلك وركبت فى طبائعهم الشهوات قادرون على فعل الخير وفعل الشر مجزيون بأعمالهم إن خيرا نخير وإن شرا فشر . ولقد بين ذلك الكتاب العزيز ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ . وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ : فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِيَائِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ « (١)

والخطاب هنا للجن والإنس . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه السورة على الجن كما قرأها على الإنس تبليغا للمكلفين على خلاف في أن المصطفى رآهم ساعة القراءة . أولم يرهم إلا أن سماعهم أمر مؤكد « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ » (٢)

وكما جاء في قوله سبحانه وتعالى: « قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالُ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِنِي فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا . وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا . وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَهْدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا . وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا . لِنَقْتَنِيَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا . وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » ^(١) .

وقال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » ^(٢) يدعوهُ أى يدعو الله ويعبده ، وذلك ببطن نخلة حين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويتلو القرآن « كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه . قال الزجاج ومعنى لبدا يركب بعضهم بعضا ، وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوة ، تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره . . ولا شك أن الجن مدعوون للإيمان مكلفون ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .
يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ « (١) » .

ولم يرسل الله للجن رسلا من أنفسهم وعلى هذا القول معظم العلماء وأن رسل الجن هم رسل الإنس لأنهم يستمعون إليهم وبذلك يحصل البلاغ ، ومتى حصل البلاغ لا تقوم لهم حجة ، كما أنهم يخالطون الإنس من حيث لا يرونهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ إِلَى الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما عن أبى هريرة - والمراد بالأسود فى الحديث : الجن ، ويقوم من الجن قوم للوعظ والتبليغ نيابة عن الرسل ، وهم علماءهم ورثة الأنبياء ، وكثير من الجن يحضرون مجالس العلم ويسمعون من الإنس إما فى حالة مستترة ، أو فى حالة تشكىل . وأذكر هنا حادثة وقعت أيام جدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه على رأى جمهرة من الناس والطلبة وهى أنه كان يقرأ درسا فى أيام الصيف تحت شجرة على التربة أمام زاوية الشيخ راجح ببلده رأس الخليج وبينما هو يقرأ فى كتاب الزواجر للعلامة ابن حجر إذ وجد الطلبة ثعبانا بالقرب منهم فقام أحدهم ليقطله فالتفت له الأستاذ وقال له أتركه فإن الجن تحضر مجالس العلم لاستماعه فتركوه وبعد ذلك وجدوا ثعبانا آخر جاء وثالثا ورابعا ، فأمر الأستاذ الطلبة بعدم التعرض لهم واستمر فى القراءة وعند ما ختم الدرس تفرقت الثعابين وغابوا عن الأبصار .

وكان يحضر دروس الإمام الغزالى قوم من الجن وتعرفوا إليه وكانوا يستفتونه فى كثير من المسائل الشرعية ، ويتطوعون بإخباره الأخبار العجيبة مما يحدث فى أقصى البلاد ، فأخبروه بتصنيف الزخشرى كتابه الكشف ، وكان الزخشرى ينكرهم ، فأمرهم الغزالى رضى الله عنه بإحضاره ، فأتوه به شيئا شيئا من حيث لا يشعر الزخشرى حتى كتب منه جملة

ثم أراها للزخشرى فبهر لأنه لم يمكن أحدا من الاطلاع عليه ولا يمكن أن تتوارد الخواطر على مثل هذا القدر ، فقال له الغزالي إنه وصل إلينا من أيدي الجن فهل تعود إلى إنكارهم ؟ فرجع عن ذلك . وأما ائتمام الجن بالإنس في الصلوات ، وهل تجوز صلاتهم وراء الإنس ؟ فلم أطلع لها على سند ، وأما قضائهم ففهم وأحكامهم بميزان الشريعة واجتهادهم في استنباط الأحكام بما يوافق طبائعهم وبيئاتهم ، وصلاتهم وتعبدهم كصلواتنا وتعبدنا « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ^(١) وهم يحضرون مجالس الذكر ، وأهل الصلاح منهم يحيون أهل الصلاح من الإنس ويتواجدون من الذكر معهم خصوصا إذا حضرته الملائكة ولأن الذكور يرقهم ويخفف من كثافة أرواحهم .

وأما تكليف الإنس فأشرف من تكليفهم لأنهم يرونهم من حيث لا يراهم الإنس وهم أخف أجساما وأقوى وأقدر ، والإنس أثقل أجساما وأضعف وأعجز ، وهم أقدر على معرفة الشيطان في خفائه وتفهم أحيائه وحيله من بني آدم ، ولأن الإنس مبتلون بفتنتهم وبما يزين كفار الجن وفسقتهم لأبناء آدم من أسباب الغواية من حيث لا يشعرون إلى غير ذلك وهذا يستدعي جهادا شاقا ، كما أن من بني آدم الرسل ولهم قدم صدق عند ربهم وهو الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

مخاطبة الجبرم للنفس : لاشك بعد الذي قدمنا من معرفة أن الجن وهم من سكان الأرض يخاطبوننا من حيث لا نشعر ، إذ يَسْتَخْفُونَ وَيَكْلُمُونَا فِي أَنْفُسِنَا وَيَعْلَمُونَ مَا نَوَآيَا وَأَخْبَارَنَا ، وكل ذلك نحملة على أنه من حديث النفس ولو كانت النفس غير راغبة في هذه الأحاديث ، وقد يتشكلون على صور شتى من الحيوان . عن أبي السائب قال : « دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّيَ فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ ، فَسَمِعْتُ تَحْرِيكَ فِي عَرَاجِينِ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ فَالْتَفْتُ فَإِذَا حَيَّةٌ قَوْئِبَتْ لِأَقْتِلَهَا فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ أَجْلِسَ فَجَلَسْتُ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ . فَقَالَ أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ ؟ فَقُلْتُ نَعَمْ . فَقَالَ : كَانَ فِيهِ فَتَى مِنْ قَرِيبِ عَهْدٍ بِعُرْسٍ . فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْخَنْدَقِ ،

فَكَانَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ لِيَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ
فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ
قُرَيْظَةَ ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلَاحَهُ فَأَتَى أَهْلَهُ ، فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابِ قَائِمَةٌ ، فَأَهْوَى
إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ لِيَطْعُنَهَا بِهِ وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ . فَقَالَتْ لَهُ : أَكْفَفْ عَلَيْكَ مِسْحَكَ
وَأَدْخُلِ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي . فَدَخَلَ الْبَيْتَ فَإِذَا حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ مُنْطَوِيَةٌ
عَلَى الْفِرَاشِ ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ فَانْتَضَمَهَا بِهِ . ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَّزَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ
عَلَيْهِ ، فَمَا نَدَرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الْحَيَّةُ أَوِ الْفَتَى ، قَالَ جِئْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَقُلْنَا ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحْيِيَهُ . فَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ .
ثُمَّ قَالَ إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جَنًّا قَدْ أَسْلَمُوا . فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَادْنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنْ بَدَأَ
لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ هُوَ شَيْطَانٌ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَمَالِكٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ .
وَعَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ أَبِيهِ : قَالَ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَيَاتِ الْبُيُوتِ فَقَالَ :
« إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُنَّ شَيْئًا فِي مَسَاكِنِكُمْ فَقُولُوا لَهُ نَنْشُدُّ عَلَيْكَ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُمُ
نُوحٌ ، وَنَنْشُدُّكَ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُمُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَا تُؤْذُونَا وَلَا تَتَرَاؤُنَا لَنَا ،
فَإِنْ عُدْنَا فَاقْتُلُونَهُنَّ » أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ .

وَالْغَالِبُ أَنَّ هَذَا الْحِكْمَ نَسَخَ حَتَّى لَا يَتَرَاى الْجَنُّ وَيَدْخُلُ فُسْقَتَهُمْ وَكُفَارَهُمْ فِي هَذَا التَّرَائِي
فِي حِصْلِ الْإِلْتِبَاسِ عَلَى النَّاسِ ، وَلِذَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ كُلَّهِنَّ فَمَنْ خَافَ تَأْرَهُنَّ فَلَيْسَ مِنِّي » أَخْرَجَهُ
أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
« مَنْ تَرَكَ الْحَيَّاتِ مَخَافَةَ طَلَبِهِنَّ فَلَيْسَ مِنَّا مَا سَأَلْنَا عَنْهُنَّ مِنْدُ حَارِبْنَاهُنَّ » أَخْرَجَهُ
أَبُو دَاوُدَ . لِذَلِكَ لَا يَظْهَرُ الْجَنُّ وَلَا يَتَرَاى خَوْفُ أَنْ يَضِيعَ دَمُهُ هَدْرًا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ
فَإِنَّهُ يَفْعَلُهُ جَرَأَةً وَاسْتِخْفَافًا بِنَفْسِهِ أَوْ إِذَا وَثِقَ بِمَعْرِفَةِ أَهْلِ بَصِيرَةٍ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ ، وَقَدْ مَنَعَ اللَّهُ
الْجَنُّ مِنَ التَّرَائِي رَحْمَةً بِبَنَى آدَمَ ، فَمَنْ تَرَاى مِنَ الْجَنِّ وَقَتْلَ وَقَعَ ذَنْبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا دِيَّةَ لَهُ ،

ومن طلب من أبناء آدم هذا الترائى وتسلط على الجن بالتعاويد ووقع له سوء فهو المسئول عن نفسه ، ولا تضر الجن إلا خفيف العقل ضعيف الأعصاب فقد يلعب به فسقة الجن وكفارهم ، أما رابط الجأش فلا يضره بشيء وهو أقوى منهم بآيات القرآن الكريم والتسمية كلما دخل مكانا من الأمكنة ، إنما الأفضل أن لا يسير الإنسان ليلا في الوحش من الأمكنة إلا لضرورة ومع من يطمئن في السير معه . عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا اسْتَجَنَحَ اللَّيْلُ أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ فَكُفُّوا صَبْيَانَكُمْ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ . فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَهُ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ ، وَأُطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ ، وَأَوَّلُكَ سِقَاءَكَ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ ، وَخَمْرُ إِنَاءِكَ وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرِضَ عَلَيْهِ شَيْئًا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا ، وَأُطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ فَإِنَّ الْفُؤَيْسَةَ رُبَّمَا جَرَّتِ الْفَتِيلَةَ فَأَخْرَقَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَقْلُوا الْخُرُوجَ بَعْدَ هِدَاةِ الرَّجُلِ فَإِنَّ لِلَّهِ دَوَابَّ يَبْثُثُ فِي الْأَرْضِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ » أخرجه أبو داود . والحقيقة أنه لا داعى للخروج ليلا في الأمكنة المظلمة والقفار لغير حاجة فإنه مما يعرض للهلكة ، وكان العرب يخوفون من الشياطين ويسمونهم شيطان الحماطة وغول القفرة وجان العشرة كما قال الشاعر :

فانسلطت لى مثل سعلالة العُشر تروح بالويل وتعدو بالغير
وقال غيره :

يأيها الضاغب بالعمول إنك غول ولدتك غول

وفى جميع أمم الأرض نوازع الخير ونوازع الشر سواء من الجن والإنس ؛ ومن نوازع الشر عند عصاة الجن حب معاكسة الإنس والتسلط عليهم ، ولا يتسلطون إلا على الجبناء وقليل الإرادة وضعفاء العقول والمرضى بأعصابهم وخصوصا فى سن المراهقة ، وفى غالب

الأحيان لا يتم تسلطهم إلا على النساء لضعف إرادتهن ، وفي أيام الطمث وعند تغير طبيعة الدم من أثر العادة ومن مباشرة العادة السرية ، لذلك يحسن أن لا ينام أمثال هؤلاء من الرجال والشباب والنساء وحدهم ولا يصح تركهم للخوف والفرع لأن جنبهم يعرضهم للمس مع مراقبتهم مراقبة دقيقة ، وأحسن دواء هو تقوية الروح المعنوية فيهم وتنمية إرادتهم لأن أقوى الجن يرتاع من شجاع القلب ويختفى من طريقه ، والأمة الإسلامية محفوظة منهم بعناية الله وبما أكرم الله به رسوله وأمته وبما أنزله على رسوله في الكتاب الكريم وخصوصاً آية الكرسي والمعوذتين .

ولقد أغرم الجن بالإنس والانس بالجن من غابر الأزمان ، ذلك لأن الجن تحب السيطرة على الإنس ويتلذذون بذلك وهو من أسباب متعتهم وتسليتهم استخفافاً بعقول البلهاء منهم ، ويغرم الإنس بذلك استقراراً لعالم يغيب عن أبصارهم وللاستعانة بهم في الأمور التي لا يقدرُونَ عليها إلا بهم من فعل الأعاجيب ومعرفة الأخبار الغريبة والإتيان بها من الأمكنة البعيدة ليختالوا على الناس غروراً وليسلبوهم أموالهم ، واتخذوا من هذه البضاعة الفاسدة حرفة لهم ، ونتج من ذلك للناس فتن كبرى طغت على النفوس والعقول ، وشاعت من أسبابها أعمال السحر والكهانة والعرافة والرئي والتطبيب ، وما من أمة إلا فشا فيها هذا النوع من الاتصال وكثرت فيها الخرافات والنصب والدجل خصوصاً في الأجيال الغابرة . ولقد جاءت رسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بأقوى المعجزات للقضاء على السحر والشعوذة فزالَتْ بها كثير من البلايا ، ولكن الشيطان لم ينفك عن غوايته لعالمى الإنس والجن للقيام بهذا الاتصال غير المشروع لما ينتجه من الضلال البعيد . وجاء زمن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فكان يعالج الصرعى والممسوسين ويخرج من أجساد الأدميين الأرواح الخبيثة التي حلت بها ، وكُم حذر عليه صلاة الله وسلامه من هذا الاتصال ، ولكن ظل فريق كبير من الناس في شغف بهذا الاتصال وكثر وشاع قبل مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان للعرب في ذلك أخبار^(١) كما كان هذا النوع متسلطاً على عقول الأمم الأخرى

(١) كان العرب يزعمون أن لهم خداماً من الجن فيقولون فلان مخدوم يذهبون إلى أنه إذا عزم على الشياطين والأرواح والعمار أجابوه وأطاعوه . فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي

كان يقال له صديق إبليس ، ومنهم كرباش الهندي ، وصالح المديري وكانوا يشرطون للإجابة عزيمة ، وكان عبید مج يقول إن العاص حريص على إجابة العزيمة ، ولكن البدن إذا لم يصلح أن يكون له هيكل لم يستطع دخوله ، والحيلة في ذلك أن يتبخر باللبان الذكر ويراعى سير المشتري ويفتسل بالماء القراح ، ويدع الجماع وأكل الزهومات (وهي ریح اللحم السمين المنتن) ويتوحش في الفياثي ويكثر من دخول الخرابات ، حتى يرق ويلطف ويصير فيه مشابه من الجن فإن عزم بعد ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها فإنه ممن لا يصح لأن يكون بدنه هيكلها ، ومق عاد خبط فرما جن ومات .

وكان العرب يزعمون أيضا أنهم يخرجون إليهم فيرونهم في الظلام ، وكان بعض هذه المزاعم حقا وبعضها مما يصطنعه الناس لتضليل القوم ، وكانوا يؤمنون بالهاتف وكان لبعضهم هتاف ورئ من الجن يهتفون لهم بالأخبار الصحيحة قبل أن تصل إليهم من أمكتها البعيدة وبها علم الناس بوفاة الملوك والأمور المهمة ، وكانوا يقولون إذا أُلّف الجن إنسانا وتعطف عليه وخبره ببعض الأخبار ووجد حسه ورأى خياله مع فلان رأى من الجن وممن يقولون ذلك فيه عمرو بن لحي بن قعدة ، والمأمون الحارثي ، وعنتية بن الحارث بن شهاب ، وكثير من ذوى الأقدار من بين فارس رئيس وسيد مطاع ، وإذا اشتدت العرافة وارتقت كان صاحبها كاهنا مثل الأبلق الأسدي والأجلح الزهري وعروة بن زيد الأسدي وعراف اليمامة رباح بن كحلة وهو صاحب بنت المستنير البلتعي وقد قال الشاعر :

فقلت لعراف اليمامة داوئي فإنك إن أبرأتني لطيب
وقال جيهاء الأشجعي :

أقام هوى صفية في فؤادي وقد صيرت كل هوى حبيب
لك الخيرات كيف منحت ودي وما أنا من هواك بذى نصيب
أقول وعروة الأسدي يرقى أنك برقية الملق الكذوب
لعمرك ما التأثب يابن زيد بشاف من رقاك ولا محجب
تسير الناعجات أظن أشفى لما بي من طبيب بنى النهب

وليس الباب الذي يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والجزر والخطوط والنظر في أسرار الكف وفي الخيلان في الجسد وفي النظر في الأكناف والقضاء بالنجوم والعلاج بالفكر .
وقد كان مسيلة يدعى أن معه رؤيا في أول زمانه ولذلك قال الشاعر حين وصف مخاريقه وخدعه :

تسلطاً شديداً^(١)، وأكثرت الناس احترافاً في هذا الشأن من اليهود، وأكثر العزائم التي تستعمل مردّها إلى وضعهم وهم أعلم الناس بأسماء الجن وأكثرهم استمتاعاً بالجن فأضلّوهم عن سواء السبيل .

بيضة قارور وراية شادن وخلة جنى وتوصيل طائر

وذكروا أن الجن استهوت كثيراً من الأعراب وبعد أن زادوهم رهقاً قتلوهم ، منهم مرداس بن أبي عامر والغريض قتلوه خنقاً بعد أن غنى بالغناء الذي نهوه عنه ، وسان بن حارثة وعمرو بن عدى اللخمي الملك ، وعمار بن الوليد بن المغيرة ونفخوا في إحليله فسار مع الوحش ؛ وذكروا أن سعيد بن خالد بن عبد الله بن أسيد كانت تصيبه مؤنة نصف سنة ونصف يصح فيحبو ويعطى ويكسو ويحمل فأراد أهله أن يعالجوه فتكلمت امرأة على لسانه فقالت : أنا رقية بنت ملحان والله أن لو علمت مكان رجل أشرف منه لعلقته ، والله لأن عالجتموه لأقتلنه .

وتكلم العرب عن زواجهم بالجن وممن زعم ذلك شمر بن الحارث الضبي إذ قال :

أتوا ناري فقلت منون أنتم قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نخسد الإنس الطعاما

ويزعمون أيضاً أنه يحصل من هذا الزواج نتاج مشترك وخلق مركب منهم بنو السعلاة من بني عمرو بن يربوع وبلقيس ملكة سبأ . وعلى ذكر هذا أذكر أني رأيت مرة في منامى أن شيخاً من الجن أتى إلى ومعه بنت ترى في التاسعة من عمرها فلما رأيته وجدت فيها جمالا فاتنا فقال لي هذه بنت من الجن تزوجها قلت هذه صغيرة قال لا ولكنها تتشكل لك في الصورة التي تحبها . قلت له : إنني سائلك فاصدقني هل تتأثر حالي من زواجها ؟ قال نعم لاختلاف الطبيعتين قلت له وهل إذا اختلفنا تستطيع أن تضرنى من حيث لا أعلم قال نعم قلت له لا رغبة لي في هذا الزواج فانصرف . ومرة رأيت أخرى من الجن فدافعتها ودافعتني فقرأت في منامى قوله تعالى (إن الدين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فانتهت وتيقظت . واختلف الأئمة في صحة زواج الإنس بالجن فبعضهم أجازه ، والعظم لم يبيحه ولم يحكم بصحته .

(١) ومما ذكره الجاحظ عن افتتان بعض النصارى بمصاييح كنيسة قمامة ؛ قال : وقد تعرف ما في عجائز النصارى وأغمارهم من الافتتان بمصاييح كنيسة قمامة ، فأما علماؤهم وعقلاؤهم فليسوا بمتحاشين من الكذب الصرف ، والجراءة على البهتان البحت ، وقد تعودوا المسكارة حتى دربوا بها الدرب الذي لا يظن له إلا ذو الفراسة الثابتة ، والمعرفة الثاقبة .

ولما أراد الله بالخلق رحمة ، وأرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؛ مكن له في العالمين ، وخفف فتنة الجن ، وبين أمرهم ، وأعطاه حرزا له ولأمته من كيدهم ، فأُنزل آية الكرسي والمعوذتين ، من قرأها لم يصبه شيء ، ومنع الله حفيف الجن بأمته فردوا إلى معاطنهم لا يروضون إلا هؤلاء الذين يناون عن هدى الرسول ويحبون الزيف من العمل وزخرف القول غرورا ، فمن وقع في كيدهم أو طلب استحضارهم وأوذى أو قتن فلا يلومن إلا نفسه ، لأن الشريعة نهت عن ذلك .
وقد جاءني خطاب هذا نصه :

حضرة صاحب العزة عبد المنعم بك الحلواني .
السلام عليكم ورحمة الله وبعد ، فأرجو إفتائي في السؤال الآتي : هل يجوز لأحد من بني الإنسان أن يستعين بالجن في شأن من الشؤون ويعمل لتحضير أرواح الجن شرعا .
وتفضلوا بقبول احترامي والسلام .

رضوانه على القاضى
بشبرامنت مركز الجيزة

١٩٤٧/٣/٩

فأجبتة :

الاستعانة بالجن لا تكون إلا في طلب الأخبار المغيبة أو الأعمال التي يعجز الآدمي عن عملها فإن كانت من المباح فهي غير ضرورية بل لا يحيزها حدود التكليف لأن للجن تكليفا على مدى قدرتهم وللإنس تكليفا في حدود طاقتهم ، فالاستعانة بهم تخرج الناس عن حدود التكليف وتجعل للبعض قدرة تفوق قدرة غيرهم . وهذا خروج عن سنة الله التي سنّها لعباده فيكون عمل هؤلاء غير مشروع ، لأن الله لا يميز الناس عن الناس بهذه الوسائل وليست مما جاء عنها نص في كتاب الله إلا قوله تعالى في قصة سليمان : « قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » ^(١) وهذه خصوصية

لسيدنا سليمان عليه السلام إذ كان من معجزاته تسخير الجن وقد دعا ربه : « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » (١) .

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه لم يمك بتلايب الشيطان الذي تعرض له لدعوة سيدنا سليمان هذه (٢) . وفي هذا دليل على أن تسخير الجن والشياطين والطير كان خصوصية له . ثم إننا لا نجد من الاستعانة بهم فائدة حقيقية تعود على طالبها منهم فضلا عن عدم الخضوع لخروجها عن السنن التي كلفنا الله في حدودها وفي طاعتها ، والاستعانة بهم كاستعانة الأمم في الحروب أمام خصومها بالوسائل غير المشروعة كاستعمال الغازات السامة ، ثم إنها تؤدي إلى فتنة وتؤدي إلى فساد لأنه من المشاهد أن كل من استعان بهم مات على فقر وعاش شقيا وقهلا نجا من الكفر والفسوق لأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ويفضحهم في آخر أيامهم وهو يدخل تحت باب التمتع والاستلاذة بالجن ، وقد حذرنا الله منه كما سيأتي . وكثير من الجن فسقة فجرة أو كفرة ملحدة فلا يستعان بهم إلا بقبول الفسق والإلحاد والتغريب بالعقول وعبادة غير الله وتلاوة أسماء شياطينهم والاستهزاء بالله ورسوله وآياته سبحانه الله عما يصفون ، ثم يصلون بعد ذلك إلى تعليم هؤلاء المستعنين بهم السحر والنفث والرقى (٣) وهو محرم شرعا لسد الذرائع

(١) آية ٣٥ ص (٢) راجع الحديث بتمامه فيما سبق .

(٣) السحر : أنبأنا الله سبحانه وتعالى عن السحر في قوله جل وعلا (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حق يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) ١٠٢ البقرة ، وفي تفسير الآية قال محمد بن إسحق : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان في المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود كان نبيا : والله ما كان إلا ساحرا ، فأُنزل الله (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) أي أُلقت إلى بني آدم أن مافعله سليمان من ركوب البحر واستسخر الطير والشياطين كان سحرا . وقال الامام القرطبي في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) « ما » نفى والواو للعطف على قوله (وما كفر سليمان) وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ، فنفي

الله ذلك؛ وفي الكلام تقديم وتأخير ، التقدير وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملوك ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر بابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله (ولكن الشياطين كفروا) هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى ما سواه ، فالسحر من استخراج الشياطين للطاقة جوهرهم ودقة أفهامهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الانس النساء وخاصة في حال طمئن ، وقال في قوله تعالى (وما يعلمان من أحد) من زائدة للتوكيد والتقدير وما يعلمان أحدا ، ونقل عن السدي : كنا يقولان لمن جاءهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فإن أبي أن يرجع قال له : أنت هذا الرماد قبل فيه ، فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع إلى السماء ، وهو الإيمان ، ثم يخرج منه دخان أسود فيدخل في أذنيه وهو الكفر ، فإذا أخبرهما بما رآه من ذلك علماه ما يفرقون به بين المرء وزوجه انتهى . وهذا على جواز أن هاروت وماروت فتنا لما نزل الأرض واحتملا القوى الشهوانية لبيان فضل آدم وبنيه من الصالحين ثم يتوب الله عليهما بعد العقوبة وإن الله أراد فتنة الضالين على حد قوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) والحكمة عليا جلت عن الأفهام . وقال تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أى أنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، ولا يغيب عن علمه شيء ، فالؤمن المتوكل الموحد لا يقع تحت طائلة سحرهم بل يرد السحر على أهله ، وما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو لبيانه ولإظهار كرامة الله له ، وتعليم أمته ما يتقون به السحر ، ولذلك لا ينال المسلم الصادق منه أذى إلا إذا خار إيمانه ، ورجع إلى السحرة في فك سحره ، فانه يوشك أن يتعرض له بين فينة وأخرى ؛ وكفى بتلاوة آيات الله والمعوذتين حصنا من كيد السحرة وكفى بالله وكلاء ، والسحر من عمل الشيطان بواسطة كفر الجن والانس بهزأون بآيات الله ويضلون الخلق بتلاوتها للتأثير بها فيكفر قارئها في أمكنة القنطرة ويرتفع من أحرفها النور لكفر القارئ فتستحوذ على قلبه الشياطين ؛ أو بقراءة أسماء الجن والشياطين ومعظمها ألفاظ عبرية وفي مبانيها خايط وإلحاد في أسماء الله الحسنى ، ومن الغريب أن يتعبد بعض المسلمين بالأسماء العبرية جهلا وحسن نية كأنهم تنسكوا فلم تكفهم عبادة رسولهم أشرف الرسل ، ولم يرد بذلك نص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل ورد النهي ؛ قال الله سبحانه وتعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون . ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وما هو سندهم إذا وقعوا في إلحاد الملحدين وغواية الضالين ؟ وهلا يكون من الأسلم ترك المشتبه فيه إلى ما لا شبهة فيه وترك ما لم يؤجروا به إلى ما جاءنا به الكتاب

الكريم وسنة سيد المرسلين حتى لا يقعون في إلحاد الملحدين وأعمال السحرة وعبادة الشياطين من حيث لا يشعرون جزاء المخالفة ، وقد قال الله سبحانه وتعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

ونقل القرطبي عن الغزنوي الحنفي في عيون المعاني له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل لها ، وعند الشافعي وسوسة وأمراض ، قال وعندنا أصله طلسم يبنى على تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس في زئبق عصى فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر . وقال القرطبي رضى الله عنه بعد ذلك : وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء على ما يأتي . ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة . والشعوذى البريد لحفة سيره ، قال ابن فارس في المجلد : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة في اليدين وأخذة كالسحر ؛ ومنه ما يكون كلاما يحفظ ؛ ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

وقال رضى الله عنه : من السحر ما يكون كفرا من فاعله مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم في هيئة بهيمة وقطع مسافة شهر في ليلة والطيران في الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه . قال أبو نصر عبد الرحمن القشيري قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يقلب الحيوان من صورته إلى صورة ما فيجعل الانسان حمارا أو نحوه ، ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ، فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء ويدعى مثل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيا مع هذا علم صحة النبوة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة . وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهات وتخيلات فلم يجب على أصله قتل الساحر إلا أن يقتل بفعله أحدا فيقتل به .

وقال رضى الله عنه : واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذي ، فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته ، لأنه أمر يستسر به كالزنيق والزاني ، ولأن الله تعالى سمى الساحر كافرا بقوله (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور واسحق والشافعي وأبي حنيفة . وروى قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : حصد الساحر ضربة بالسيف ، أخرجه الترمذى وليس بالقوى ، انفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، رواه ابن عينة عن

إسماعيل بن مسلم عن الحسن مرسلا؛ ومنهم من جعله عن الحسن عن جندب قال ابن المنذر: وقد روينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها في الرقاب، قال ابن المنذر وإذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كافرا وجب قتله ان لم يتب، وكذلك لو ثبتت به عليه بيعة ووصفت البيعة كلاما يكون كافرا، وان كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يحز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جنابة توجب القصاص اقتص منه إن كان عمدا ذلك، وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك، قال ابن المنذر: وإذا اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب اتباع أشهرهم بالكتاب والسنة، وقد يجوز أن يكون السحر الذي أسر من أمرهم بقتل الساحر سحرا يكون كفرا، فيكون ذلك موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن تكون عائشة رضى الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرا، فإن احتج محتج بحديث جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم «حد الساحر ضربة بالسيف» فلو صح لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذي يكون سحره كفرا، فيكون ذلك موافقا للأخبار التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث» قلت وهذا صحيح، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف، والله تعالى أعلم وقال بعض العلماء: ان قال أهل الصناعة لا يتم السحر إلا مع الكفر والاستكبار وتعظيم الشيطان فالسحر إذن دل على الكفر على هذا التقدير، والله تعالى أعلم.

وروى عن الشافعي رضى الله عنه: لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تعمدت القتل، وإن قال لم أتعمد لم يقتل، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ، وإن أضرب به أدب على قدر الضرر، قال ابن العربي: وهذا باطل من وجهين: أحدهما أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى وتنسب إليه المقادير والكائنات. الثاني أن الله سبحانه وتعالى قد صرح في كتابه بأنه كفر فقال: وما كفر سليمان بقول السحر، ولكن الشياطين كفروا به وبتعليمه وهاروت وماروت يقولان إنا نحن قتلنا فلا تكفر، وهذا تأكيد للبيان احتج أصحاب مالك بأنه لا تقبل توبته، لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزندق وإما يستتاب من أظهر الكفر مرتدا، قال مالك فإن جاء الساحر أو الزنديق تابيا قبل أن يشهد عليهما قبلت توبتهما والحجة لذلك قوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) فدل على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل زول العذاب، فكذلك هذان.

وأما ساحر الذمة فقيل يقتل، وقال مالك رضى الله عنه لا يقتل إلا أن يقتل بسحره ويضمن ما جنى ويقتل إن جاء منه ما لم يعاهد عليه والبعض قال باستتابته وقال مرة: يقتل

ولا يستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضا في الذمي إذا سحر يعاقب ، إلا أن يكون قتل بسحره ، أو أحدث حدثا فيؤخذ منه بقدره ، وقال غيره يقتل ، لأنه قد نقض العهد ، ولا يرث الساحر ورثته لأنه كافر إلا أن يكون سحره لا يسمى كفرا . وقال مالك في المرأة تعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها تنكل ولا تقتل .

واختلفوا : هل يسأل الساحر حل السحر عن المسحور ، فأجازه سعيد بن المسيب على ما ذكره البخاري ، وإليه مال المزني وكرهه الحسن البصري ، وقال الشافعي رضى الله عنه لا بأس باللشرة وهي ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مسا من الجن لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أى يكشف وي زال ، قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضر به بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل فإنه يذهب عنه كل مابه إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله انتهى .

والنفث في العقد : عمل من أعمال السحر وهو أن يعقد الساحر عقدة ثم ينفث من نفسه وريقه عليها ثم يتلو العزيمة ويطلب سوء فتستلذ منه الشياطين ومردة الجن ويستشعرون من النفس ريح الآدمي الطالب وأنه مدعن لهم مستعين بهم مغضب لربه والعقد تأكيد لذلك والأثر الذي ينفثون عليه يدل على ريح المطلوب فيخيلونه بالأخيلة التي تؤثر فيه ولا تؤثر في المؤمن الداكر الملتجئ إلى ربه أنرا يذكر . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئا وكل إليه » أخرجه النسائي ، ويطلق عمل النفث تلاوة المعوذتين وقراءة (أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من كل شيطان وهامة ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون . أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن) .

الرفق : هو ما يقرأ من العزائم وما يعلق من التأمم التي لا أصل لها من الشريعة الغراء والتي خلط المدلسون أقوالها من الآيات للتمويه وفيها التعزيم على الجن والشياطين وتلاوة أسماءهم وتعظيم شأنهم . وقد يدخلها الإلحاد وهو الغالب عليها ويوهمون بها

العامة أن فيها الشفاء وأن الأرواح تداوى بواسطتها المرضى فيقع المرضى تحت إرهاباتهم وأخيلتهم ، وتارة يتوهمون الشفاء من تخيل هؤلاء وتزيينهم ثم لا يلبث المرض أن يشتد عليهم فيعاودون الكرة مرة بعد مرة ، وطورا آخر يسمون في أنفسهم لعب هؤلاء فيجعلون منهم الوسطاء الذين يستعينون بهم في الاستحواذ على الآخرين ، والله جلت قدرته لا يهدى كيد هؤلاء من دجالى الطب الروحاني فيفضح أمرهم وتتسلط الأوجاع على من يعتقد فيهم فلا يبرأ ، ومتى وقع المريض تحت براثن هؤلاء المدجلين لا ينفك الشيطان يحذره وخيم العاقبة إذا لم يعاود زيارتهم فقلما يتوب حتى يموت إلا إذا أدركه الله بلطفه ونزع إلى الإيمان بالله بقوة ورباطة جأش راضيا بما كتبه الله عليه ، فإن صدق جاءه الشفاء ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله ، عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة رضى الله عنه فقال : ادع الله تعالى أن يجعلني منهم قال أنت منهم ، فقام آخر فقال يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال سبقت بها عكاشة » أخرجه مسلم . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن في الرقي والتأمم والتولة شركا » فقالت امرأة لا تقولوا هذا لقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي فيرقيني فتسكن . قال عبد الله رضى الله عنه : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاك كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أذهب الباس رب الناس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما » أخرجه أبو داود . وعن جابر رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة فقال هو من عمل الشيطان » أخرجه أبو داود . وعن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبد الله بن عكيم رضى الله عنه وبه حمرة ، فقلت : ألا تعلق تميمه ؟ فقال نعوذ بالله من ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلق شيئا وكل إليه » أخرجه أبو داود .

والتطبيب بالزوار مرض وييل أصاب الأمة الإسلامية الموحدة فزادت منه البلايا والفتن وهو في الأصل استمتاع من الجن لضعفاء الإنس وجبنائهم ممن يقعون تحت سيطرتهم ويفقدون الإرادة وهو مما يكثر عند فساد عالم الجن وعالم الإنس ، لأن صلاح أحدهما يؤثر في الآخر وفساد أحدهما يزيد في فساد الآخر (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) وذلك إذا كثر الفسق وتجروا على جبار السموات تشتد عليهم الفتن ، والتطبيب بالزوار فسق من الجن والإنس ، اذ يستمتع فساق

الجن برقص الإنس وطبولهم ونحورهم واختلاطهم فيدلسون عليهم ويمسسون عقولهم ويحبسونهم في المحرمات ويزينون لهم الدنئات ويعدى بعضهم بمرض غيرهم، ومن التدليس أن يقيق المريض من ضرب الجن ومس الشياطين مدة من الزمن للتغريض ثم يعاودون الكرة لتحصل الفضيحة والإثم بال تكرار، وباللعار أصبح الناس ينفقون على الزار بلا استحياء ما ينفقونه على الأفراح ويتباهون بذلك من غواية الشيطان، وفسقة النساء يدعين أن الأسبياد جاءتهن وتقوم بتمثيل أدوار الحبل والمس أمام أزواجهن ويحبرنهم على عمل الزار فيطيعون من ضعف الإيمان والعقول وهم لا يعلمون ماخبأهن لهم أزواجهن من خيانة الأعراض، وقد علم مما مر أن إتيان هذه الأعمال والاستمتاع بها محرم شرعا ومما يدخل تحت حكم الشرك.

وقد امتد الفساد الى طبقات المتعلمين والأسر الراقية، إذ تمدن الجن بما علموه من أحوال الانس فأصبح جن أفرنجي واخترعوا له الطب الروحاني يدعون أن الأطباء من الموتي السابقين خرجوا من البرازخ لمعالجة المرضى وحيثئذ ما على الأطباء الأحياء إلا أن يتواروا عن الأعين فقد بار طبهم وبطل عملهم لأن من هم أقدر منهم في عالم الروح قد تهيأوا للعمل فاجتمع الدجالون من الوسطاء ومنهم النساء والرجال لمس المريض ومنهم من يجلسون في حجر منازلهم ويظلمونهم ساعة خاصة يحددها أهل الدجل لزيارة الأرواح وهذا كله من عمل الجن في الصورة الحديثة من تهيينهم وتزيينهم، فياليت الحكومة تضرب على أيدي هؤلاء جميعا وتعمل تشريعا يحرم هذا الدجل الويل العواقب، وشريعة الاسلام الغراء تحرم ذلك بل حكم معظم أجلة العلماء على متعاطيه اعتقادا بالكفر والشرك والعقوبة على خلاف القتل وأقلها الطرد أو النفي.

ولا يدخل في هذا العلاج النفساني، فالعلاج النفساني مشروع وهو علاج المريض بالتأثير الذاتي لتقوى ارادة المريض فيتحمل المرض حتى يعالج منه أو يزول منه الوهم الذي يمرضه ولئلا تتأثر حالته المعنوية فتحصل المضاعفات لأن قوة الروح المعنوية تساعد في الشفاء.

ومن المنكرات الشائعة عمل الطالاسم والتلاوات المحرمة للحب وكثير من الأسر الآن يكتبون للحب ويذهبون للسحرة في سبيل الحب أو لتوثيق عرى المحبة بين الزوج وزوجته والخطيب وخطيبته وهو من السحر وتزيين الشيطان، ويحصل منه التهيسج في الأرواح ولكنه لا يدوم إلا قليلا وينتهي بالعداوة وأوخم العواقب لأن الله سبحانه وتعالى يفضح هذه الأعمال التي حذرنا منها، والقائم بهذه الأعمال معتقدا بها كافر بالإجماع لأن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ومتعلمه اعتقادا به مشارك لهم في الكفر، ومن ذهب إليهم في طلبه فاسق يقع تحت طائلة

ومهانا الله عنه كما يتضمن حكمه هذه الآيات « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ
الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ
وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ » (١) . وقال جل شأنه تحذيرا من مصيرهم : « قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا
ادَّارَ كُوفِهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ
النَّارِ ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ
فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ » (٢) . وقال القرطبي رضى الله عنه :
فاستمتع الجن من الإنس أنهم تلذذوا بطاعة الإنس إياهم وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن
حتى زنوا وشربوا الخمر باغواء الجن إياهم ، وقيل كان الرجل إذا مر بواد في سفره وخاف
على نفسه قال أعوذ برب هذا الوادى من جميع ما أحضر ؛ وفي التنزيل : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ
مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » (٣) فهذا استمتاع الإنس بالجن .
وأما استمتاع الجن بالإنس فيما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر

العقوبة والفتنة ، ومن الغريب أن كثيرا من هؤلاء الذين يقومون بعمليات السحر يدعون
الصالح والإسلام ولاصلاح فيهم والإسلام براء منهم ، فليحذر الذين يريدون وجه ربهم ويرجون من
الله الموت على الإيمان من المسلمين هذا النوع من التعلم والاستعانة بهؤلاء والاعتقاد فيهم فيكونون
معهم شركاء ، ولقد فشت طلائع السحر والكتابة في المغرب من اختلاط بعض اليهود بالمسلمين
ومن التلبيس الذى أدخلوه بكتابة بعض أدعية الصالحين وأسماء الله وإدخالها بين العزائم والأوقاف
وقد نسبوها إلى أسماء من أسماء عظماء الصالحين بهتاناً وزورا ، فليحذر أهل الإسلام هذه
المؤلفات وهذه الخدع والترهات .

(١) آية ١٢٨ الأنعام . (٢) آية ٣٨ - ٤٠ الأعراف . (٣) آية ٦ الجن .

وقيل : استمتع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجن قادرون على أن يدفعوا عنهم ما يحذرون ، ومعنى الآية تفرع الضالين والمضلين وتوبيخهم في الآخرة على أعين العالمين .

ومن الاستمتاع أيضا إقامة مجالس تحضير الجن وما يحصل فيها من استخفاف العقول والتلبيس والتمثل بأرواح السابقين والإتيان بالأخبار المغيبة ، ومن هؤلاء الذين ينالهم العذاب الوسطاء الذين يسلمون أنفسهم ويغيبون عن الصواب لتكلم الجن على ألسنتهم ؛ ومن العجيب أن ذلك شاع أخيرا في الأمة الإسلامية وهو حرام ، وسنتكلم عن ذلك فيما بعد .

وكثير من الجن والشياطين مغرمون بحضور مجالس الإنس والاستمتاع بذلك التفرير ولا يفتأون يطلبونه من الإنس بوسائل شتى ؛ والفسقة منهم يتضررون من طاعة الإنس في تسلطون على المطيعين حتى لا يحرقونهم بأنوار الذكر فيلجأون للتلبيس عليهم وفتنتهم وإخراجهم من حظيرة الطاعة إذا ابتغوا بها وجه الله ، فيعبدون قصد عمل الخارق من الأمور والظهور وحينئذ يخرجون من حفظ الله فيقدر الجن على إيصالهم . وقد أخبرني كثير من الصالحين عن أمثال هذا التلبيس ، والبعض وقع في فتنتهم ، والبعض من الذين أخلصوا بانت لهم حيلهم ؛ وقد أخبرني أخى في الله فضيلة الشيخ على عقل حفظنا الله وإياه ، أنهم جاهدوا معه للتفرير به كما يفعلون مع غيره قال : رأيت في نومي وأنا إلى اليقظة أميل أن رجلا جاءني فسألته من أنت ؟ فقال أنا الخضر ، فقلت له وقد فهمت أنه جنى : مالى وللخضر وأنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يرعاني كتابه وسنته فلا حاجة لى بالخضر ، فقل لى من أنت فحاول إقناعى أنه الخضر فلم أصدق ، فقال أما وقد فهمت فأنا جنى أسكن منزلك وقد أتيت لأضلك وأعينك قطبا . ولكنك لم تتخددع ، فقلت له وما اسمك ؟ قال : وما تعمل باسمى وأنت لا تصدقنى فقلت له إنما اسمك لا يضر ولا ينفع فقال اسمى زمعال ، فقلت وما زمعال هذا ؟ فقال ألم أقل لك إنك لا تصدقنى فقلت وما علينا يازمعال أتضللون الناس هكذا ؟ قال نعم واستيقظت ، ثم عاد مرة يأمرنى بإغلاق النافذة التى يسكنها وأنا نائم فقممت وأغلقتها وقلت له أمر بمعروف لا أخالف فيه وعاد إلى بعد ثلاثة معه زيارة فى النوم أيضا ، فسألته عن أول العزيمة البرهنية ، فقلت لهم برهنتيه برهنتيه تتليهن تتليهن ما هذا ؟ فقالوا هى تهين قلتهن تهين أو تتوين على أى شكل ما هذا

الكلام ؟ فقال بعضهم لبعض دعوه إنه لا يؤمن إلا بدليل وتركوني وانصرفوا ، ورأيت قبل ذلك قوما من الجن وأظهروا لى أنهم الجن وقالوا اختر لك كرامة نظهرك بها نحن الذين نداوى الصرعى فى مقام فلان ونعمل الزهور فى مقام فلان ، فقلت لهم تنحوا عنى إنما اختار الله الذى لا إله غيره ولا حاجة لى بكرامتكم وانصرفوا وانصرفت) .

وأذكر أنى كنت نائما فأيقظنى وأنا فى شدة النوم اثنان من الجن فجلست على سرىرى وأنا أحسبنى يقظان تماما - ولو قيل لى كنت فى منامى - ثم قال لى نحن نحبك لأنك تكثر من ذكر الصمدية ونحب أن نخدمك فيما تأمرنا به فقلت لهما إنما أذكر حبا فى ربى ولست محتاجا لخدمة من قومكم مطلقا فقالا لا بد أن نخدمك رضيت أو لم ترض فقلت لهما اذهبا عنى فإنى متعب والنوم يغلبنى فلا ترهقونى ثم نمت .

ومن الغريب أنه لا زال الناس يقعون فى هذه الأحاييل ويحبون الاتصال بالجن ، وما لهذا الاتصال من فائدة بل يسبب للناس ذهولا وحيرة وتوقعا لطروق هواتفهم فيختبل شعورهم وتتغير أحوالهم وتخف عقولهم ومداركهم من تسلط أرواح الجن عليهم ، لأن الله سبحانه وتعالى عند ذلك يتخلى عنهم ويتركهم لفتنتهم ، وقد كثرت شعوذتهم فى مصر فى السنين الأخيرة وأدت إلى فساد فى المجتمع واختلاط النساء بالرجال والاستحواذ على عقولهم وابتزاز أموالهم ، ولو أن بعض الناس يدخلونها لجرد معرفة حقائق هذه الأشياء إلا أن ذلك لا يفيدهم شيئا وقد يسوقهم الشيطان إلى الاعتقاد بها وينصب شبا كه لهم فلا يستطيعون الخروج من أباطيلهم وتعلاتهم فضلا عن وقوعهم فى محرم شرعا .

وقد قرأت وصف مجلس من مجالس تحضير الجن لا يختلف عن مجالس تحضير الأرواح اليوم وهى الصورة التى صورها الجن للانس استحواذا على عقولهم بطريقتهم الجديدة المتمدينة وسعود إليها فى باب آخر . قال الأستاذ أبو الوفا محمود رمزى نظم فى (كتاب الجن) تأليف الأستاذ مصطفى فهمى الحكيم :

(ومن الخيانة للعلم أن أنكر واقعة لها شهودها وظاهرة لوجود الجن شاهديها بنفسى فوق الثلاثين مرة وأسفى كثير أننى تهاونت فى الاتصال بهم وكان ميسورا وقتئذلى بواسطة

الرجل الذى كان يجلبهم فى ظروف كثيرة بتلاوة دعوة صغيرة وحرق قليل من البخور فى مدة لا تستغرق بضع دقائق ، وإلى القارئین الواقعة وشهودها)

كنت فى صيف سنة ١٩١٣ أقيم فى قريتي بركة السبع ترويحاً عن النفس من ضجيج القاهرة ، وفى ذات صباح أقبل على عالم القرية وإمامها المرحوم الشيخ موسى البيومى وكان ورعاً تقياً صائماً الدهر ، فسألنى ألم تصدق بوجود الجن ؟ قلت بلى وإلا فلست مؤمناً . قال أنتظن أن هناك من يستطيع جمعهم فى مجلس وعلى أعين الشهود ؟ . قلت ما أحسب أن يكون ذلك إلا إذا كان الرجل دجالاً يريد أن يضحك على ذقوننا . قال أثق بى ؟ . قلت نعم إلا فى هذا فإننى أثق بنفسى أشد . قال إذا موعدنا الليلة . قلت وفى دارنا بعد صلاة العشاء ، وفى الموعد اجتمع حوالى الأربعين ذاتاً بينهم الأستاذ العالم يس أفندى حلمى من أعيان المنصورة اليوم ، وبعض أهل الأدب والفضل ووجهاء البلد وجاء الشيخ موسى يرافقه رجل وقور على أبواب السبعين حسن البرزة مطمئن من المتصوفة على طريقة سيدى على البيومى رضى الله عنه ، يحسن القراءة والكتابة بعض الشيء واسمه السيد محمد عبد الله من كفر النخلة على مقربة من بنها وكان له ولد من مأمورى السودان اسمه اليوزباشى عبد الغنى أفندى السيد .

رحبنا بالرجل وتوسمت من رزائنه وثقته بنفسه وقلة دعواه أننا على وشك شهود حادث جديد ، ومن ثم انتقلنا إلى صالة فسيحة فى الدار أحكم غلق أبوابها ونوافذها وجيء بالنار فألقى البخور فيها ثم أمر بإخراجها وأطفئ النور وتلا الدعوة مرتين وهى تقع فى حوالى الأربعة أسطر وكنا ساعتئذ نجلس صفوفاً فى جوانب القاعة فى هيئة مستطيل وجلس الشيخ يس أفندى حلمى وعن جانبه كاتب السطور وأحد العلماء لنقف على الحقيقة ولم نلبث أن وقعت بالمكان رجة عظيمة ودوى وكنت أجلس القرفصاء فأحسست برجل خفيفة تدوس رجلى بدون أن تحدث بها أما وامتدت يد فمست رأسى وألقيت إلى تحية مسموعة بصوت رقيق وقال صاحب التحية : ياسى رمزى قلت نعم قال الجواب الذى تريد إرساله إلى خالك لا يليق بك فالرجل صاحب فضل عليك وإياك ونكران الجميل ، دهشت من هذه المفاجأة جد الدهشة

فقد كان بيني وبين خالي المرحوم الأستاذ إسماعيل عاصم بك الحامى ملاحاة وخطر لى أن أكتب إليه فى ذلك اليوم خطابا شديد اللهجة وهذا تفسير الواقعة . وألقى هذا الطيف الجسم بعد الصلوات على الرسول الكريم ثم أنشد :

يا رجال الله صبراً إن تواتت الكروب
كلما يشتد كرب تنجلي عنكم ذنوب
إن فى القرآن آية هى طب للقلوب
إن بعد العسر يسراً قال علام الغيوب

ونطق رجال بالضمة وصوابها الفتح فقلت فى نفسى إنه أخطأ وعند هذا الخاطر قال يا فلان قلت نعم ، قال إنها ليست لغتنا فلا تعترض إن قلتها بالضم أو الفتح فردت بهذه المفاجأة عجباً ، وهاج جمهور وماج خارج باب الدار وأحدثوا ضجيجاً مزعجاً يريدون الدخول ففتح الباب وصرخ بهم فأجفلوا ، ثم عاد فأغلق الباب ومددت يدى فأمسكت فى الظلام بيد الشيخ المحضر والطيف فى وسط الغرفة فهتف بى لماذا يا فلان أمسكت بيد الشيخ سيد؟ ألا تؤمن بوجود الجن؟ قلت بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال المحضر قل له « معلش » فأغضبته هذه المقاطعة وقال لماذا تقاطعنى يا شيخ سيد؟ ألم أحذرك هذا ، فأراد أن يترضاه ولكنه دنا منه وضربه بسوط حتى ألهمه ، وصرخ الرجل فتشفت عنده فكف الأذى وقال يخاطبنى : ليس من الأدب فى شىء يا فلان أن أخاطبك أنا وهو يقاطعنى ، تعال أنت قلت أجا دورى فضحك وقال معاذ الله ، ونهضت فإذا بى ألس هيكلانحيلاً رخص الأطراف يعلوكفيه شعر وله الحية ، ويلبس جبة من الصوف ورأحتة ذكية ، وأنفاسه عاطرة فضمنى إلى صدره وألقى فى أذنى بعض الكلمات المباركة ونفخ فى فمى ، وأقول صريحاً إننى وجدت من ذلك بركة كثيرة وعدت إلى موضعى موقناً من صحة الجلسة ، وفى صباح اليوم التالى كشف الشيخ المحضر عن ظهره فوجدت آثار الضرب بادية زرقاء كما يحدث للمجلود وقال إنه ذاق مثل هذه العلة مراراً .

وفى جلسة أخرى سأل بعض الحاضرين هذا الطيف أن يدعوا بعض الإخوان من الجن

لحضور المجلس فجاء أربعة وطافوا يصافحون الحاضرين خلف بعضهم ، وكانت أجسامهم
 ليينة الأطراف وأصواتهم واضحة وإن كانت خافتة . ومما أذكره أنني دعوت مرة العالم
 الكبير الشيخ إبراهيم زغو غفر الله له لحضور إحدى الجلسات وشهود هذه الظاهرة العلمية
 فحضر ولما أقبل الطيف ألقى عليه التحية وكان الشيخ إبراهيم يقيم في بلدته شنتنا الحجر ونحن
 في بركة السبع وقال له الطيف على مسمع من الحاضرين : يا شيخ إبراهيم هل من أدب
 العلماء إذا هموا بالذهاب لزيارة أحد أن يقولوا : إننا ذاهبون للتفرج عليه ؟ قال كلا ، قال
 كيف أبحت لنفسك إذا عند ما سألك أنجالك وأنت قادم إلينا أن تقول إنني ذاهب لأتفرج
 على الجنى الذى يحضر الليلة فى دار رمزى فاعتذر العالم ، وكان للحادث أثر فى نفسه ؛ ومن
 شاهد هذه الواقعة صاحب أجزخانة أولاد عنان والأستاذ محمد عبد العزيز الصدر وقد حضر
 فى منزله والمقاول السيد محمد مسعود بمنشية الصدر وغيرهم كثيرون . وأذكر أننى حضرت
 مجالس الرجل حوالى الثلاثين مرة ، ورأيت فيها العجب من هذا الجنى الذى كان يسمى
 عبد اللطيف وكان رقيق الصوت إذا تحدث ويناقد فى أدب وحياء من الله ويبحث على
 الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونبأنا مرة أنه يدخل الخلوة كالإنسان ثلاثة أشهر فلا يحضر
 المجالس ، وقد استدرجته يوما إلى الحديث عن الثورة العراقية وطريقة دخول الإنجليز مصر
 فكان صفحة مدهشة من التاريخ السرى للاحتلال ، وكنت أناقشه فيقول : ماراء كمن سمع ،
 وقد حدثنا مرة بأجلّة الشيوخ الذين حضر عليهم العلم بالأزهر الشريف وغيرهم فى عصور
 سابقة قبل عصر الأسرة المالكة .

ومات الشيخ سيد أبو عبد الله بعد الثورة الأخيرة ودفن فى بلدته كفر النخلة وخسر
 العلم الروحانى بموته خسارة لاتعوض ، واجتمعت بعده بكثيرون من أدعياء الاتصال
 فما وجدت منهم غير الدعاوى العريضة للاحتيال والتكلم من البطن أو استعمال الأبواق
 للتغير بالبسطاء .

أبو الوفا محمود رمزى عظيم

وفي صور هذه الجلسات التي وصفها الأستاذ الفاضل محمود رمزي نظم في كيفية اجتماع الإنس بالجن مشابهة كبيرة لتلك الجلسات التي قام بها المسترج آرثر فندلاي ، وذكرها في كتابه [على حافة العالم الأثيري] الذي ترجمه الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير ، وسنعود إليها في باب تحضير الأرواح ، ولكن الذي أستطيع أن أؤكد أنه هذه الاجتماعات لا يقوم بها الصادقون من المتصوفة أهل الشريعة والحقيقة ، لأنه يدخل فيها تلبس الشيطان ولا يرضاها صالح الجن ولا صالح الإنس ، ولأنها مما يدخل في باب الاستماع والاستلاذة المنهى عنها شرعا ، ولا فائدة لهم من الإخبار بالمغيبات وعمل الخوارق لأنهم يعبدون الله وحده ويخضعون لسننه ويخافون الشبه والتلبس والمقت والفتنة ولا يعملون ما لم يكلفهم الله به ، وقد اتبعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَ الرَّءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَغْنِيهِ» ويعبدون الله طلبا لرضاه ولا يشترتون بعبادتهم ثمنا قليلا من اعتقادات الناس ، ويعلمون أن مصير هؤلاء الفضيحة وانكشاف أمرهم وقد باءوا بغضب الله عليهم ، وأما إذا عرض لهم شيء من ذلك بالرغم منهم فإنهم يخافون الله ويطلبون صرفه عنهم .

ومما يروى عن سيدى عبد القادر الجيلاني أنه كان مختليا مرة يعبد الله بصدق وإخلاص فقرأى له في الخلوة نور من الأنوار المُرِيَّة فانتظر حتى نُودِيَ من وراء هذا النور: أنا ربك يا عبد القادر ولا إخلاصك رضى عنك ، ولأنك قطعت أحوال الطريق والتعبد وأنا الذى أحل الحلال وأحرم الحرام فقد أبحت لك الحرمات ، ففهم في الحال أن هذا النور من تلبس الشيطان وفتنته وقال اخسأ عني يا لعين نخس بعيدا ولم تجز حيلته . كما أن أقوياء الأولياء الذين أعطاهم الله قوة الاضطلاع بالشهود في العالمين لتعليم الجن لم يفتنوا بهم وخافوا من الله أن يستعينوا بهم لأنها أمانة وجاهدوا أنفسهم حتى لا يكون ذلك استدراجا وفتنة ولم يبيحوا بأسرارهم وقد كلفوا كتمانها ، كيف وهم على أبواب الحقيقة في ذل شديد وانكسار قلب رهبة في قربهم من رب العالمين ، وأهل هذا المقام ينسون في حلاوة شهودهم وفي صدق طلبهم لله كل من في العالمين حتى أنفسهم وأهلبيهم ، وإلا لو أنهم شيء آخر لطردها .

وقل لى بربك يا أستاذ ما هى فائدة هذا الاجتماع ؟ وما الذى عاد على الشيخ سيد من ضربه بالسياط وتحقيره ؟ أأمثل هذا يعمل الصالحون ؟ إن الشريعة الغراء تبرأ من هذه الاجتماعات ولا ترضى بهذا التمتع فلكل عالم تكليفه وسنته ولا يرضى ولن يرضى الله بهذا الخلط الذى تصاب العقول والنفوس منه بالخليل ، وكفى من الخالطة أن تتأثر الأرواح بهمسات الصدور من الوسوس مع اختباء هذا العالم عن أعيننا رحمة بنا ؟ .

ويكفى ما قدمناه لبيان مقدار ما تتأثر به الأرواح من العوالم غير المنظورة ، وبيان سلوك طريق الصواب والاستقامة فى سيرنا ورواحنا وغدونا ويقظتنا ومنامنا ، هادانا الله إلى سواء السبيل وحفظنا من شرور الجن والإنس وهزات الشياطين وأن يحضرون .

تحضير الأرواح

منذ بضع سنين أهدى إلى صديق العزيز الدكتور محمد بك عبد الحى كتابا [على حافة العالم الأثيرى] وطلب إلى أن أبدى رأى فيما يسمونه تحضير أرواح من ماتوا من بنى الإنسان ؛ ومع احتراعى لطلبه لم يكن لدى من الوقت ما يسمح لى بالكتابة فى هذا الموضوع ، وكنت أحسب أن شأن هؤلاء المحضرين لا يبلغ ما بلغه اليوم من الاهتمام ، ولكن أخبرنى كثير من أصدقائى وإخوانى أن هذا الباب فتح على مصراعيه وأصبح فتنه للناس ، وأصاب الاجتماع منه مرض وخيم ، واشتغل كثير من الناس بهذا الشأن حتى فسدت أحوالهم بما يفاض عليهم من التدليس والتغريير والتليس ، وصارت مجامع تحضير الأرواح مباءات فساد يجتمع فيها الرجال بالنساء ، يتعارفون فيها ، ويأتون من الآثام ما تقشعر منه النفوس الأبية الكريمة ، ويهدمون به صرح الأخلاق ؛ فالبنت تذهب لتحضير أخاها المتوفى أو لتطمئن على أمها وبعضهن يدعين أنهن أمرن من أرواح الأقارب بأفعال لا يرضاها الشرع ولا تقبلها الفضيلة ؛ واتخذ كثير من الناس هذه الأحمولة لاصطياد الناس والتغريير بهم - وطلبوا منى أن أبدى رأى فى هذا الموضوع بصراحة ومدى انطباقه

على عقيدة الإسلام ، وهل يصح تحضير الأرواح ؟ وهل حقيقة تحضر أرواح الموتى من
الآدميين هذه المجالس ؟ وأذكر على سبيل المثال خطابا جاءنى من صديق الأستاذ حسين خالد
حمدي بكالوريوس تجارة ووكيل إدارة الفحص بمراقبة الاستيراد بوزارة المالية ، وهذا نصه :

سيدى الأستاذ السيد أحمد عبد المنعم الحلوانى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : أما بعد فلقد جرى بينى وبينكم حديث بشأن الروح
واستحضارها ، وذلك لمناسبة شروعكم فى طبع مؤلفكم « الإيمان والروح » أود لهذه المناسبة
أن أخبركم أننى كنت من المهتمين بدراسة هذا الموضوع منذ عدة سنوات ، قرأت فى خلالها
بضع مؤلفات عن الروح ، كما حرصت على حضور عدة جلسات لبعض المهتمين بهذا النوع
من الدراسة ، والذى أستطيع أن أوكد أنه أن الإثبات المادى لوجود روح فلان بالذات هو
ذلك الشيء الموجود بالجلسة ضرب من الحال ، لأن التأكد اليقيني فى مثل هذه الحالة
لا يكون إلا بالمشاهدة الحسية ، إلى ذلك أن الأمور التى تعالجها هذه الموجودات التى
تستحضر يشوبها بعض الهنات ، ومن مثل ذلك أن الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير كان
يستحضر روحا لمن يدعى « توماهوك » وهو من أطباء الهندود الحمر ، وكان يعالج بوساطته
المرضى الذين يترددون عليه طلبا للشفاء ، ولقد استبدت العلة بأحدهم مرة فلبجأ إلى معهد
الأبحاث الطبية ، (بغير علم الأستاذ) فلم ينفع فيه علاج فمات ، غير أن بعض حاضرى
جلسات التحضير عند الأستاذ أبى الخير سألوا (الروح) عن حال الرجل المتوفى ، فأجابت
الروح أنه آخذ فى التحسن وأنه بسبيل الشفاء .

ولقد أثار الأمر ضجة فى حينها — عام ١٩٣٧ على ما أذكر — واشتد الجدل على
صفحات المقطم الأغر ، ولعل بعض أصحابه كانوا من شهود الحال ، ولقد علل الأستاذ أبو الخير
ذلك الخلط بأن من الأرواح من هو كاذب ، ومنها ما هو صادق ، ولقد حرصت على حضور
إحدى جلسات الأستاذ أبى الخير من باب الاستزادة فى العلم وطلبا لشفاء أذى من باب
الاحتياط ، ولقد راعنى حقا بعد إظلام الغرفة وانطلاق صوت الحاكى بالموسيقى الخفيفة
أن بدت حركات التشنج العصبى على أربعة من الوسطاء وكان أحدهم من ضباط الجيش ،

وراح الكل ينفخون الهواء من أفواههم بقوة على مريض قد توسط الغرفة تحت النور الأحمر وكان الوسيط الأول هو الذى يدمدم بصوت منكر تشوبه لكنة أعجمية ، ولما طلب هذا الوسيط إطفاء الذبالة الحمراء ، راعنا بالأكثر أن رأينا فى سماء الغرفة ضوءاً أزرق لطيفاً ينبعث ليختفى لينبعث من جديد بشكل خلاب ، ولقد عرضت ما أصاب أذنى من تلف فأمرت أن أزم دارى فى يوم معين من أيام الأسبوع معتكفاً فى حجرى الخاصة حيث ستعالجنى الروح ، ولقد مضت السنون فما ازدادت أذنى إلا سوءاً ، ذلك إلى أننى قد مارست الاستحضار شخصياً على يد بعض زملاء وهم جميعاً من أهل العلم وإنما كنت أعتمد على الآيات القرآنية ، ولقد مرت بى أطوار كثيرة ما أرى الجلال يتسع لسردها ، أجمالها فى أن ممن استحضرتهم من كان عابثاً ساخراً ، ومنهم وهو من أستحضره حالياً من كان صالحاً ديناً مهذباً لا يتكلم إلا فيما يعلم ، ذلك إلى أنه يشير دائماً بآراءه فى السداد وبعد النظر ، ولكنه يصير على أن أستحضره دائماً فى منزلى دون أى مكان آخر لأسباب سردها لى ، وكان بودى كثيراً أن تتفضل بحضور إحدى هذه الجلسات لعلك تنير لنا الطريق فى هذا الموضوع بوصفك المرشد الروحى لنا ، ولقد استحضرت الروح التى تصادفنى عقب حديثى مع حضرتكم ، وبعد تبادل عدة مسائل بيننا - لم يدر فيها ذكر هذا الموضوع - أن فاجأنى بقوله (أحب أن أنبهك إلى ضرورة الإيمان بوجود الروح يا حسين فقلت إن كنت تقصد بذلك التعليق على حديثى مع السيد عبد المنعم الحلوانى فاعلم أننى أؤمن حقاً وديننا بوجود الروح ، على أن ذلك لا يمنع من اعتقادى بوجود شياطين الجن ممن يموهون على الناس ، فقال : هذا حسن) .

وتفضل يا سيدى بقبول اسمى عبارات تقديرى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مسيح خالد صحرى

وكيل إدارة الفحص بمراقبة الاستيراد بوزارة المالية
٧ شارع الملك عبد العزيز آل سعود - الروضة القاهرة

وقبل أن نتكلم في موضوع تحضير الأرواح سنناقش الكتب التي ترجمها إلى العربية الأستاذ « أحمد فهمى أبو الخير » وأهمها كتاب [على حافة العالم الأثيرى] تأليف مستر « ج . آرثر فاندلاى » .

يقولون إن تحضير الأرواح يفسر الآن تفسيراً علمياً وقد خضع لقانون العلم الطبيعى ، وأن عالمنا هذا هو عالم الفيزيائية ، وهو أثقل من العالم الأثيرى ، وعالم الأثيرى عالم مادى ، وإن تكن مادته من الرقة واللف حيث لا تستطيع حواسنا إدراكها ، إلا أنهم يوجبون علينا أن عالم الروح جزء من هذا العالم ، ولا ندرى كيف يوجبون علينا هذا ؟ ثم يقولون إن الروح جسم من أجسام العالم الأثيرى ؛ وقد قال فريق من العلماء إنها صورة كصورة الجسد ، ولكن من المتفق عليه عند علماء الشريعة الإسلامية أنه لا يمكن معرفة حقيقتها مطلقاً ، ولا علم شئ من تراكيبيها ، فهل أمكن ضبط جسم من أجسام الأرواح وتحليله حتى يقع تحت طائلة ميزان العلم الطبيعى ؟ اللهم لا ، وجل اعتمادهم فى المعلومات التى قدموها لنا عن تفسير تحضير الأرواح تفسيراً علمياً وأنها تحت اختبار العلم الطبيعى لا تستند إلى أساس تجريبي ، بل تستند إلى أقوال المتكلمين فى جلسات التحضير على لسان الوسطاء وسنتكلم فيما بعد عن هؤلاء الوسطاء .

ومن الأسف أن يموه على الناس فى هذا الكتاب بذكر بعض أقوال علماء الطبيعة للتضليل بها على القراء من كثرة ما يكتبون ، حتى ليظن القارئ بعد قراءته النظريات الطبيعية الحقيقية أن لهذا الذى يقولونه صلة بالعلم ، دون أن يفكر فى ربط العلم بموضوعهم ربطاً حقيقياً ، وقليل من الناس الذى يفطن إلى أنهم بعيدون كل البعد عن ربط موضوعهم بموضوع العلم الطبيعى ، وقد لا يفطن إلى نقطة الانفصال بين الكلام فى الطبيعة وسقم دليل اتصال الموضوع بالعلم ، فمثلاً يتكلمون عن الشحنة الكهربائية وهما السالب والموجب والإلكترون والبروتون وتقدير حجم كل منهما وأنه أصغر بكثير من الذرات التى تتألف منها الإلكترونات^(١) هذا موضوع من موضوع العلم الطبيعى ، ثم يتكلمون على

(١) نستطيع الآن أن نلخص باختصار ما انتهينا إليه ، فالجسمان المختلفان فى الشحنة الكهربائية وهما السالب والموجب يسميان على الترتيب الإلكترون والبروتون وكلاهما متناه

أن المسافة بين الالكترونات والبروتونات في داخل الذرة الواحدة شاسعة جدا بالنسبة لحجمها وأن الالكترونات والبروتونات متباعدة جدا داخل الذرة ، وأنها إذ تتحرك بسرعة هائلة يصلها بعضها ببعض ذلك الأثير غير المنظور ، وأن المادة متألفة من شحنات كهربائية صغيرة سالبة وموجبة ، وأنها تتحرك بحركة منظمة ، ويصلها بعضها ببعض الأثير الغير منظور الذى أصبح اليوم يعتقد أنه مادة الكون الأساسية^(١) وهذا من موضوع علم الطبيعة والكيمياء ، إلا قولهم إنه مادة الكون الأساسية فلن يستطيع أحد أن يقرر ذلك إلا أن يكون خالق الكون ، ولا زال العلم يكشف عن عجز العقول ، وأن نظريات اليوم تقضى على النظريات التى كانت سائدة فى الأزمان الغابرة ، وكانوا يعتقدون ثباتها بصورة لا تقبل الشك .

فى الضالة ، ومع ذلك فقد أمكن تقدير حجم كل منهما ، فهما أصغر بكثير من الذرات التى هى أصغر الأشياء المعروفة ، بل هما أصغر منها بما لا يقاس ، وحتى إذا وجد منها فى الذرة مائة أو ألف ، فهذه المائة أو الألف لا تكون متكدسة ألبتة فى داخل الذرة بل يوجد عداها فضاء خلاء كبير ، والمعروف الآن أن الذرات المختلفة تتألف من الالكترونات مختلفة العدد ، وعلى اختلاف العدد ونوع التجمع تتوقف العناصر الكيماوية المختلفة ، إن ذرات العناصر الكيماوية جميعها مكونة من الالكترونات والبروتونات ولا شئ سواها ص - ٣٩ .

(١) والواقع أن المادة الفيزيائية شبكة مفتوحة من الالكترونات والبروتونات ، وأن المسافة بين الالكترونات والبروتونات فى داخل الذرة الواحدة شاسعة جدا بالنسبة لحجمها . وإذا نحن اعتبرنا للنواة فى الذرة عين المركز المسيطر الذى للشمس فى المجموعة الشمسية ، فإن المسافات النسبية التى تفصل ما بين الالكترونات بعضها عن بعض والى تفصل ما بينها وبين البروتونات ، لابد أن تكون معادلة للمسافات النسبية بين السيارات بعضها عن بعض ، وبين السيارات والشمس ، وإذا اعتبرنا الذرة فى حجم كنيسة القرية فإن رأس الدبوس قد يمثل الحجم النسبى لأحد الالكترونات الداخلة فى تركيبها ، وعلى هذا تكون البروتونات والالكترونات متباعدة جدا داخل الذرة ، وهى إذ تتحرك بسرعة هائلة يصلها بعضها ببعض ذلك الأثير غير المنظور الذى يشغل الجزء الأكبر داخل الذرة ، فالمادة متألفة إذن من شحنات كهربائية صغيرة موجبة وسالبة تتحرك ، لا حركة عارضة بل حركة حرة منظمة ويصلها بعضها ببعض ذلك الأثير غير المنظور الذى أصبح اليوم يعتقد أنه مادة الكون الأساسية ص - ٤٠ .

وينتقلون بنا من النظريات الطبيعية والكيميائية فجأة إلى أن الروح جسم أثيرى كما يتوهمون بلا دليل يدخل تحت دائرة العلم الطبيعي ، فإنهم لم يقبضوا على روح من الأرواح ثم يضعونها تحت البحث والتحليل ، ويزنوها بميزان الذرة والالكترون أو ما هو أدق من ذلك ، فإن وصلوا إلى ذلك سلمنا ، ومن العجب أنهم ينتقلون بنا إلى هذا الاعتقاد الغريب من حيث لا نشعر ، ليوهموا القراء أن المسألة مسألة علمية ، فيقولون إن الذى نفقده عند الموت الجسم الفيزيقي ، ويحل محله جسمنا الأثيرى وبدلا من العيون الفيزيكية تكون لنا عيون أثيرية تؤدي وظيفة العيون الفيزيكية ، وأما العقل فيحل في المخ الأثيرى وأنهم أنبئوا أن العالم الأثيرى يتألف من مادة لطيفة^(١) ومن الغريب أنهم يعترفون أن الأثير لم يرقط^(٢) كما ترى المادة الحقيقية ولم يوزن كما توزن فن أين جاءهم هذا العلم ؟ وما ربط

(١) والآن ما الذى نفقده عند الموت ؟ والجواب هو أننا نفقد الجسم الفيزيقي فقط ، ويحل محله جسمنا الأثيرى ، وبدلا من العيون الفيزيكية تكون لنا عيون أثيرية يستخدمها في تأدية نفس الوظائف التي تؤديها عيوننا الفيزيكية ، أما عقلنا فيستمر يؤدي عمله خلال المخ الأثيرى ، ولقد أثبت أن العالم الأثيرى يتألف من مادة لطيفة جدا ، لا نستطيع ونحن في جسمونا الفيزيكية أن نحس به ، وأثبت أيضا أن له ضوءا ، ويختلف كل من المادة والضوء عن مادتنا وضوئنا الفيزيقيين في الدرجة فقط ، ولكن أهم ما يمتاز به المادة الأثيرية أنها أسهل تشكيلا بالفكر ، وفي الإمكان أن تتشكل هذه المادة بالفكر المركز دون حاجة إلى لمسها وذلك عند ما يكون العقل قد ارتقى الارتقاء الكافي للتأثير فيها ويحدث الضوء هناك كما يحدث هنا ضوؤنا ويؤثر في العيون الأثيرية بنفس العملية التي يؤثر بها ضوؤنا في عيوننا ص - ١٧٣ .

(٢) قلنا إن الأثير لم يرقط كما ترى المادة الحقيقية ولم يوزن كما توزن ومع ذلك فقد أمكن استخلاص بعض الآراء بخصوص هويته وخواصه ، أنه يملأ الفضاء كله وهو أبرد من الأرض بخمسة أضعاف درجة ، وله قصور ذاتي وكمية تحرك ، وله ضغط هائل قد يبلغ ملايين الأطنان لكل قدم مربعة ، وهو أكتف من الماء ملايين المرات ، ولكنه مع ذلك أكثر منه مرونة ، وله حركة دورية مستمرة ، هذه المادة الغريبة التي لا يمكن أن نراها أو نسمعها أو نشمها أو نلمسها إذا أثرت حركتها أمكنها أن تحمل عبر الفضاء الطاقة التي في مكنتها أن تؤثر في حواسنا كالضوء والحرارة والكهربائية ، ولقد استكشفوا منذ عهد قريب كيف تتحول هذه الموجات إلى كلام وموسيقى ، وهذه المادة المتموجة لن تسكن أبدا بل هي دائبة الحركة ،

موضوع الأرواح بالمادة ، وما هذا الانتقال الغريب من الكلام على المادة إلى الكلام عن الأثير إلى الكلام عن الأرواح .

وينقل بنا الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير إلى سطوح هذه العوالم الأثيرية وأن فيها أرضا وماء وشجرا ودورا وحقولا وطرقا ومزروعات وأنهارا وجبالا ووديانا إلى غير ذلك من نبات خياله السابح ، ويقول: إن كل سطح يتألف من مادة أو اهتزازات ألطف ثم ألطف ، ثم إن أهل هذه السطوح يعيشون كما نعيش نحن على الأرض ، وأنهم يطعمون بالتغذية ولكنهم أيسر منالاً لرزقهم منا ، وأنهم أسرع حصولاً على الملابس التى يلبسونها بتأثير الفكر فى المادة الأثيرية ، وأن الأثيريين يشبعون رغباتهم بطريقة غير معروفة على الأرض^(١)

ومع أننا لا نراها ولا نلمسها فإنها إذا لم تكن موجودة تعمى أبصارنا ونحس بالبرد الشديد القارس لأنه لا يكون لدينا عندئذ وسط ينقل لنا الموجات التى تحدث الاهتزازات المؤثرة فى عيوننا وفى جلودنا ص - ٤١ .

(١) سنتناول بالبحث أولاً سطوح هذه العوالم الأثيرية المختلفة . فى هذه السطوح أرض وماء وشجر ودور وحقول وطرق ومزروعات من جميع الأنواع وأنهار وجبال ووديان ولكل ما نشاهد على سطحنا يوجد مثيل على السطوح الأخرى ، وإنما كلما ارتفعنا أو بعدنا عن سطح الأرض زاد الجمال وبهاء المنظر ، لأن كل سطح يتألف من مادة أو من اهتزازات ألطف ثم ألطف ، والظاهر أنه كلما كانت الاهتزازات ألطف وأسرع كانت الألوان أزهى وأجمل ، وطلب إلى الذين حدثوني عن العالم الأثيرى ألا أذكر كلمة جميل بل أستبدل بها كلمة زاهى لأنها أكثر انطباقاً على الوصف ، وهذا الزهاء يزيد كلما ارتقت عقولنا ، وكما أن الورد تتفتح تويجاته للضوء كذلك يتمدد العقل فى تكشفه وارتقائه ، وعلى هذه السطوح يوجد رجال ونساء وحيوانات تعيش كما نعيش نحن على الأرض ، ولما كان الطعام اللازم للتغذية أيسر منالاً ، وكان الجوهر هو الذى يستهلك بدل اللحم والخضر اللذين نستهلكهما نحن ، فإن الحياة تكون يسرة هناك ، بل إنها تكون أيسر منها على الأرض . أما العواطف التى تجيش بها الصدور فوق الأرض ، والتى يثيرها فى الصدور الكفاح فى سبيل الوجود والخوف من الخطر فعدومة فى أثيرنا ، ولا يلحق الجسم الأثيرى ضرر أو إيذاء ، والموت المفاجئ الشديد غير معروف ، ولما كان الجسم الأثيرى يختلف عن الفيزيقي فى التغذية ، وكانت هذه التغذية أسهل من تغذية الجسم الفيزيقي ، وكانت الملابس أيسر منالاً بتأثير الفكر فى المادة الأثيرية فلا تسود هناك قوانين

فهذه التخيلات يمكن لعقل أن يعتقد أنها تتأتى من طريق علمي ؟ اللهم لا ، فلا سند لها من العلم الطبيعي ، ولا سند لها من العقل ، ولا سند لها من النقل عن رسول كريم ، فمن أين وصلت إلى المستر « ج . إرثر فاندلاي » وإلى تلميذه الروحي الأستاذ « أحمد فهمي أبي الخير » لنرى مدى انطباقها على الحقيقة ؟ لم تصله من تجربة علمية ، ولم تصله من طريق عقلي ، ولم تصلهم من بلاغ رسول كريم أوحى إليه أن يبلغ الناس مالا يمكنهم الوصول إليه عن طريق الحس ، فمن أين وصلته ؟ لقد وصلته من هذه الأرواح التي حضروها في جلساتهم^(١) فإذا كانت هذه الأرواح لا يتطرق إليها الظن فرضا فإنه لا يلزمنا الاعتقاد بما تقول ، لأننا لم نكشف عالمهم كشفا حقيقيا لا يقبل الريبة والشك ، أما وهذه الأرواح كما يعترفون بعضها كاذب والبعض صادق وبعضها خير وبعضها شرير ، ويدخل فيها أرواح الشياطين وأرواح الجن ولا يتأكدون من ذواتها في جلسات التحضير المظلمة فكلامهم عن هذه العوالم لا يعتمد عليه مطلقا وربط الموضوع بموضوع العلم اعتمادا على تفسير هذه الأرواح هو ربط تافه لا يقبله إلا البلهاء .

وجلّ اعتماد هؤلاء المحضرين للأرواح على الوسطاء ، يقول مستر « ج . إرثر فاندلاي » ولقد انتهيت بعد تفكير وبحث قضيت فيهما سنين إلى أن أرواح الموتى تستطيع أن تظهر ثانية في عالمنا المادي هذا ، وذلك بعد أن تستعير من الوسيط إفرازا خاصا ينبثق من جسمه فتستطيع به أن تخلق مؤقتا لنفسها أعضاء صوتية تهز جونا ، إلى أن قال : ولابد من شروط

الغابة التي كثيرا ما تظهر حتى بين المتدينين فوق الأرض وعلى الأخص زمن الحرب ، والتي تظهر بدرجة أقل في التجارة ، إن قوة الفكر تجعل من السهل على الأثريين أن يسكنوا أنفسهم ويكسوها وأن يشبعوا رغباتهم بطريقة غير معروفة على الأرض ص - ٧٥ .

(١) ويؤكد هؤلاء الأثريون دائما أن جوهم أكثر ضياء من جونا ، وأنه يمتد في الفضاء إلى ارتفاع أكبر ، ولهذا لم يتعذر علينا أن نتصور أثيريا وفيها ضوء وشفق بدلا من ضوء وظلام كما هو الحال على الأرض ، وتشبه أثيرية هذه الأرض كل الشبه إلا في أنها أكثر منها زهاء ، ولطالما جهد الأثريون في تأكيد ذلك ، وإخال أن على الأشياء هناك ضوءا قزجيا لا يوجد عندنا وهذا الضوء ينشأ بسبب استضاءة جوهم ص - ١٨١ .

خاصة لكي يتمكن هؤلاء الذين كانوا يوما ما في عالمنا الفيزيقي هذا ، من أن تتجسد من جديد جسومهم المكونة من تلك المادة الأكثر رقة ولطفا . وأول هذه الشروط وجود شخص يحمل في جسمه قدرا وفيرا من تلك المادة التي اصطلح على تسميتها في السنين الأخيرة بالاكثوبلازم ، ويقول عن الوسيط : إنه يختلف عناقط في كونه يحمل في جسمه من هذه المادة قدرا يزيد على القدر الموجود في الشخص العادي ، ومن ثم يكون أسهل على الأرواح استعارتها مؤقتا من الوسيط أو الوسيطة ، وفي حالة الصوت المباشر الذي أشرت إليه يمكن الحصول على أحسن النتائج في الظلام لأن اهتزازات الضوء تعوق هذا الاكثوبلازم عن أن يكون بناؤه من الصلابة بحيث يحدث اهتزازا في جونا ، ووجود وسيط هذا كلام مفهوم ، وأما تعليل أن هذا الوسيط أصلح من هذا بأنه يحمل كمية أكبر من الاكثوبلازم فهذا كلام للاحقيقة له من الصحة ، لأنه للجن وسطاء من قديم الزمن ، ولم يكن الاكثوبلازم لازما لهذه الوساطة ، إنما الذي نؤكد كده للمستمر فاندلاي أن الوسيط « رجلا أو امرأة » هو الرجل الذي لا إرادة له ، والمرأة التي لا إرادة لها ، فيستطيع الجن غشيان جسده وتعطيل إرادته وروحه لفقدان الإرادة وخور العزيمة والاستكانة الكلية لأعمال المحضر والمستحضر كما هو واقع تماما أيضا في التنويم المغناطيسي ، ويقررون أن أحسن الوسطاء النساء ، ذلك لأن الجن يستمتع بالمرأة أكثر من الرجل ، ولأنها أضعف إرادة من الرجل ، ويقولون : إن الوسيط يقع تحت سيطرة الروح المهيمن بعد أن يكون الوسيط في حالة سلبية ، وفي غيبوبة تغادر فيها روحه جسمه مؤقتا لتتكلم الروح باستعارة لسانه وحلقه ، ولا يكون في هذا الوقت الوسيط واعيا ولا عقله موجودا^(١) . ذلك لأن

(١) إذا ما وقع الوسيط تحت سيطرة الروح المهيمن ، ورجبنا الكلام باستخدام أعضائه الصوتية ، فإننا نجعل الوسيط في حالة سلبية ، وهذه الحالة هي التي تعتره حينما تغشاها الغيبوبة ، فروحه تغادر جسمه مؤقتا وتقف في خارجه ، وعندئذ نستطيع أن نستخدم حنجرتة وحباله الصوتية ولسانه وعضلات حلقه ، ونحن لا ندخل في جوفه بل نقف وراءه ، وفي مكنتنا أن نوجد أنفسنا في حالة انسجام أو ترنيم أو توليف مع الوسيط بحيث إذا تحركت أعضاؤنا الصوتية تحركت كذلك أعضاؤه ، وتوجد رابطة اتصال أو أثرية ولكم أن تسموها كما تشاءون ،

الوسيط لا يكون إلا ضعيف الإرادة فاقد الإنسانية يرضى بالنذل والحقار ليسلم نفسه ويقبل تعطيل عقله وحسه ثم ينام لتركب جسده روح أيا كانت فما بالك لو كانت من أرواح الشر بلا فائدة تعود عليه إلا إشباع هواية آخرين من الإنس المحضرين والجن المستحضرين للاستمتاع والاستلاذة فياويل هؤلاء الوسطاء من عذاب الله فإنهم بتسليمهم أنفسهم لعصاة الجن يلوذون بهم ويستمتعون بأجسامهم وينتهكون حرمتها ويتكلمون في ستارها ويسخرون من الناس قد أفسدوا على الناس أحوالهم وعقائدهم . وأغلب الوسطاء يتعرض لمس الجن أو يقع تحت سيطرتهم التامة فتفسد طبائعهم وتنحط نفوسهم ويميلون إلى الخمول وتشحب وجوههم وقليل ما تحسن عاقبتهم عند موتهم ، فليحذر أهل الإسلام هذه الفتنة خصوصا أولئك الذين يقدمون أنفسهم قربانا لهذه التموهيات في بلاهة وسذاجة .

شروط التحضير : ويشترط هؤلاء المحضرون لنجاح الجلسات شروطا أهمها الانسجام الروحي لأن هناك أشخاصا فيهم كثافة على الأرواح وأشخاصا فيهم خفة^(١) والواقع أن

ولهذه الرابطة من التأثير على عضلات الوسيط الصوتية ما للشوكة الريانة على مشياتها المتحدة معها في الدرجة ، وعلى ذلك تعمل مجموعتنا الأعضاء الصوتية متوافقين ولا محل هنا لتأثر الوسائل بعقل الوسيط ، لأن عقله لا يدخل له ألبته هنا ، فنحن لا نستخدم عقله بل نستخدم أعضاءه الصوتية مباشرة ، وكل ما تسمعه من كلام فصدره عقل الروح المسيطر لأن عقل الوسيط ونحده قد أغلقا مؤقتا ويسيطر الروح العامل على عضلات أعضاء الوسيط الصوتية ص - ١١٤ .

(١) يقول مستر ج أرثر فاندلاى عن هؤلاء ثقال الدم (إذا غشوا حجرة التحضير فإنهم يحبطون كل محاولة يأتيها سكان هذا العالم الآخر للاتصال بهم ، ويجب ألا يظن أحد أننا أفصدهم أن الحالات تكون متشابهة تماما) ويقول : (وهناك أناس لا يحصون على نتائج قط على الرغم من عدم وقوفهم موقفا عدائيا ، وعلى حين لا يكونون قد أخطأوا قط ، كما أننا نصادف في الحياة قوما نكرهم بالفطرة ولا نعرف لذلك سببا ، وهؤلاء قد يحجبهم آخرون حبا له ما يبرره كل التبرير ، ولكنهم بالنسبة لنا يصقلوننا صقلا خاطئا ، إذا صح هذا التعبير ، بيد أننا لو قلنا إنهم يحدثون اضطرابا في اهتزازاتنا لكان تعبيرنا أصح وأسلم ، وعندئذ لن نكون متوافقين فلن نستطيع المضي معا ، ولهذا قد لا يصل بعض الناس إلى نتيجة ما لأنهم يبعثون اهتزازات تجعل من المستحيل على أولئك الذين في الجانب الآخر أن يحضروا خلالها إليهم) ويقول :

خفة الدم وثقل الدم تتبع ضعف الإرادة وحسن الاعتقاد في التموهيات ، وثقل الدم في أولئك الذين لهم إرادة قوية ، وعدم استكانة لهذه الأعمال ، فإن الشياطين وفسقة الجن لا يمكنهم التلاعب بعقولهم والتمويه عليهم .

مقدمات التحضير : ومن الغريب أن مقدمات التحضير عندهم هي مقدمات الزار ومقدمات تحضير الجن في العصور السالفة ، ولكن قد تغير الحال وأصبح تحضير إفرنجيا لجن أفرنجي بأسماء متمدينة ، فهم يبدؤون الجلسة بالموسيقى والتراويل الدينية المسيحية أو اليهودية ، ومن يعتقد أن أرواح الموتى تنزل على هذا الأساس من التراويل فهو مضلل فضلا عن أنه إذا اعتقد أن أرواح الموتى تنزل بإغرائها بتراويل دينية مخالفة لدين الإسلام فهو مشرك ، لأن الأرواح بعد انتقالها من هذا العالم تكون في قبضة الله سبحانه وتعالى ، إما في العذاب وإما في النعيم . إما مسلمة أو كافرة ، فالكافرة معذبة رأت الحقيقة ، فكيف بها تستهوى بتراويل دينية عذبت من أجلها إلا أن يكون هذا الدين الحنيف غير صحيح ، ومعتقد ذلك كافر بالإجماع ، وهم يقولون إن الذي يساعدهم على توافر الظروف لتحضير الأرواح واستجلابها وجود أشياء أهمها العزف على آلات الموسيقى وإنشاد التراويل الدينية

(وإنما الذي أقصده هو أن من تجاربنا الأرضية مع مختلف الناس يمكن أن نفهم جيدا كيف يكون بعض الناس جلساء صالحين وبعضهم غير صالحين ، فالجلساء الصالحون يعيشون اهتزازات تمكن الذين يحاولون الاتصال بهم أن يتصلوا ، أما الجلساء غير الصالحين فإنهم يعيشون اهتزازات تجعل هذا الاتصال مستحيل الحدوث ، لهذا كان من المرغوب فيه كثيرا الحصول على أناس إذا جلسوا معا بعثوا اهتزازات لا تتعارض معا) .

اهتزازات إيه يا مستر : هؤلاء ثقال الدم لأن لهم إرادة ولأن التموهيات لا تجوز عليهم فقط ، وأما خفاف الدم ضعفاء الإرادة الذين تحب أن تكون الأغلبية مثلهم إذا سلموا إرادتهم لتلك الترهات إذ تقول : (والحق أن الأغلبية لا بد أن تكون مثلى ، إذا هي استأنست مثلى بالأحاديث التي سمعتها تجرى بين الموجودين في تلك الجلسات وبين أولئك الذين في العالم الآخر) حقا إن كان هؤلاء الذين في العالم الآخر الذين يحيطون بنا من الجن الذين يحبون التموه كان كلامك حقا ، أما إذا كان مقصدك أرواح الموتى فهذا ضلال .

واختلاط الجنسين واضطراب الجلسة^(١) إلى أن يغيب الوسيط في غيبوبته فيحصل التخطاب بين الجانبين عن طريق الوسيط .

مرافقة البوق : يزعمون أن الاكتوبلازم اللازم للأرواح حتى يمكنها بواسطته التخطاب في هذا العالم ويفرضه الوسيط لغزارته في دمه الفزيقي ينتقل من الوسيط إلى بوق

(١) (١) لأن هذا يساعد على توافر الظروف عن طريق اختلاط اهتزازات الجنسين الكظة والرقية اختلاطاً ملائماً ويوضع في وسط الدائرة بوقان ، وقد مر بنا وصفهما ، ثم يتحدث المجتمعون ويحكي وطيس الحديث لأن الكلام يساعد على إيتاء الظروف ، ولابد من صلاة أولية يتبعها ترتيلة ، وقبل أن تنتهى الترتيلة الأولى يسكت الوسيط عادة وينحن رأسه بالتدرج كأنما هو ماض إلى النوم ، ثم يسك الجالس على يمين سالون يميناه والجالس على يساره يسراه ويطفأ النور ، وتتماسك كلنا بالأيدي فكأنما نحن سلسلة ، ونظل جالسين كذلك طوال الجلسة ويستمر الغناء ، فإذا ما انتهت الأنشودة الأولى أتبعناها بثانية ، وما تكاد تنتهى الأنشودة الثالثة إلا ويكون سالون قد وقع في غيبوبة عميقة ، ولا نسمع منه إلا همهمة تخرج من فمه ، ثم تتضح هذه الهمهمة بالتدرج حتى تصبح كلمات غير واضحة ولا مسموعة في مبدأ الأمر ، ولكنها تزيد وضوحاً بالتدرج وتصبح مسموعة أكثر من ذي قبل ، وإذا بالروح المتسلط واسمه هوايتفذر يعلن عن حضوره قائلاً : مساء الخير يا أصدقائي ، إن هوايتفذر يحدّثكم الآن لأن روح الوسيط قد خرجت من جسمه وأصبحت أنا المتسلط عليه ، وأنا أستمع إليكم وأستطيع أن أجعل فم الوسيط ينطق بكل ما أريد أن أقوله ، سعد مساؤكم أجمعين . وتلك هى تحيته فى العادة ، فرد عليه سلامه قائلين : « سعد مساؤك يا هويقي مظهرين سرورنا لسماعه يتحدث إلينا » ص - ٦٤ .

(ب) ولاشئ كالموسيقى يساعد على إيجاد حالات التوافق فللاهتزازات الموسيقية على الرغم من أن الهواء هو الذى يحملها وليس الأثير ، تأثير مباشر على الاهتزازات التى نطلعها فى الأثير ص - ٦٣ .

(ج) ويفضل سالون التراتيل الدينية على ما عداها من الأناشيد الموسيقية وإن يكن ذلك غير ضرورى فأى موسيقى يكون لها التأثير المرغوب ص - ٦٣ .

(د) فإذا ما اضطربت الحال وضعفت الأصوات خلال الجلسة عدنا إلى الغناء مرة أخرى فيكون له فى الجملة ذلك التأثير المرغوب ، ونعني به تحسين وسائل التخطاب بين الجانبين ص - ٦٣ .

وهذا يستعمل بدل لسان الوسيط النائم . فإذا ما سكنت الأرواح في الظلام إلى وجود الجو المناسب أمكن للأرواح أن تتكلم كلاما مباشرا^(١) ! إكتوبلازم إيه الذى يحتاج إليه المتكلم من العالم الآخر ؟ مرة يستعمله بالوسيط ومرة يستعمله بالبوق ، ومرة لا يحتاج إليه ، ومن أين جاءهم هذا العلم ؟ هذا كلام هراء معناه أنه ليست لنا عقول ، الحقيقة أنها أرواح

(١) وقد أخبرني المتحدث في إحدى المرات أن حنجرة الوسيط استعملت ، وأن الصوت حمل خلال أنبوبة روحية إلى البوق الذى كبره فأمكن سماعه ، وبعبارة أخرى أن المتكلم قد استخدم رثي الوسيط وحنجرته وفمه ليوفر على نفسه تجسيد هذه الأعضاء ، وقد زاد هذا وضوحا خلال الإجابات على الأسئلة الأخرى ، فحينما يتكلم صوت خلال البوق فلا يكون ذلك دائما بمعزل عن الوسيط ، أى أن الصوت لا يحدث دائما من شخصية مجسدة في مركز الدائرة ، وليس من الميسور دائما أن يظل هذا النمط من التواصل مستمرا طيلة الجلسة كلها ، وما يحدث هو أن الروح الراغب في الكلام يسيطر على الوسيط ويتكلم عن طريقه ، ولا يكون للروح المتكلم على الوسيط من الهيمنة ماله هو على نفسه ، فلا يتعدى الصوت الحادث أحيانا ضد الهمس ، وينتقل الصوت من فم الوسيط خلال أنبوبة إكتوبلازمية أو روحية تجسدت إلى البوق الذى يعدل الصوت بحيث يمكن سماعه ، وفي هذه الظروف يقف الروح المتكلم خلف الوسيط الذى تتعد روحه مؤقتا عن جسمه .

وقد أصر محدثي على أنه ليس ثمة ما يمكن أن تتأثر به الأحاديث عن طريق عقل الوسيط فعقله بعيد كل البعد عن الموضوع ، إنهم لا يستخدمون عقل الوسيط ، ولكنهم يستخدمون أعضاءه الصوتية مباشرة ، وتكون السيطرة كلها لعقل الروح المتحدث ، أما مخ الوسيط فيكون قد أغلق إذ ذاك مؤقتا ، ولهذا يكون الصوت الذى نسمعه أحيانا خلال البوق هو صوت الوسيط . وإن يكن لا يشبه صوته الأصلي كما يحدث دائما في الغيبوبة ، وهذا النوع من التواصل يماثل في الرتبة تفوهات الغيبوبة ، ولا يختلف عنها إلا في أن الأصوات تنتقل إلى البوق وتسمع كأنها صادرة منه لامن فم الوسيط ، وليس من الضروري أن يكون البوق قريبا من فم الوسيط لأنهم يستطيعون كما أخبروني أن ينقلوا الصوت خلال البوق إلى الدائرة مباشرة ، وعلى ذلك توجد في جلسات سلون ثلاثة أنواع للتواصل : أولاها تفوهات الغيبوبة ، وثانيها : تفوهات الغيبوبة مضافا إليها البوق . وثالثها : وهى خيرها أصوات صادرة من الأرواح الذين جسدوا أعضاءهم الصوتية ورباتهم فيتكلمون كما تتكلم نحن دون اتصال ما بالوسيط مع استثناء مادة الاكتوبلازم بالتجسد ، وهى المادة التى يستعيرونها من الوسيط والجالسين .

مكلفة من العالم غير المنظور تهزأ بعقول هؤلاء ، لأن شرار الجن والشياطين طال عليها العهد الذى كبتت فيه بعد أن ظهر نور الإسلام ، وبعد أن استنارت أورا بنور العلم والعرفان وأصبحت لا تعباً بالخرافات ولا بالسحر ، وبما أن الجن يخاطبون الإنس ويتعلمون منهم علومهم فإنهم وجدوا ألا سبيل للاستمتاع بالإنس والاستهزاء بهم وتستخيرهم إلا بهذا التمويه من طريق حالة العصر وأفكاره وعلومه . ويزعمون أن الأرواح بلغتهم فى تعليل هذا التمويه أن كيماءيا^(١) من أرواح الموتى يحضر لتجهيز الجلسة بالكيماء يات الروحية فيعمل قناعاً وأنبوبة لسير الاكتوبلازم وهذا موضوع يوجب الإغراق فى الضحك لأن القول به سفاهة . فإذا كان هذا فى مقدرة الكيماءى الروحى فما هى حاجته للبوق ؟ . يا للسخرية بالعقول ! هل أرواح الموتى طليقة إلى هذا الحد؟ وهل ترك الله سبحانه وتعالى عالم الغيب يعبت بعالم الشهادة المكلف دون قانون يفرق بين الحق والباطل ؟ وهل أرواح الموتى مشغولة بهذه

(١) إن الكيماءى الذى سبق أن أشرت إليه بعد أن يخلط المواد التى يستخلصها من الوسيط والجالسين بمواد من عنده يأخذ المخلوط الأخير ويجسده به أولاً يديه ثم يصنع لنفسه قناعاً يشبه بالتقريب الفم والحلقوم والرئين ، فإذا ماتم هذا يوضع فى مكان مناسب من الحجرة وفى الغالب يوضع فى مركز الدائرة ، فالروح الذى يريد الكلام يلبس هذا القناع البطيء الاهتزاز ويغطى به الفم والحلقوم والرئين ، فتتخذ هذه الأعضاء حالة أ كشف أو أثقل ، ولهذا يستنزم اللسان مجهوداً أكبر لكي يتحرك ، ولكن مع التمرين اليسير يصبح كل شئ ممكناً ، وعندئذ يكون الروح قد أحاط نفسه مؤقتاً بالشروط الضرورية لجعل نفسه من جديد كأنفساً من حيث القدرة على إخراج الكلام .

ويتحرك البوق بقضبان مجسدة مصنوعة من مادة هى نتيجة اتحاد المواد التى يقدمها الوسيط والجالسون والكيماءيون والروحون ، ويمكن أن تحركه أيضاً يد مجسدة ، ويوضع الفم المتجسد فى داخل الطرف الواسع للبوق ، ثم يوجه الصوت إلى الجهة التى يريد المتكلم أن يتجه بكلامه إليها دون الحاجة إلى نقله من المكان الذى تجسد الفم فيه ، ولا يمكن استخدام كلا طرفى البوق ، وهم يختارون الطرف الأنسب لقرضهم وحينئذ لا يستخدم البوق ، فمعنى ذلك أن المادة كافية وأن القوة المستجدة تكفى لتجسيد واحد أو أكثر يحدث عادة بالتقرب من الشخص الذى يريد الروح أن يخاطبه ، لهذا كنت أسمع فى مثل هذه الحالة صوتين وأحياناً ثلاثة أصوات تخاطب فى وقت واحد أناساً مختلفين .

الترهات ؟ وهل هم لم يخرجوا من حالة التكليف ؟ فلهم أعمال مكلفون بها في هذه الحياة الدنيا بعد خروجهم منها وتأثر بها في الخير والشر ؟ يا ويل أهل الأرض إذا هبطت عليهم جميع أجيال الأمم الغابرة وأبيح لهم التسلط على المادة يسخرونها لأغراضهم من جديد وزاحمونا في هذا العالم الأرضي ، كأنه لم يكف تسخير العلم في عذاب البشرية وتسلط الأمم على بعضها حتى صارت الأرض شعلة من نار وقلت فيها الهناء وودعها السلام .

وهل لمؤمن بالله ورسله وله أعين يبصر بها وآذان يسمع بها وقلب يستلهم الحق والصواب من الله الذي لا يغيب عن قلوب المتقين أن يصدق هذه الأراجيف ؟ ووالله ما يوحى بعض هؤلاء إلى هؤلاء إلا زخرف القول غرورا .

ومن عجيب أمر هذا البوق الاكتوبلازمي الذي يساعد في توصيل الاكتوبلازم أنه يترك الاكتوبلازم يتجمع في ناحية ثم يسير في الغرفة في حركة بهلوانية بصخب وجلجلة وتتكلم منه عدة أصوات ويلطم ركب الحاضرين^(١) . فلا أدري ما هذا البوق العفاريقي ؟ ولا أدري هذه الأصوات الشيطانية المتزاحمة على هذا البوق ؟ ولا أدري كيف يصل العقل الراقى إلى هذا المستوى من الفهم حتى تجوز عليه هذه التليديسات في ظلام غرفة التحضير وفي ظلام الاعتقاد الواهي .

أربع الجلسات : لقد أخبرنا مسترج آرثر فاندلاي ، أن هناك أرواحا تؤدب الجالسين وتستعمل هذا البوق في تأديبهم باللطم والتكلم في الظلام فيقولون لهذا لا تضع ساقيك متصالبتين ولا يرون خطأ أيا كان نوعه إلا نبهوا عنه^(٢) . وعلى الجملة فمنهم رؤساء

(١) سمع البوق خلال الجلسة وهو يحوب في الحجرة وتكلم منه عدة أصوات وجأة لطم البوق ركلة أخى اليمنى ثم خاطبه من أمامه مباشرة قال : أريك سوندرز ص - ٧٨ .

(٢) وهو الذي قد يؤنب واحدا منا جلوسه واضعا ساقا فوق ساق ، وهذا أول ما يلفت إليه نظر الشخص الذي يحضر الجلسة لأول مرة ، وقد يظن حديث العهد بالجلسات أننا ما دمنا جالسين في الظلام فلا يمكن أن يرانا أحد ، فيقصر في العمل بهذه النصيحة ناسيا أن الظلام ليس ظلما بالنسبة لهم ، لأنهم يروننا فيه بكل وضوح ، ويرون كل ما نعمل ، فينبهه إلى ذلك بلطمة خفيفة من البوق على الرأس طالبا إليه في أدب ألا يضع ساقيه متصالبتين وما عرفت في الواقع خطأ أهملوه .

يحضرون لحفظ نظام جلسات التحضير وإدارتها ؛ وإذا راجع القارئ جلسة تحضير الجن الذي وصفها الأستاذ محمود رمزي نظيم وأثبتناها في هذا الكتاب في باب عالم الجن لوجد تشابها تاما .

ومن الغريب أنهم يظنون أن الملق والمداهنة واللعب تجوز على أرواح الموقى فهم يسلسون قيادهم ببعض الملق ، ومن العجائب التي يحدثنا بها المسترج أرثر فندلاى أن الأرواح تتجادل في غرفة التحضير ، ويخطئ بعضهم بعضا^(١) والبعض منهم يقبل أن يسميه المستر قردا^(٢) وهكذا من هذه الترهات التي لا يتسع لها هذا الكتاب .

(١) حينما يريد روح أن يتكلم معكم يتخذ لنفسه حالات أرضية مما يحيط بكم ، ونحن دائما نعرف متى تنعقد جلساتكم ، وهنا قال : هو ايتفذر : « أنا الذى أعرف ذلك فأعلمه له هو وغيره وأنا الذى أعرف متى تنعقد الجلسة ، وأنا الذى أظن لهذه الأشياء وأكتبها ، وأنا الذى أخبر كل واحد » وبعد هذه المقاطعة استمر جلاتشر فى حديثه قائلا : « إننا نعلم دائما كما قلت متى تعقدون الجلسة وأنا المسئول عن استعمال البوق ، وقد وقفت بجوارك أنتظر أن أكلمك ، ويسرنى أن تتاح لى فرصة إخبارك ما أستطيعه » ص ١١١ .

(٢) استويننا على مقاعدنا وسلون فى مواجهتى ، ومس مار عن يمينى ومعها كراستها وقلمها وبعد مضى عشر دقائق أخذ سلون يتلوى ويتقلص ، إذ غشيته بسرعة حالة الغيبوبة ، وتكلم هوايىق الروح المعروف المتسلط عليه ، فتحدثنا معا بضع دقائق ، ثم سألتها عما إذا كانت الظروف مواتية ؟ فأجاب : « نعم إنها جد مواتية فللسيدة قدرة روحية عظيمة تساعدنا فى هذا الصدد ، وقد حضر الليلة كثيرون ، ومنهم الرجل القرد فهو موجود هنا أيضا » (يريد الروح الذى قدم نفسه إلينا بأنه الأستاذ هكسلى ، وقد أكسبته أحاديثى معه بالصوت المباشر عن التطور ، ذلك اللقب الذى أعده عليه ذلك الشخص المدهش صاحب النكات على الرغم من جهالته) ص - ١٠٦ .

ولقد تعلمنا ألا نأبه كثيرا لهذه الشخصية الجذابة ، وأن نحاول دائما أن نكون متفائلين ، فنؤكده أن الأمور لابد مستقيمة فى النهاية ، وليس لتشاؤمه فى الجملة ما يبرره ، ولكنه لا ينتفع من التجارب ، ولذا كان لابد لنا إزاءه أن نرجوه أن تكون هذه الحال مؤقتة ، وأنه حين يعود ثانية إلى مأواه عند نهاية الجلسة ستصطبغ نظرتة إلى الحياة هناك بلون أقل قتمة ، ومع هذا فإن تشاؤمه كان يسرى عنا كما يسرى عنا فى دنيانا زملاؤنا الأحياء المتشائمون الذين ينظرون إلى الأمور دائما من الناحية المظلمة القائمة ، ونحاول أن نسرى عنه وندخل السرور

الخلاصة التي استقر أنها ولا بد لكل قارئ أن يزن الأمور بميزان العقل بعد مناقشة أقوالهم وقراءة كتبهم أن يستخلصها هي ما يأتي :

١ — أن تحضيرهم لأرواح الموتى كما يزعمون لا يستند إلى أساس علمي وأنه من أخبار قوم مجاهلين من عالم لا نبصره في حالة إدراك كاف ووحي تام كما أنهم لم يثبتوا من ذوات المتكلمين إلا عن طريق سماع الأصوات وظهور الخيالات^(١).

٢ — أن الألاعيب البهلوانية التي ذكروا حدوثها في الجلسات من تحريك البوق وأنه يجوب غرفة التحضير بسرعة هنا وهناك ، وأنه يخط بطرفه رؤوس الحاضرين وأرجلهم وتتراحم عليه الأرواح فتسمع منه الأصوات المتعددة في وقت واحد في صخب وجلبة ومجادلة أرواح الموتى بعضها لبعض دلالة لا تقبل الشك ، على أن هذه الأعمال ليست من أرواح المتوفين من الإنس حتى ولا من الجن الذين انتقلوا إلى العالم الآخر إلا أن يكون العالم الآخر خرج من أمر الله سبحانه وتعالى وحصل لأهله خلل عقلي أدى إلى نزوعه ثانية ليعمل في شقاء عالمنا بصورة مضحكة مزرية .

عليه ، فنسأله عما كان من أمره منذ قابلناه آخر مرة ، فيتصل الحديث ويأخذ شكلا جديا ، مجيبا عن أسئلتنا بلغته الإنجليزية العربية ، ويستمر الحديث مدة عشر دقائق أو ربع ساعة ، نعلم خلالها من هذا الصديق المتشائم أن القوم في عالمه ماضون في إعداد وسائل التخاطب بالصوت المباشر فنتنظر النتيجة صابرين وفي العادة لا يطول بنا الانتظار ص - ٦٤ ، ٦٥ .

(١) ويستحيل في كتاب كهذا أن أصور للقارئ لهجات المتكلمين وشخصياتهم المتباينة ، ونحن نتبين هوaitفذر على الفور من صوته ومن شخصيته ومن كلامه ، وما أن نسمعه يتكلم إلا وزيد الضحك ، فهو كالضحك في ملعب ، تراه أحيانا عابسا ، وأحيانا تجده يتكلم بالحجاز والكناية ، مرعدا مبرقا أولا ، هادئا منشرحا أخيرا ، وبعض الملق يسلس قياده ويصير مرحا وبطريقته الغربية تلك يثير ضحكنا في آخر الأمر عدة دقائق وهو يهاجم الأرواح المتكلمة ويعيبها ، وقد يبدي بعض الملاحظات عن أحد الجالسين - فهو في كل ذلك شخصية مسلية مشوقة ، ولكنه مع ذلك ليس راقى التهذيب ، كذلك تسهل معرفة غيره من المتكلمين المواظبين ، فشكل منهم مميزاته وشخصيته التي لا يمكن أن يحجبها ظلام حجرة التحضير ص- ١١٩ .

٣ — يزعمون أن الاكتوبلازم من أهم المواد التي تحتاجها الأرواح للتجسد في هذا العالم والتكلم بواسطته وأنهم يستعينون بالوسيط الصالح لما فيه من غزارة هذه المادة ثم يقولون إن هذه المادة تنتقل إلى البوق ، ولكن البوق يتحرك فأين تكون هذه المادة ؟ أمى متحركة أو متحركة ؟ وهل تتسرب من البوق ؟ وكيف تتصل بالوسيط ؟ فلما عرض لأنفسهم هذا السؤال وخافوا الاعتراض قالوا إن هناك كيماءيا من العالم الآخر يحضر لتجهيز الحجرة بالكيماءيات الروحية وبواسطة أنبوبة روحية يحصل على الاكتوبلازم ويمكن المتكلمين من أرواح الموتى من التكلم إما بالبوق أو بالصوت المباشر حسب الأحوال ، أيها العالم العاقل هل يصح بهذا دليل ؟ على أن الحياة الروحية تفسر تفسيرا علميا ؟ وهل وصل إلى علمهم هذا الذى يدعونه من طريق تجريبي أو من كلام هؤلاء الأرواح ، فإن كان من طريق التجربة العلمية صدقناهم وإلا فهم إلى الشعوذة أقرب من العلم ، وأما حجتهم فى أن وزن الحاضرين ينقص بعد الجلسة مما فقد منهم من الاكتوبلازم فهى حجة واهية ، لأن مقدار النقص طفيف إذا صدقناهم وقد يكون من استنفاد الجهود أو من حضور الأرواح التى يزعمون حضورها من الشياطين فتلعب بهم عند الوزن من حيث لا يشعرون .

٤ — يزعمون أن الأرواح تنبئهم بكثير من الأخبار الصادقة ويحكون أصوات بعض أقاربهم المتوفين وهذا لا يصلح دليلا ، فإن العرافين والكهنة والسحرة ينبئون بكثير من الأخبار الصحيحة من بدء الخليقة للآن ، وقبل أن يكون تحضير الجن بصورة أفريقية ، وأيام أن كان تحضيرها بلديا كان أصحاب هذا الاحتراف ينبئون بالأخبار الغريبة من الأمكنة البعيدة ويعملون بعض الأعمال الخارقة لإيهام الناس ، وكان المندل يقوم به رجل من محضرى الجان إلا أنه أصدق وأصرح لأنه لا يدعى تحضير أرواح الموتى السابقين ، وكان يستحضر طفلا ثم يطلق البخور ويتلو العزائم حتى يحضر وليه من الجن فتستولى على الطفل حالة خاصة ثم يعطيه فنجانة قهوة ثم يقول له انظر فيها فيحصل للطفل خداع بصرى ثم تمثل له الأحوال المسئول عنها فيراها بالتخيل وينبئ فى أغلب الأوقات بما حصل .

وأما محاكاة الأصوات والصورة فللشياطين قوة على التمثل ، وثبت عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه قال: « مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ لِي » أخرجه البخارى . ومن هذا نعلم أنه قد يتمثل بغيره ويأتى فيحياكى صورته وكلامه وأحواله ، كما أن لكل إنسان قرينا يعلم أحواله أيام كان على الدنيا ، فلو تمثّل بصورته وحاكى أحواله ونقل أخباره لكان ذلك جائزا ، ومن المعلوم أن الجن تخالطنا وترى أحوالنا وتسمع كلامنا وتتعلّم من علومنا وبلغهم عن يد رسلنا وتعلّم كثيرا من أخبار الناس ، فلو حضروا هذه المجالس وأخبروا بعض حاضرى الجلسة بما وقع منهم أو ما حصل لبعض أقاربهم لكان ذلك جائزا ولا يقوم به دليل على أن الذين حضروهم كانوا من أرواح الموقى السابقين .

ولقد أملانى حضرة صاحب السباحة والفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الصاوى شيخ مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية والذي كان يلزم حضور دروس الإمام الجليل الشيخ محمد عبده قدس الله ثراه ما أنقله هنا بنصه وحرفه قراءة عليه . قال حفظه الله وأبقاه :

(سئل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وهو فى درس التفسير لمجرد مناسبة عن تحضير الأرواح وما هو حاصل فى ذلك الوقت من الروايات المنقولة عن علماء تحضير الأرواح فى الغرب وقد كثر الكلام عنها فى الجرائد السيارة . فقال إني حضرت فى أوربا مؤتمرا يجمع أكابر هذا الفن فحضرت أرواح كثيرين وبعضهم ممن أعرفه قبل وفاته ، ورأيت ذلك مطابقا لما علمته عن هؤلاء الناس ، فسألتهم وكلهم اتجهوا إلى ليسمعوا سؤالى فقلت لهم : إن رأى فى هذا أنه عمل من أعمال الجن وناقشتهم مناقشة جدية فى هذا الموضوع إلى أن تحدّثتهم بإحضار روح المصطفى عليه الصلاة والسلام لأسأله عن الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ولأتبين بلاغته وفصاحته فى منطقته إذا تكلم فى ذلك الوقت ، وكثير من المستشرقين الحاضرين يمكنهم الحكم على ذلك ، وليقننى بأن النبى صلى الله عليه وسلم محفوظ من أن يتمثّل الشيطان بصورته ويؤدى ما يؤديه علمت أنى سأفوز عليهم فلم يلبثوا أن عجّزوا جميعا معتذرين بأن هذه روح عالية لا يمكن إحضارها ، ومن ذلك يتبين جليا أن هذا عمل من أعمال الجن) .

٥ — تكلم بعض هذه الأرواح أنهم فى العالم الآخر منعمون ، وأن أفكار هذا العالم

تخالف أفكارهم فتَوَهَّمُوا أن هناك عذاباً أمر لـاحقِقة له إلا في أذهان الأحياء لأن كل روح استوفت عذابها في الدنيا ، وتخبّر بعض الأرواح أنها تحضر العشاء الرباني في الكنائس وبعضها يحضر في الهيكل ويشارك في القرايين وغيرها في المساجد ، وبعضها يدعى معرفة المستقبل والإنباء بالأخبار العجيبة ، فإذا كان ذلك حقاً فهو تناقض عجيب ، وكيف تكون للأرواح هذه الحرية في كشف المغيبات؟ وأين عذاب القبر وأين الجزاء؟ إن الأديان السماوية جميعاً لاتقر ذلك لأنها ولو اختلفت في الإلهيات فإنها لم تختلف في عذاب القبر واستحقاق الجزاء على العقيدة والأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولأن كل دين يعتبر أن عقيدته أصح العقائد وما سواها باطل وضلال ، فإذا جاءت روح من أرواح الموتى واعترفت أنها تصلى في المساجد لابد لليهودى والمسيحي أن ينكروا ذلك ، لأن دين كل منهما في نظر معتنقه أصح الأديان والأرواح عند انطلاقها من هذا العالم إلى العالم الآخر ترى الحقيقة من سؤال الملّكين وعذاب القبر ورؤية العالم الآخر فكيف لاتزال على دينها الخاطيء ، وكذلك إذا جاءت روح واعترفت أنها كانت في الكنيسة تحضر العشاء الرباني كان على المسلم واليهودى أن يكذبا ذلك وهكذا ، فمن وجهة النظر الدينى الصرف لا يصح تصديق أقوال هؤلاء وإلا كانت جميع وجهات الاعتقادات الدينية فاسدة وعلى ضلال مبين ، وكان الاعتقاد بأى دين مع اعتقاد حرية الأرواح في التدين تناقضاً لا يقبله العقل ولا يستوى معه موجب للاختلاف في التدين ، كما أن هذا يوحى أن كل دين ظهر في الأرض مقبول هناك مهما كان هذا الدين فاسد العقيدة والمنطق ، وإذا خرجت علينا أرواح الموتى من عالم الغيب العلوى ، وكشفوا عن حقائق العالم الآخر وكانوا أحراراً في ذلك أو أخضعهم قانون العلم الطبيعى لهذا الأمر كان التكليف بالإيمان بالغيب على وشك الزوال لأن الإيمان سيتقدم إلى أن يكون وشيك المعاينة فلا سبيل للاختلاف ، وعلى العلماء والقساوسة والرهبان وأرباب الدين أن يودعوا عقائدهم وأعمالهم .

ومن وجهة نظر الدين الإسلامى فلا يسلم بحضور هذه الأرواح على أنها أرواح موتى سابقين لأن فريقاً من العالم المسيحى والعالم اليهودى يقوم الآن بتجربة تخضير الأرواح

وما جاء بزعمهم على لسان هذه الأرواح يتنافى مع ما جاء به الإسلام ، وجاء في كتاب المسترج آرثر فندلاى أن هذه الأرواح تحضر وتضحك وتنكت وتقبل السخرية والملق وتكذب وترأس الجلسات وتؤدب الحاضرين وتعمل أعمالا كياوية ، وبعضها ينبئ أنه كان يحضر العشاء الربانى فى الكنيسة ساعة أن كان بعض حاضرى الجلسة فى الكنيسة فى الأيام السابقة للجلسة ، وعقيدة الإسلام التى لا مزية فيها أن الروح إذا خرجت من جسدها تذهب إلى مستقرها من عالم الروح فى عالم الأمر تحت سلطان الله القوى لا تروح ولا تغدو إلا بإذنه ولا تستحضر بطريقة خاصة من طرق التحضير ولا تغشو هذه المجالس تحت تأثير الموسيقى والرقص والتراتيل الدنية أيا كانت فضلا عن التراتيل الخالفة لعقيدة الإسلام ، ولا تخضع الأرواح لسيطرة محضر مهما كان قدره فضلا عما يقوم به كثير من رعاى الناس من الأعمال المنافية للدين والآداب فى هذه الجلسات ، ولا يمكن أن تقف الروح أمام هؤلاء لتقدم الأجوبة إشباعا لأهوائهم مهما سقط مقام السائل أدبا ودينا ، وإلا لو تمكن هؤلاء من إزعاج الأرواح فى عالمهم بهذا الهراء وقرع مستقرهم فى كل وقت من طوارق السوء بدق الطبول وعزف المزمار والنقر على الموائد وتحريك الفنجانة وترتيل الأناشيد ، لكان عالم الدنيا أفضل من عالم الحقيقة لأنه فى الدنيا لا يستطيع أحد من طغام الناس التحدث إلى ذوى الأقدار فى سخافات العقول أو طرق بيوتهم لسؤالهم فى ليل أو نهار ، إن الله الحي الكريم لا يرضى لعباده الأبرار هذا اللعب وهذا الحقد والبوار فى دار كرامته ، كما أن الدين الإسلامى يقرر فى عقائده بلا خلاف ولا شبهة أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ويقرر أن من مات على عقيدة التثليث فهو مشرك خالد فى النار ، ويقرر عذاب القبر من يوم الموت إلى قيام الساعة للكافرين وإلى الميقات الذى قدره الله لعصاة المسلمين بقول الله سبحانه وتعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ . وَلَكِنْ لَا تَنْبَصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الصَّالِينَ .

فَنَزَلَ مِنْ جَمِيمٍ . وَتَصَلَّيْهُ جَحِيمٌ . إِنَّ هَذَا لَكُوْ حَقُّ الْيَقِيْنِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيْمِ » ^(١) وهذا من ساعة خروج الروح .

ويقول في حق فرعون وقومه : « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ^(٢) أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فإذا كانت أرواح الكافرين تعذب في قبورها أو في مستقرها البرزخى كيف تحضر بهذه الحرية ، ثم تحضر الكنيسة للعشاء الربانى بعد أن اطلعت على الدين الحق وهل هى فى عذاب أم ترح فى الأرض ؟ وهل لم ينته تكليفها حتى تعاود الظهور فى هذا العالم وتخرج أرواح الشريرين هؤلاء الذين عاشوا فى جميع الأجيال الماضية من مستقرها لتزيد العالم فسادا على فساد ؟ . إن معتقد ذلك يخالف عقيدة الإسلام ، ولو أن الله سبحانه وتعالى يخضع الأرواح لقانون العلم الطبيعى وأهواء الناس ونزلت الأرواح لتتكلم مع أهل الأرض لظهر الغيب وعلم الناس كل المغيبات فانتهى التكليف وأصبحت الشرائع لغوا لأن العالم يحتاج حينئذ لقوانين جديدة أو ينتهى العالم الأرضى ليحل محله عالم البرزخ وتنتهى أيام الناس .

السَّهْوَةُ وَالطَّبِ الرُّوحِي : ومن الطرق التى شاعت فى مصر أن يقوم بعض الشبان بتحضير الأرواح فيرسمون دائرة مكتوب فيها حروف الجمل ثم يضعون فنجانة مقلوبة على الدائرة ثم يقوم أحدهم بوضع يده على الفنجانة ثم يدعى أنها تتحرك للإجابة عن الأسئلة بسيرها على الأحرف فتتكون فيها كلمات الإجابة ويتزاحم الحاضرون على ذلك من شباب وبنات لإلقاء الأسئلة على الأرواح التى طلبوها ، وهذه طريقة خطيرة على الأخلاق وقد يحضرها الجن فتمس عقول أو أجساد هؤلاء وتلك من طرق السهوذة الخطرة .

الطب الروحي : وأما الطب الروحي والعلاج بواسطة الأرواح فهو هو بعينه الطب القديم بواسطة الجن والرئي فترق فصار أفرنجيا بعد أن كان بلديا وإن ادعاء أن هذه الأرواح من أرواح الأطباء الشريرين الذين رحلوا إلى العالم الآخر فدعوى لا يقوم عليها دليل كما قدمنا وهي من أعمال السحر المنهى عنها وإن أضرارها كثيرة وخطرة فإن بعض الناس يعتقدون بهذا العلاج ولا يذهبون للتداوى فتكبر العلة . و بعض طرقهم في العلاج خطيرة جدا وهي تحديد موعد لا تنتظار الأرواح وإطفاء النور من الدور وإظلامها في تلك الساعة وهذا يعرض الأطفال وبعض الناس من ضعيفي الإرادة لمس الجن فضلا عن أن من تداوى بهذا التداوى مشرك لأنه أشرك الجن في القدرة على الشفاء ، ولا تطيب له علة لأن الشيطان ينخس المريض من وقت لآخر حتى يقع تحت نير وسلطة الجن ، مرة يتركونه فيهدأ ألم المرض ومرة ينخسونه بالريح العقيم حتى يعتقد في شأنهم ويتطلب على معتمدهم فلا تزول علته ويخشى أن يموت على الشرك أو ضعف الإيمان ويتخبطه الشيطان عند النزاع ، وقد سبق أن بينا ذلك في أحكام السحر والنفث والرقى خاصة ؛ وأنه سيظهر قبل ظهور المسيح الدجال وقبل قيام الساعة كثير من أمثال هؤلاء تسبقهم إرهابات الشياطين ودعايات المضللين من أمثال آفك وغيره من الذين لا يبين عدم قدرتهم على ما يدعونه إلا بعد الإسراف في الاعتقاد فيهم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمر الدين .

وأخيرا أقول للأستاذ الفاضل حسين خالد حمدي : إن من تمويهات شرار الجن الذين يحبون الاستمتاع والاستلاذة بالإنس واستهوائهم أن يتكلموا في أمور الدين والأخلاق بما يناسب عقول الناس ليلبسوا الحق بالباطل يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا حتى تجوز تمويهاتهم ويحلو خداعهم وأنصحهم بالبعد عن التحضير لئلا يكون خدوعا أو يناله مكروه في عقيدته وفي ذات نفسه ولا إخاله وأنا أعرف فيه صدق دينه وحسن نيته إلا متنبها كفاني الله وإياه فتنة الدنيا والآخرة وليعلم أنه تكثر الفتن وتعود الجن إلى الاستمتاع بالإنس لغوايتهم ويكثر ذلك قبل قيام الساعة وقد جاء أشراطها .

أسئلة وأجوبتها :

س : هل للمسلم أن يحضر هذه المجالس .

ج : لا يجوز لمسلم مؤمن موحد أن يحضر هذه المجالس ، لأنه إن كان يحضرها

لاستقراء الغيب ، فقد نهى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن هؤلاء في حكم العرافين والكهنة والمنجمين . عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَتَى عَرَافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » أخرجه مسلم ، وإن كان يحضرها ليؤمن بالعالم غير المنظور فقد يحجره هذا إلى فتنه أو مصيبة فلا يجوز أيضا ، لأن المؤمن الصادق متوكل على ربه ، حسن الظن به « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا » راض بقضاء الله وقدره معتقد بكتبه ، وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحتاج في الإيمان بالعالم الآخر إلى دليل بعد الكتاب والسنة ولا يخالط قلبه ريبة فلا يلتفت إلى غير ذلك ، ولأن الذهاب إلى السحرة والمنجمين والعرافين ومن في حكمهم محرم شرعا ، فضلا عن أن أرواح الموتى لا تحضر بالتحضير ، ومنع مجتمعات تحضيرها واجب شرعا لسد الذرائع ودرء المفاسد من هذا الذي يحصل في هذه المجتمعات المظلمة وحتى لا يقع المسلم تحت حكم الاستلاذة والاستمتاع بالجن ، وقد سبق بيانه في باب عالم الجن .

س : هل يجوز أن تحضر روح متوفى ؟

ج : يجوز أن تحضر روح متوفى في المنام بإذن من الله سبحانه وتعالى أو في اليقظة كذلك بإذن من الله سبحانه وتعالى لا بطلب أحد من الناس ، ورؤياه في اليقظة لا تحصل إلا لبعض أفراد الناس من الأولياء والصالحين عند انصلاحهم من حالة البشرية ، ولو كانوا في إحساسهم يظنون أنهم في حالة عادية وهذا نادر جدا ، كما أنه لا يحصل بوسيط ولا بتحضير ولكن بمحض فضل الله لأهل سره ، وبما أنه حال خاص فإنه لو صدق لا يصح به حكم عام . ولما أراد الله جلّت حكمته أن يظهر آية في التخاطب مع الموتى أظهرها لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فأحيا له الموتى ولم يُنزل له أرواحا تكلمه أمام الناس . وإلى هنا أعتقد أنه قد قطعت جبهة كل خطيب فإن كانوا يحضرون الجن فقد سبقت إلى ذلك عصور الظلام ، ونهى عن هذا التحضير الشرع الشريف لأن لكل عالم تكليفه واختصاصه وسننه ، ونهى عن تمتع الجن بالإنس والإنس بالجن ، وأما إن زعموا أن ما يحضرون

أرواح المولى من الإنس فهذا إفاك مبين ، ومن اعتقد به ومارسه قد يؤدى به إلى الشرك .
نعوذ بالله منه وقلما ينجو من ذلك مهما خدع نفسه . قال الله سبحانه وتعالى : « قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ
إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ
وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ . إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْتُمُونَ . وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ
وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » (١) وقال الله سبحانه وتعالى : « بَلْ نَقْذِفُ
بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » (٢) .

الساعة الرهيبة

هى الساعة التى يجب على كل إنسان عاقل رشيد أن يفكر فيها قبل وقوعها ويستعد
لها قبل نزولها ، ويعمل العمر كله ليفوز فيها ، وليكون مكرما ملطوفا به فى غمراتها وشدهتها ،
ويتزود لها وما بعدها قبل أن يباغته الموت ساعتها فلا يجد زادا ينفعه عند الرحيل من حياة
الغرور ، ولكن معظم الناس لا يعبأون بها ولا يفكرون فيها كأنهم ليسوا مدينين بها ،
أو هم فى شك منها ، كما قال سيدنا الحسن عليه السلام « ما وجدت يقينا أشبه بالشك من
الموت » وما خاف من عاقبتها أحد إلا وسعد بعدها (٣) ، وما لها عنها أحد إلا تحسر وندم
وخسر (٤) ، ومن عجب ترى الرجل إذا رحل من بلد إلى بلد نقل زاده وعتاده وماله وفكر

(١) آية ١٠٨ — ١١٢ الأنبياء . (٢) آية ١٨ الأنبياء .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج
ومن أدلج بلغ المنزل ، إلا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » أخرجه الترمذى .
(٤) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أرى ما لا ترون
وأسمع ما لا تسمعون ، أظن السماء ، وحق لها أن تظط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه
ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ،
ولما تلذثتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى ، لوددت أنى شجرة
تعضد » أخرجه الترمذى .

كثيرا في كيف تكون راحته بها ؛ وتراه إذا أراد النزول في مدينة لبضع ليال يسأل كيف يبيت بها ويختار أحسن نزلها وهو مع ذلك لا يفكر في دار القرار وأى المنازل منها ينزل فيها ؟ وترى الرجل إذا فعل ذنباً يجب أن ينجو من عقوبته ويحب ستره ويخشى الفضيحة والعار بين جيرانه وأهل بلده ، ولا يخشى الفضيحة والعار يوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يجمع الله أجيال الخلق أجمعين ؛ وترى الرجل إذا أقيمت عليه دعوى أمام قضاء قضائه من الناس جمع مستنداته وحججه واختار أحسن المترافعين لينتصر وينجو من العقوبة والغرم ، ولكنه لا يستعد للقضية الكبرى ، قضية الحياة ، قضية الحكم فيها إما بالسعادة الدائمة أو الشقاء المؤبد ، قضية لا تجوز فيها الحيلة وغش القضاء ، ولا تتبدل فيها الإدانة ولا تنفع فيها شفاعت الشافعين إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، قضية لا استئناف لها يحكم فيها أحكم الحاكمين يحكم لامعقب حكمه ، ولكن ياللعجب بينما يخاف الإنسان دنوها ويتزحزح عنها ، وبينما يرى نذيرها فيمن يسبق أجلهم أجله ويودعون الحياة إلى غير عودة إليها فإنه لا يتزحزح عن حب الدنيا مغرورا بالبقاء فيها متكالبا عليها كأنه لاموت فيها وينسى ساعته المحتومة^(١) ويا لها من ساعة وأى ساعة هي ؟ هي الساعة

(١) عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » . أخرجه الترمذى رضى الله عنه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هماً مفقداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر ؟ » أخرجه الترمذى والنسائى رضى الله عنهما .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فصلى على أهل أحد صلته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله أنظر إلى حوضي الآن ، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تتركوا بعدى ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما .

الحاسمة ؛ هي أخطر ساعة وأدق ساعة في حياة الإنسان ؛ هي أمرٌ ساعة تمرّ بكل ذى جسد وروح ؛ هي الساعة التي يتمنى كل إنسان أن لا يشرب كأسها ولا يذوق مرارتها ، ولكن أنى له ذلك وقد حكم الله على جميع العباد فيها بالموت ؟ لم يصرفها عن أحب أحبائه لأنه انفرد بالحياة وحده ؛ قال سبحانه وتعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » ^(١) . هذا الموت الذى تشعر منه إذا ذكر الأبدان ، وتذوب منه النفوس ، وتكاد تصم من سماع اسمه الآذان ، ويفر منه كل مخلوق ويتمنى أن يطول عمره كأنه بطول العمر لا يلاقيه وما له منه مهرب وما له إلى الفرار سبيل « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ » ^(٢) وقال الله سبحانه وتعالى « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » ^(٣) .

يا لها من ساعة لا يعلم الإنسان ميقاتها ولا مكانها ، خبئت في لوح القدر ، واستترت في ظل الأمل ^(٤) ، ولا يدرى الإنسان في غمراتها كيف يكون ؟ ولا في أى مكان يدركه النون ؟ وأى أرض تضم رفاتة ؟ ضمة الأم الغاضبة أو ضمة الصدر الحنون ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ . إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسي إلا فقيرا ، ولا يصبح إلا فقيرا ، وما أقبل عبس على الله بقلبه إلا جعل قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع » أخرجه الترمذى .

(١) آية ١٨٥ آل عمران (٢) آية ٨ الجمعة (٣) آية ٧٨ النساء

(٤) عن أنس رضى الله عنه قال : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وقال : هذا الإنسان وخط إلى جانبه خطا وقال : هذا أجله ، وخط آخر بعيدا منه وقال : هذا الأمل فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب » أخرجه البخارى والترمذى .

نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (١).

يا لها من ساعة يداهم فيها الموت نفوس من دنت ساعتهم لا يعبأ فيها بأهل الذلة والهوان أو أصحاب الجاه والسلطان ، ولا بسكان الأكوخ والدور ولا بسكان الأعالى والقصور ؛ لا يعبأ بالمرضى ولا بالأصحاء ، لا بالفقراء ولا بالأغنياء ، لا بالشيب ولا بالشباب يحيد منها الإنسان ولن يحيد « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » (٢)

يا لها من ساعة يرى حاضرها العمر وقد ولى كأضغاث أحلام ، وأن الحياة كانت غرورا وأوهاما ، يرى كأنه لم يتمتع فيها ساعة من زمان ، وأن الحياة وقد ولت لم يكن شيء فيها قد كان ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ » (٣).

يا لها من ساعة تفصل بين الحق والباطل ، وبين الجسد والروح ، وبين الخليل وخليته ، وبين صاحب الجاه والسلطان وجاهه وسلطانه ، وبين صاحب الضياع والمال وضياعه وماله ، وبين المرء وزوجه ، وبين صاحب العشيرة وعشيرته وأهله ، وولده والناس أجمعين الكل مدين بها لا يردّها أحد عن عزيز لديه ، قال الله سبحانه وتعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٤).

وكأنى بمرريض قرب أجله يطلبون له الطبيب ليداوى علته فيجد الطبيب في استكشاف الدواء الناجع فلا يزداد المريض به إلا توجعا ولا تزداد حالته إلا سوءا ، وتزيد المضاعفات وأهله يقبلون الأرض بين يديه عسى أن يأتيه الشفاء وما هو ببالغه فيشتد على أهله الكرب كلما رأوا زيادة العلة وعجز الطبيب عن العلاج الشافي ، ويدخلون عليه وقد علت وجوههم الكآبة والحزن ، وازدادوا هاما كلما توقعوا دنو المصائب وقرب الفجيعة في أحب الأحباب ، وعزيزهم

(١) آية ٣٣ ، ٣٤ لقمان (٢) آية ١٩ ق (٣) آية ٢٠٥ ، ٢٠٧ الشعراء

(٤) آية ٨٢ — ٨٧ الواقعة

يستغيث بهم من شدة ما يعانیه من الآلام، يتأوه تأوها شديداً ويئن أنيناً يكاد يخرق جوف الأرض ويصيب كبـد السماء، وقد ركب بحر المرض العاتى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، مرة يعلو فوق أمواجه فيستغيث وتحول له الحياة وأخرى يغطه فيغيب من شدة الأوجاع والآلام، ثم يفیق بين القينة والفينة وينظر إلى أهله وولده وهم فى حزن بالغ يـكون قـتـر دـاد حـسـرته وتشتد لوعته ويكثر همه وكربه، ثم يفكر فى ماله وما هو تارك، فمرة يوصى وأخرى إذا ما اشتد عليه الكرب نسى المال والولد وأهمته نفسه وما هو مقبل عليه فندم على ما فرط فى جنب الله، فيألها من شدة تتنازعه فيها شتى العواطف فى ثورة وغزارة وتتجاذبه الآمال المفقودة من حياة أو شك على الرحيل منها وقد باعها عصارة عقله ونفسه وأودعها كل آماله وأمانيه فلفظته غير آسفة عليه، فيذكر ماضيه فى غصة ومكد نادماً على ماضيه فيما لا ينفع، وتزيد غصته ويشد عليه كـمه إذ يرى وشائج القربى والحنان تقتلع من قلوب أقربائه وأعزائه إذ يئس الحبيب من حبيبه ومل القريب مرض عزيزه وأصبح الكل يدعو بدنو ساعة الحمام فيقول يا ليتنى عرفت ربى الذى لا يحفونى إذا جفانى الناس وجفتى الأيام، يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً، ولا أدرى الآن ما يفعل بى، وبينما هو فى هذه الشدة من آلام الجسد والنفس يأتيه الشيطان اللعين يريد أن يلعب به فى المعركة الخاسمة يستغل ألمه وما يعانیه ويقول له: انتهيت من غرورك وآثامك ويحزنه كل الحزن ويئسه من رحمة ربه ويقول له فكر فى الدين الحق لهلك كنت مغروراً بدينك كما كنت مغروراً بأيامك ليسـكـكه وليلبس الحق بالباطل مستغلاً آلام الموت وغمراته^(١) فيشتد عليه

(١) عن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة فإن الحليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصـرع وإن الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصـرع، والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عرق فيه حيا له» أخرجه أبو نعيم فى الحلية ومعظم رجال الحديث بمعناه وهنا ثبت الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى ماضى أيامهم بالقول الثابت قال تعالى: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» نسأل الله التثبيت وحسن الخاتمة لأنه يخشى فى هذه الساعة على المستهترين.

السكرب وتحضر رسل الموت ، ويجلس على رأسه ملك الموت سيدنا عزرائيل عليه الصلاة والسلام فينتزع روحه من أخص قدميه إلى نافوخ رأسه^(١) ويشد ألمه كلما جذبت الروح من عضو من الأعضاء ألما يعجز عن وصفه الواصفون . يروى أنه لما احتضر عمرو بن العاص رضى الله عنه قال له ابنه : يا أبتاه إنك كنت تقول : ليتنى ألقى رجلا عاقلا عند نزول الموت حتى يصف لى ما يجده وأنت ذلك الرجل فصف لى الموت ، قال : يا بنى الموت أجل من أن يوصف ولكن سأصف لك منه شيئا ، أجدنى كأن على عنقى جبال رضوى ، وأجدنى كأن فى جوفى شوك السلام ، وأجدنى كأن نفسى تخرج من ثقب إبرة ، وحقيقة كيف يكون الرجل وهو جائع فلا يجد لأنه استوفى رزقه وهو ظمآن يشد به حريق الظمأ وقد عقل لسانه ، ثم ينظر فيجد أن الدم قد سحب من جوهرة العين واشتد الظلام وهو يعانى جميع الآلام ، ومن حوله شهود يتوجعون ولا يستطيعون تخليصه من أيدي الملائكة .

اللهم الطف بنا وبالمسلمين فى هذه الساعة الرهيبة يا لطيف .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا خُصِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ : أَخْرِجِي رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً عَنْكَ إِلَى رَوْحٍ مِنَ اللَّهِ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنَاقِلُهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ، فَيَقُولُونَ : مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنَّهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُونَهُ : مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ ؟ فَيَقُولُونَ دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا . فَإِذَا قَالَ فُلَانٌ قَدْ مَاتَ مَا أَنَا كَمْ ؟ قَالُوا ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَالِيَةِ . وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خُصِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْجٍ . فَيَقُولُونَ : أَخْرِجِي سَاحِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ ، فَتَخْرُجُ كَأَنَّ نَفْسَ رِيحٍ جَافَةٍ ، حَتَّى

(١) عن السدى فى قوله تعالى : « والنازعات غرقا » قال النفس حين تغرق فى الصدر « والناشطات نشطا » قال الملائكة حين تنشط الروح من الأصابع والقدمين « والسابحات سبحا » حين تسبح النفس فى الجوف تتردد عند الموت .

يَأْتُونَ بِهِ بِأَبِ الْأَرْضِ . فَيَقُولُونَ : مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْكَفَّارِ ^(١) . أخرجه النسائي .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة في المصنف والطيالسي وعبد الله في مسندهما وهناد بن السري في الزهد وأبو داود في سننه والحاكم في المستدرک وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في كتاب عذاب القبر وغيرهم من طرق صحيحة عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فأنتهينا إلى القبر ولما يلحد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال : استعينوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم أكفان من الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السماء وإن كنتم ترون غير ذلك فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون على ملاء من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله تعالى : اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فيعاد روحه في جسده فيأتيه ملائكة فيجلسونه فيقولون له : من ربك ؟ فيقول ربى الله فيقولان ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الرائحة فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعده فيقول له من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يحيىء بالخير ، فيقول أنا عملى الصالح ، فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه

ولقد طلبت من الله أن يمثل لى مثلاً أعرف به معنى من معانى الموت وما بعده لما رأيت شدة المحتضرين وصعوبة هذه الساعة على الحاضرين ، وكيف يرى المؤمن آلامها؟ فرأيت فى منامى ملكا فى صورة شيخ كبير ومعه مثل الكماشة الكبيرة وأمامه بعض الناس ممن دنت آجالهم فوجدتهم يقدمون أنفسهم له باختيارهم واحدا بعد واحد ، والذي يقدم نفسه يميل بعنقه إليه فيضع الكماشة على رقبته ثم يضغط عليها فيكسر على أسنانه ويكفر وجهه إلى أن ينتهى من ضغط الكماشة يسقط جسده جثة هامدة ثم أراه بعد ذلك روحا فى صورة الجسد يضحك مستبشرا فى أشد ما يكون من الفرح، فسألت ذلك الملك لم يضحك؟ وما الذى فعلت به؟ قال كان يلبس هذا المعطف يشير إلى جسده وقد بلى وتهلل ولا يزيده إلا ألما ، ولا يمكنه خلعه إلا إذا خلعت له فإذا خلعه صح واستراح .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينجى أنا ومن أحببى والمسلمين أجمعين من كربات الموت

مدا البصر ثم يحىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الحبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأتين ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الحبيث فيقولون فلان ابن فلان بأفبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - لا تفتح لهم أبواب السماء - فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق - فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك؟ فيقول هاهاه لا أدري فيقولان له مادينك؟ فيقول هاهاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول هاهاه لا أدري فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا من النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعده فيقول من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يحىء بالشر فيقول أنا عمالك الحبيث فيقول رب لا تقم الساعة » .

فإن للموت شدة وسكرات وأن يختم لى ولهم وللمسلمين أجمعين بخاتمة السعادة وأن يرفع أرواحنا إلى عليين وأن يبلغنا درجات الحسنين ويدخلنا برحمته فى عباده الصالحين .

ولا يجوز لحاضرى المحتضر أن يعملوا أعمالا لا ترضى الله سبحانه وتعالى كشق الجيوب ولطم الحدود والدعوى بدعوى الجاهلية ، فإن ذلك مما يوجب عقاب الله ويتأذى منه الميت فإنه يراهم ويكلمهم فى أنفسهم قائلا لهم لا تحزنونى ولا أدرى ما تفعلون بعدى ، وكفانى همى وكربى ، ولكنهم لا يميزون كلامه ولا يفرقون بينه وبين الخواطر وحديث النفس ، ولا يجوز لهم أن يدعوا على أنفسهم بدعاء مكروه ويستحب الدعاء الطيب لأن حاضرى الميت من الملائكة والروح الطيب يؤمنون على الدعاء . عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : « دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ فَأَغْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِالْخَيْرِ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ » أخرجه مسلم والترمذى وغيرهما ؛ وليصبروا على قضاء الله ولا يجزعوا فإن كل مصيبة تبدو فى أولها صغيرة ثم تكبر إلا الموت تبدو مصيبتها كبيرة ثم تصغر ولا يقول أحد إلا ما يرضى الله سبحانه وتعالى رضا بقضاء الله وما كتبه على عباده فإن ذلك يكتب فى صحيفة العبد فى أحسن أعماله ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (١) .

وللموت فليعمل العاملون ولكن لا يتنى أحد الموت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ؛ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزِدُّهُ وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ »
 أخرجه البخارى والنسائى ؛ وفى الأثر : « خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ مُحْمَرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ » وإذا
 كان المرء يحرص على الحياة فليحرص عليها لوجهها الصحيح وهو التزود بالتقوى كما أمر الله
 سبحانه وتعالى « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ »^(١) .
 أى يا أهل العقول والبصائر يا من قد رأيتم نهاية الحياة وأن كل ما فيها زائل « كُلُّ مَنْ
 عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »^(٢) . ولكن إذا نزل الموت بأحد
 فعليه أن لا يجزع وليحسن ظنه بالله وليستبشر ويهون على نفسه ويشتاق إلى لقاء الله فإنه
 مما يهون خروج النفس ؛ وفى الأثر : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ
 لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » وبالشوق إلى لقاء الله عشقا وحبا وصدقا تطمئن القلوب وتزول
 كربات الموت وتخرج الروح راضية مرضية وتسعد وخاصة فى ساعة وداع هذا العالم الفانى ،
 ومن علامات الفوز فى هذه الساعة الرهيبة كثرة ذكر الموت فإنها تعين على هدم
 شهوات النفس وتكبح جماحها وتقيد فى ترك ما لا فائدة منه وتقوى على العمل لما بعد الموت ؛
 وفى الأثر « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ وَمُفَرِّقِ الْجَمَاعَاتِ » وأخرج ابن ماجه عن عمر
 رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى المؤمنين أكيس ؟ قال
 أَكْثَرُهُمُ لِمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ » وفى الأثر
 « قيل يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : نعم من يذكّر الموت فى اليوم
 والليلة عشرين مرة » وعن الحسن عليه السلام أنه قال : « مَا أَلْزَمَ عَبْدٌ قَلْبَهُ ذِكْرَ الْمَوْتِ
 إِلَّا صَغُرَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ وَهَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ مَا فِيهَا » وعن أبى حازم أنه قال : انظر الذى
 تحب أن يكون معك فى الآخرة فقدمه اليوم ، وانظر الذى تكره أن يكون معك ثم فاتركه
 اليوم ، وقال كل عمل كرهت الموت من أجله فاتركه ثم لا يضرك متى مت ؛ قال الله سبحانه
 وتعالى « إِنَّ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ

آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(١) .
 اللهم لاتنسنا ذكرك ولا تهتك عنا سترك ولا تجعلنا من الغافلين .

حياة الروح بعد الموت

لقد ثبت في أدلة هذا الكتاب أن حياة العقل والفكر لا تكونها المادة وإنما هي التي تتسلط على المادة ، فالروح هي المدبرة العاقلة المفكرة المريدة من عالم فوق عالم المادة ويستحيل أن تكون من خلق المادة أو من أسبابها ، وما دامت مما لا تخلقه المادة أو مما تسيطر عليه أسبابها وهي التي تسيطر عليها فهي تتجرد من عالم المادة بإرادة الذي خلقها ولها وجود غير الوجود المادى مجرد عنه بعد مفارقتها ؛ لذلك أجمع أولو الأبواب على بقائها عقلا بعد خروجها من الجسد ، وأجمع أهل الكتب المنزلة على حياة الروح بعد الموت ، وأجمع المسلمون على بقاء الروح بعد خروجها من الجسد ومن خالف ذلك يخالف عقيدة القرآن وما جاء به خير الأنام والآيات والأحاديث الدالة على ذلك لاتقع تحت حصر وسقنا الكثير منها في سابق الأبواب ، ونعيم القبر وعذابه ثابت ، وأما النص على حياة الشهداء فهو نص توقيير وتكريم لأن لهم حياة أزهى وأرقى من حياة غيرهم .

والميت بعد أن يتخلص من غمرات الموت وسكراته تفيق روحه وتيقظ يقظة أهم من يقظتها في الدنيا إلا أنها لاتستطيع التكلم مع أهل الدنيا لأنهم لايتبينون الكلام إلا بالأصوات وكلام الروح من غير صوت وبغير لسان ، فعالم الروح لا يحتاج إلى هذه الأسباب ولكن الأحياء في هذا العالم لا يكتفون الكلام إلا على هذه الصورة التي اقتضاها تكييفهم في هذا العالم وأفوها إلا في حالة النوم فإنهم يبصرون ويتكلمون ويسمعون بصورة أرقى لاتحدّها الحواس الظاهرة فيقومون من نومهم وقد حفظوا ما تكلموا به أو سمعوه وميزوا عذوبة الأصوات من ضدها وجمال التكلم وقبحه دون أن يسمع أو يبصر أحد المتيقظين حولهم شيئاً مما حدث .

والميت إذا خرجت روحه من جسده وقف بين أيدي ملائكة الرحمن يرى ما يفعل بحشته ويعرف من يغسله ويكفنه ويحمله ويشيعه ومن يديه إلى حفرة^(١) فإذا ما قبر أعيدت له حياة أقوى مما كان فيه وهذا من قدرة الله العلى الأجل لا يديرها أهل الأرض ثم أقعد في قبره حتى يسأل .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ . فَيَقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا ، وَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ : لَا أَدْرِي ، كُنْتُ أَقُولُ كَمَا تَقُولُ النَّاسُ . فَيَقَالُ لَأَدْرِيتَ وَلَا تَلَيْتَ ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ : فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما وغيرهما من أصحاب السنن .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ ، يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ » أخرجه البخارى ومسلم والترمذى رضى الله عنهم . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ » أخرجه مسلم والترمذى والنسائى ومالك وأبو داود ، ومعنى هذا أنه يحبس عن العمل فى هذا العالم لانتهاى وقت التكليف ، أما ما بقى له من الصدقة الجارية أو العلم المنتفع به أو الولد الصالح الذى يدعوله فهو نماء أعماله الماضية بما تركه من الأسباب التى تميمها فى أرض التكليف .

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت يعرف من يغسله ويحمله ويكفنه ومن يديه فى حفرة » أخرجه أحمد والطبرانى فى الأوسط وابن منده وابن أبى الدنيا والمروذى .

هياة البرزخ : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشَى ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ
 فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ : فَيَقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى
 يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما وغيرهما من أصحاب السنن.
 وعن هانى مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى
 يبل لحيتيه ، فقيل له : تذكرك الجنة والنار فلا تبكى وتذكر القبر فتبكى ، قال : سمعت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يقول : « الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ
 أَيْسَرُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا رَأَيْتُ
 مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ » أخرجه الترمذى ، وزاد رزين أن هانئا قال : سمعت عثمان
 رضى الله عنه ينشد :

فإن تنج منها تنج من ذى عظمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قَبْرَيْنِ
 فَقَالَ : إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ بَلَى ، أَمَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي
 بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ ، ثُمَّ دَعَا بِعَسِيبِ رُطْبٍ فَشَقَّهُ اثْنَيْنِ ،
 فَعَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا ، ثُمَّ قَالَ لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسُا »
 أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن ، ومن هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها
 على غرارها من الصحيح كثير يعلم أن الأرواح تعذب أو تنعم فى القبور وتحس بذلك ولو لم
 يرعانا المكلف شيئا من ذلك لأنه من مقتضيات التكليف أن يغيب عنا ، ولكن للأرواح
 نعيم فوق ما فى القبور إن كانت صالحة لأن لها بابا إلى الجنة تغدو منه إليها وتسبح فيها مع
 أهل درجاتها ، وترى زائر القبر من إشعاعها عليه ، وأما إن كانت من أرواح الكافرين
 فترى فى سجين ويمتد لهب من النار إلى جثتها من حيث لا يراها الناس فتتعذب إلى قيام

الساعة والساعة أدهى وأمر^(١). وأما عصاة أهل الإسلام فيحبسون أو يعذبون إلى أن تنتهي

(١) ولقد تكلم العلماء في مستقر الأرواح بعد الموت ، ولقد جمع كلامهم ولخصه قطب عصره الولي الرباني والعالم الجليل سيدي عمر جعفر الشبراوي فقال رضى الله عنه : (وأما مقر الروح بعد الموت فهي متفاوتة فيه : فمنها أرواح في أعلى عليين في الملاء الأعلى وهم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهم متفاوتون في منازلهم كما شاهد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ليلة الإسراء ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم فإن بعضهم قد يحبس عن دخول الجنة بسبب دين عليه أو غيره حتى يقضى عنه ، ومنها أرواح السعداء من المؤمنين غير الشهداء وقد اختلف فيها على أقوال : أحدها على أنها على أفنية القبور ، قال ابن العربي وهو أصح الأقوال ، قال والمعنى عندى قد تكون على أفنية القبور لأنها تدوم ولا تفارق بل هي كما قال بعضهم تسرح حيث شاءت . انتهى - وقال العلامة الأمير إنها بأفنية القبور من فوق . انتهى - ثم اعلم أنه قد ورد عدة أحاديث تفيد اختلاف محل الأرواح فمنها يفيد أنها تكون في حواصل طير خضر وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش » قال الحافظ وفي رواية لأحمد وأبي داود : « جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش » وأخرج البخاري عن أنس « أن حارثة لما قتل قالت أمه : يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة مني فإن يكن في الجنة أصبر وإن يكن في غير ذلك ترى ما أصنعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها جنات كثيرة وإنه في الفردوس الأعلى » وأما ما ورد في مطلق أرواح المؤمنين ؛ فمن ذلك ما أخرجه الإمام مالك في الموطأ وأحمد والنسائي بسند صحيح عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » قال الحافظ السيوطي وأخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن أم هانئ أنها : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتراور إذا متنا ويرى بعضنا بعضا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : تكون النسمة طيرا يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها » قال وأخرج الطبراني في مسنده قال « سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أرواح المؤمنين ؟ فقال في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار قال محبوسة في سجين » قال وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب عن سعيد بن المسيب : أن سلمان الفارسي وعبد الله بن سلام التقي فقال أحدهما لصاحبه إن لا قيت ربك قبلي فأخبرني ماذا لا قيت فقال أو يلقى الأحياء

الأموات قال نعم . أما المؤمنون فإن أرواحهم في الجنة وهي تذهب حيث شاءت ومنها ما ورد من كونها في السماء ولذلك استشهد القائل بعموم كون الأرواح في السماء قال وأخرج أبو نعيم بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أرواح المؤمنين في السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم في الجنة » وأخرج أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال : إن لله في السماء السابعة دارا يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته أرواح يسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم ، وفي بعض الروايات ما يفيد أنها تكون بالأرض فمن ذلك ما قاله الحافظ المذكور قال أخرج ابن المبارك في الزهد عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال « أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تشرح حيث شاءت ونفس الكافر في سجين » . قال الإمام ابن القيم : البرزخ هو الحاجز بين الشيتين فكانه أراد في أرض بين الدنيا والآخرة . قال وأخرج المروزي في الجنائز وابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن عمر قال « أرواح المؤمنين في برزخ زمزم وأرواح الكفار في واد يقال له برهوت (١) وبرهوت سبخة في حضرموت » وفي بعض الروايات « أرواح المؤمنين تجتمع بالحامية » قال وأخرج الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمر قال أرواح المؤمنين تجتمع بأريحاء وهي بلدة بالشام وأرواح أهل الشرك تجتمع بصنعاء قال الحافظ المحقق هذا مجموع ما وقفنا عليه من الأحاديث والآثار في مقر الأرواح وقد اختلفت أقوال العلماء فيه بسبب اختلاف هذه الآثار قال : قال ابن القيم والتحقيق الذي لا خلاف فيه أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، ولا تعارض بين الأدلة فإن كلا منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم قال وعلى كل تقدير فالروح بالبدن اتصال بحيث يصح أن تخاطب ويسلم عليها ويعرض عليها مقعدها وغير ذلك مما ورد فإن للروح شأن آخر فتكون في الرفيق الأعلى وهي متصلة بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها رد عليه السلام وهي مكانها هناك وإنما يأتي الغلط هنا من قياس الغائب على الشاهد فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكانا لم يمكن أن تكون في غيره وهذا خاطئ محض ، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء موسى قائما يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة فالروح كانت هناك في مثال البدن ولها اتصال بالبدن بحيث يصلي في قبره ويرد على من يسلم عليه وهو في الرفيق الأعلى ، ولاتنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان . وقد مثل ذلك بعضهم بالشمس في السماء الرابعة وشعاعها في الأرض وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على عند قبري سمعته » . هذا مع القطع بأنه في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء وهو الرفيق الأعلى فثبت بهذا أنه لا منافاة بين كون الأرواح في عليين أو في

(١) برهوت كجملون : واد أوبتر بحضرموت .

أيام العقوبة أو تطول حتى يوم الحشر أو تزيد حتى يخرجوا من النار ويغتسلوا في نهر الغفران وكذلك يحبس المرء حتى يؤدي عنه دينه ، وقد أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة على المدين ولو كان من الشهداء حتى يؤدي دينه . اللهم لا تخرجنا من الدنيا إلا بأحسن ما يخرج منها أهل الصلاح والفلاح غير مدينين ولا موزورين .

هذا ، ولقد رأيت والدى رضى الله عنه بعد انتقاله فقلت له : أود أن أسألك بعض الأسئلة فهل تسمح لى ؟ فقال نعم فقلت له : هل كنت تعلم شيئاً عند الموت وبعده ؟ قال نعم كنت أراكم جميعاً ، ورأيت من شيعونى ومن أنزلونى إلى قبرى وإخوانى الذين مكثوا معى بعد نزولى يقرأون القرآن حوالى حتى خرجوا من القبر فقلت له هل تسكن القبر ، وهلا تسأم المكت فى القبر وهو على صورته التى نراها ؟ قال أرى القبر ولكن لنا مجامع نكون فيها ونأتى ونزاور

الجنة أو فى السماء وأن لها بالبدن اتصالاً بحيث تدرك وتسمع وتصلى وتقرأ وإنما يستغرب هذا لكون الشاهد الدنيوى ليس فيه ما يشابه هذا وأمر البرزخ والآخرة على نمط غير المألوف فى الدنيا إلى أن قال والحاصل أنه ليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها فى قبورها ليحصل لها من النعم ما كتب لها انتهى ابن القيم . وقال الحافظ ابن حجر : أرواح المؤمنين فى عليين وأرواح الكفار فى سجين ، ولكل روح بجسدها اتصال معنوى لا يشابه الاتصال فى الحياة الدنيا بل أشبه شىء به حال النائم وإن هو أشد من حال النائم اتصالاً قال وبهذا يجمع بين ما ورد أن مقبرها فى عليين أو سجين وبين ما نقله ابن عبد البر عن الجمهور أنها عند أفنية القبور ومع ذلك فهى مأذون لها فى التصرف وتأوى إلى محلها من عليين أو سجين . قال وإذا نقل الميت من قبر إلى قبر فالاتصال المذكور مستمر وكذا إذا تفرقت الأجزاء وقال صاحب الإفصاح . المنعم من الأرواح على جهات : منها ما هو طائر فى شجر الجنة ، ومنها ما هو فى حواصل طير خضر ، ومنها ما هو فى حواصل طير بيض ومنها ما يأوى إلى قناديل تحت العرش ونحو ذلك مما تقدم من الأحاديث والأقوال ، قال القرطبي وهذا قول حسن يجمع الأخبار المتقدمة حتى لا تتدافع . قال الأستاذ الجلال وذكر البيهقي فى كتاب عذاب القبر نحوه لما ذكر حديث ابن مسعود فى أرواح الشهداء وحديث ابن عباس ثم أورد حديث البخارى عن البراء بن عازب قال « لما مات إبراهيم ابن النبی صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن له مرضعاً فى الجنة » . ثم قال فسكنه النبي صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم بأنه يرضع فى الجنة وهو مدفون بالقيع فى مقبرة المدينة . هذا ما نقل فى الروح من الأحاديث والأقوال ، وقد علمت التحقيق والله أعلم .

قلت له وإذا لم يرض من تزوره ؟ قال من أذن له لا يرد وأنا أزور من أحب ، وكنت أود أن أسأله أكثر من ذلك ولكنى تيقظت .

وصفوة القول أن الحياة هناك أرقى من حياة هذا العالم للمؤمن وأقل من الحياة بعد المبعث، ومهما سمعنا عنها فإنها من المغيبات التي لا ندركها مادامنا في هذا العالم ونقف منها عند الآثار الصحيحة التي ورد بها الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، والحديث الذي اعتمد عليه في البشري للمؤمن وما سوف نكون عليه حياته بعد الموت هو ما ورد عن كعب بن مالك رضى الله عنه إذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعُهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ » أخرجه مالك والنسائي رضى الله عنهما أى أن نسمة المؤمن على هيئة طائر تلوذ بشجر الجنة ، وأما اتصالها بالقبر فاتصال بإشراف وهذا نعمة من الله للأحياء حتى تعرف روح المتوفى زائرهما وترد عليه السلام فيقع في قلبه فيحصل له برد الرضا إذا كان محزوناً من فراقه ، أو تحصل له لذة الوصلة الروحية إذا كان من أحبائه ويؤجر على الوفاء والود والبر والصدقة وحتى لا ينقطع حبل التوادد والتراحم والمعروف والوفاء بين الأحياء والأموات ، ولا تكفى النية فإن زيارة القبر جسدها والعمل المادى إثباتها لمن هم في دار الحس والشعور ، ولا تزال الأرواح ترنو إلى قبورها ما دامت معروفة ، ولها زائر محب في الله . أما أرواح أهل الوصلة من الأحياء والأموات فهي مجتمعة بإحساس القلوب وقوة المحبة في الله مهما تناءت الأجساد والله أعلم وأعز وأكرم .

أسأله العفو عن التقصير والتجاوز عن الخطأ وغفران الذنوب ، وأن ينفع بكتابه هذا المسلمين والناس أجمعين . وأن يتقبله قبولاً حسناً ويزيد في الأجر والثواب لمؤلفه وقارئه وسامعه وناشره للانتفاع به . وصلّى اللهم على سيدنا محمد أسعد السعداء من خلقك ، وأفضل رسلك من ملأ الأرض علماً ونوراً حتى اغترف من بحره الخضم كل مغترف (ولا تنضح البحار السقاء) وعلى آله وصحبه وسلم .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ؟

٢١ جادى الثانى سنة ١٣٦٦ هـ

١٢ مايو سنة ١٩٤٧ م

تصويب

وقعت في أثناء الطبع بعض الأخطاء فترجو من حضرة القارئ تصحيحها قبل قراءة

الكتاب ، وهي :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٠	٦	ذريته	ذريته
٢٧	٦	خلفت	خلقت
٢٧	١٣	أثناء	في أثناء
٢٧	١٨	محبوباتهم	في محبوباتهم
٢٩	٢	فيرتقون	فيرتقون
٣٢	٢٢	فلا يعرف	فلا يعرفه
٤٠	١٦	التكليف	التكاليف
٤٩	١٠	سماءاً	سماء
٥٣	٤	والتداخل	والتدخل
٥٣	١٩	وعاقبة	وعاقبة
٥٤	١	وانخذوا	وانخذوا
٩٤	٧	في الشر	في شر
٩٥	٥	تحدث	تضعف
٩٨	١١	أثناء	في أثناء
١٠٠	٢	أعانهم	أعنهم
١١٥	١٨	أفصبح	فأصبح
١٢٠	٥	الشَّيْمُ	الشَّيْمُ
١٢٠	١٣	الغَيْرُ	الغَيْرُ

صواب	خطأ	سطر	صفحة
كَوَأَنِّي	لَوْ أَن	١٠	١٢٦
قَبْرُ	قَبْرُ	١٧	١٢٨
فِي أَثْنَاء	أَثْنَاء	١٢ و ٨	١٣١
فِي أَثْنَاء	أَثْنَاء	١٢	١٣٢
فِي أَثْنَاء	أَثْنَاء	١٧ و ٨	١٣٤
فِي أَثْنَاء	أَثْنَاء	٦ و ٣	١٣٥
فِي أَثْنَاءِهَا	أَثْنَاءِهَا	١٠	١٣٥
فِي أَثْنَاء	أَثْنَاء	١٨	١٣٥
فِي أَثْنَاء	أَثْنَاء	١	١٣٦
عن كل عالم غير منظور	عن عالم غير المنظور	١٥	١٤٧
الْمُخْلِصِينَ	الْمُخْلِصِينَ	١٤	١٤٨
وَالْمُؤْمِنِينَ	وَلَهُمْ	١٣	١٧٧
الْمُخْضِعُونَ لِأَوَامِرِ الشَّرْعِ	الْمُخْضِعُونَ	٦	١٨٤
لَا يَقْعُونَ	لَا يَقْعُونَ	١	١٨٦
التَّوَلَّاهُ	التَّوَلَّاهُ	١٤	١٨٩
تَرْبِيْن	تَرْبِيْن	٢٣	١٩٠
أَنَّ الْإِنْسَانَ	أَنَّهُمْ	١	١٩٢
بَعْضُ	بَعْدُ	٣	١٩٥
غَيْرِ الْمَنْظُورِ	الْغَيْرِ الْمَنْظُورِ	٤	٢٠٢
حَتَّى	ثُمَّ	٣	٢٠٣
بِوَسَاطَتِهِ	بِوَسَاطَتِهِ	٦	٢١٥
عَلَى	عَنْ	٥	٢١٦

الناشر

جمعية نشر الثقافة الإسلامية

ويطلب من :

- مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالأزهر بمصر .
- الثقافة ، بالسيدة زينب .
- دار الكتب الأهلية بالأوبرا .
- ومن جميع المكتبات الشهيرة بمصر والأقطار العربية .

الثن ٥٠ قرشا

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072539339